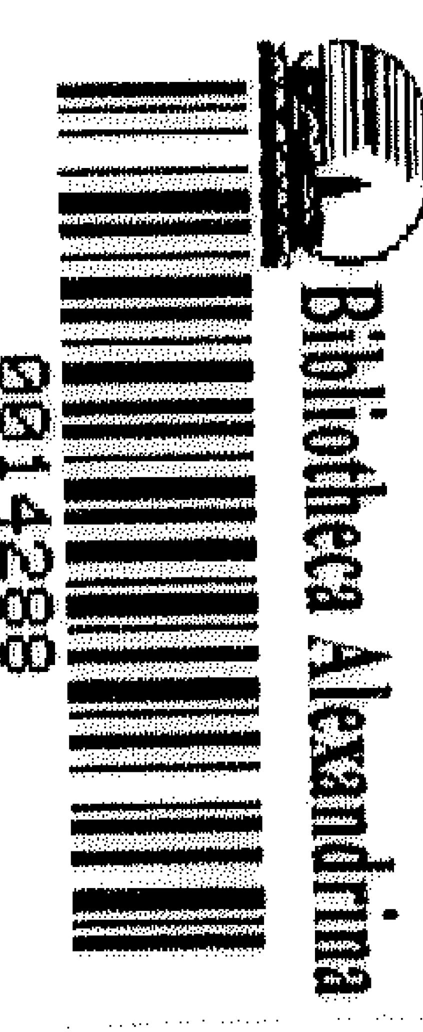
دار الثقافة

كنائس المشرق



دكتور عزت زكى

كنائس المشرق

تأليف

الدكتور عزت زكى



طبعـــــة أولــــــى

صـــدر عـن دار الثقافــة – ص . ب ١٢٩٨ – القاهـرة

١٠ أ / ٥٠٥ ط١ / ٣ – ٣ / ١٩٩١
رقم الإيداع بدار الكتب : ٤٣٢٦ / ١٩٩١
جمـع فــى سـيوبـرس ت : ٩٠٦٦٨٣ – ٩٣٧١٣٠ .
طبـع بمطبعـة دار نـوبـار للطباعـة – شـبرا – القاهـرة .

محتويات الكتاب

الموضوع **الصفحة**

كلمة

وها نحن نقترب من ختام رحلتنا الطويلة عبر السنين....

وها نحن نقترب من ختام رحلتنا مع تاريخ الكنيسة، وصراعها عبر الأجيال..

فلقد رافقنا الكنيسة طفلة تحبو، عزلاء إلا من إيمانها بربها، لاسلاح لها إلا سلاح الكلمة، وسط عالم القوة والحديد والنار، ولكم جاز السيف فى أعماقها... ولكم اجتازت فى النيران. ولكنها بسيف الكلمة الحى، استطاعت أن تقهر امبراطورية السيف، وبنيران الغيرة لمسيحها، والمحبة لفاديها وربها، استطاعت أن تطفىء نيران الأحقاد، والاضطهاد، وتنتصر، حتى ولو عن طريق الاستشهاد.

بل رأيناها طفلة تحبو لتصل إلى مدرجات الأريوباغ، وتنتصر على فلسفات وأفكار سحرت ألباب القرون، وهتفت لها الأجيال... تنتصر على الأفلاطونية. ويسلس لقيادها أرسطو، وتزهو فى فلسفة الأكوينى، والمدرسين. ويكون لها مع غيرها وغيرهما شأن وشأن..

بل رأيناها بعد القرون الخمسة الأولى، تصبح شجرة وارفة ممتدة الأغصان. والشجرة الوارفة ذات الأغصان الممتدة تغرى طيور السماء... الطيور الصائحة الناعقة -ولا تنعق بين الطيور إلا الغربان، ولا ينعب إلا البوم- بأن تأتى، وتتخذ من أغصانها مأوى وأعشاشاً. فتكون الشقاقات، وتكون الهرطقات، وتكون البدع والمحاربات فى الداخل تفت فى عضد الكنيسة، وتحطم فى كيانها، فتجتاز فيما نسميه بالعصور المظلمة... وتحاول الكنيسة أن تعوض هذا النقص المشين، بأن تَهُبَ إلى الصليب، شعار التضحية والفداء، فتدبب أسفله أو تصقله وتحدده، وتحوله إلى سيف. وتهب زرافات ووحدانا، فيما أشبه بالحمى وأقرب إلى الجنون،أو فيما يشبه الوباء الجارف يكتسح دول أوربا، من الصغير إلى الكبير.

وتحت ستار الدفاع عن أرض الصليب - وحماية قبر صاحب الصليب، تداس كرامة رب الصليب ومبادؤه تحت الأقدام، وتكون النهاية الحتمية التى نادى بها ملك المحبة، إن «الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون».

ولم تعدم الكنيسة خلال تلك الأجيال، من ومضة من السماء، تومض فى وسط الظلام، فى شخصية تظهر داعية للحق، أو صيحة تدوى لتوقظ الجماعات المخمورة فيكون نصيب داعية الحق، نصيب ربه ومسيحه: صليباً كبيراً، وأربعة من المسامير الغلاظ، وسلسلة حديدية يغل بها الصليب ومن عليه ونيراناً تُشعل فيه..

إلى أن نأتى للقرون الوسطى، أو بُعيد القرون الوسطى لتهزنا، وتهز دول أوربا، وتزلزل عرش روما، صيحة من راهب مغمور فى وايتنبرج، تختلف فيها الآراء وتتضارب،وتثور ضدها العواصف وتزمجر، لولا مراحم رب العالمين ليس بصاحب الصيحة وحده بل بكنيسته المستعبدة المستشهدة. ويقول قائل: إن الظروف خدمته، ويقول آخر إنه أفاد من الصراع القائم والمنافسة بين دويلات ألمانيا المتضاربة وحكامها، ولكن الحقيقة التى لا مراء فيها أن السياسة هى الأتان التى يركبها المسيح وأنه على هذه الأتان، يركب داخلاً دخوله الانتصارى فيهز العروش ويقوض الممالك. وتركع أورشليم الدين، وأورشليم السياسة، وأورشليم المادية وأورشليم الحماقة عند موطىء قدميه. فما لوثر وملانكثون، وزوينجلى وأرازمس، ومنتخب سكسونيا، وعشرات غير أولئك وهؤلاء إلا قطع الشطرنج بين أصابع ملك الملوك ورب الأرباب، يحركها ليتمم أغراضه العظمى على رقعة هذا الوجود.. حتى إذا أتينا إلى العصور الحديثة نرى العدو. والعدو يتخذ أكثر من مظهر ويمسك بأكثر من سلاح، يجابه الكنيسة، بعد القوة الغاشمة، والحماقة المتهورة، بسلاح العقلانية الصارمة. فيكون لقادة الكنيسة ومفكريها - أكثر من صراع ضد قوات الظلمة. ولرب ضارة نافعة، فتتبلور العلوم الحديثة لدراسة الكتاب، ونقده، ومؤازرة حقائقه

وأحداثه، بأحدث الاكتشافات، فى مجال العلوم، والحفريات وغيرها. ويقدر للكنيسة الظفر أو هى فى الطريق إليه، وتنفض عنها الأغلال فتقوم كنيسة مرسلية تجتاح أمماً، وتقتحم حصوناً، ويكون لها شأن وشأن.. حتى إذا وصلنا إلى القرن العشرين، نراها تحاول، قد تكون محاولة متعثرة، ولكنها تشير إلى طلبة، ورغبة حبيبة، نادى بها رب الكنيسة أو طلب من أجلها، منذ ألفى عام، أن ترأب صدعها وتلم شملها، لأن الاتحاد قوة، والفرقة ضعف. فتكون الحركة الأكيومونية، أو المسكونية، ويكون اللقاء، أكثر من لقاء، لقيادات، ورؤساء طوائف، حول مائدة مستديرة، تتصافى فيها القلوب. وتتصافح النفوس قبل الأيدى..

بقيت لنا دائرة أخيرة، فى مجال التاريخ الكنسى، نصطحب فيها القارىء الكريم فى جولة حبيبة...

هذه هى دائرة الكنائس الشرقية،أو بالأحرى مسيحية الشرق وهى ما آثرنا الصمت عنها طيلة هذه المسلسلة، عن إغضاء طرف. فليس أعز على أبناء مصر، وهى قلب الشرق النابض، من كنائس المشرق، وعلى الأخص كنيسة مصر. ومهما تضاربت العقائد، وتصارعت الفلسفات الكثيرة وراحت تجذب العقول. أو تخلب النفوس. فالكنيسة الأم عزيزة على قلب كل ابن مخلص. وما كان فينا الابن العاق، فليس العقوق من شيم الكرامة. ولكننا آثرنا أن نبقى الخمر الجيدة إلى النهاية... ويكفيك فخراً ياكنيسة القبط، أن روما بهيلها وهيلمانها ما استطاعت أن تمحق صورتك من أرض كيم، وأن رمال الصحراء التى حملتها العواصف - ما استطاعت أن تدفن مذابحك، وتسوى بالأرض هياكلك. وإن كانت قد اعترتك فترات من الضعف، والخمول، فقد سبقتك إلى هذا كنيسة أوروبا... يكفيك فخراً ياكنيسة مصر، أنك كنت الرائدة فى مجال ترجمة الكلم الأقدس. فقبل ظهورك على ضفاف النيل، شهدت الاسكندرية، فى عهد بطليموس، ترجمة أسفار التوراة

إلى اليونانية... تلك الترجمة السبعينية التى كانت ينبوعاً صافياً للرسل الآباء، ومن بعد ذلك ترجمت أسفار العهد الجديد إلى اللغة القبطية.. يكفيك فخراً أن علماء أوروبا يتكالبون على ترابك، ينبشونه ليكتشفوا رقاً من رقوق البردى سُطرت عليه بضعة سطور من التوراة، أو يتخاطفوا كسراً من الفخار سُطرت عليها كلمات تلقى أضواءً على الكنيسة المسيحية الأولى، ويكفيك فخراً أن مياه النيل قد تخضبت بدماء شهدائك وأن تراب مصر قد اختلط بأشلاء أحرارك....

والآن لم يتبق لنا إلا أن نصمت، ليتحدث التاريخ.

المؤلف

كنائس المشرق

- **كرسى الإسكندرية** : أقباط مصر وكنيسة الحبشة.
- **كرسى أنطاكية** : العاقبة عبر التاريخ.
- **النساطرة** : شعب يسكن وحده.
- **كنيسة جنوب الهند**
- **الكنيسة المارونية** : المسيحية الدامية فى ظلال الأرز.
- **الكنيسة الأرمنية** : سطور كُتبت بالدماء
- **كنائس المسيحية الغاربة**

النوبة... قرطاجة... المدن العشر

الجزء الاول

كرسى الاسكندرية

اقباط مصر وكنيسة الحبشة

الفصل الأول من هنا البداية

الفصل الثانى على ضفاف النيل

الفصل الثالث من الرهبنة المتوحدة، إلى الانطلاقة المرسلية ..

الفصل الرابع فترات حاسمة فى تاريخ الكنيسة ..

الفصل الخامس سطور عن اللغة والأدب، والموسيقى القبطية ..

الفصل السادس الكنيسة الأثيوبية فى مهب الريح.

الفصل الأول

من هنا البداية

إذا جاز لنا أن نستعير من المؤرخين الكنسيين شيئاً من تعبيراتهم فإننا نستطيع أن نطلق لقب العصر الرسولي، على القرون الثلاثة الأولى لميلاد المسيح، كما نستطيع أن نلقب القرون الثلاثة التي تلت ذلك بالعصر الذهبي للكنيسة.

أما عن نيران الاضطهاد، فقد تركزت بصورة رهيبة في الفترة الأولى. ولكن ليس معنى ذلك أن الفترة الثانية كانت خلواً من المتاعب والاستشهاد، إلا أنه لم يكن بصورة رسمية، ولم يستند بعد على حكم القانون بعدم شرعية الديانة المسيحية، كما كان في العصر الرسولي. لقد توقف عهد الاضطهاد الرسمي بنهاية عصر مكسيميانوس عام (٣١٤ م) واعتلاء قسطنطين عرش الأباطرة... ولكن في كل الأحوال، كان لشجاعة الشهداء، ولقائهم للموت دون خوف، أثره في نفوس الوثنيين حتى تزايد عدد المسيحيين. وبدلاً من أن تنكمش الكنيسة، ازدادت انتعاشاً بارتوائها بدماء القديسين، حتى أننا نستطيع أن نقول عن حق وصدق إن دم الشهداء هو بذار الكنيسة... ولقد كان لمسيحيي فلسطين النصيب الأقسى من الاضطهاد. وذلك لوجودهم بين شقي الرحى: اليهود من جانب، والرومان من الجانب الآخر. ولكن منذ أصبح قسطنطين الإمبراطور المسيحي للبلاد، دخلت المسيحية عصرها الذهبي وتوفرت لأبنائها حرية العبادة والتبشير، وتحولت معظم الهياكل الوثنية إلى كنائس.

إلا أنه يبدو أن خمود نيران الاضطهاد، أو هدوئها، ودخول الكنيسة في ركاب الأباطرة،وما نجم عن ذلك من ثرائها وازدياد نفوذها، قد دفعها إلى حياة الترف والكسل والتراخي، وإلى التصارع على المراكز الكنسية فاشتد الخلاف بين

البطاركة ورؤساء الأساقفة وثار التنافر والخصام. ووجد عدو الخير فرصته فى خلق البدع والهرطقات، والتحزبات والانقسامات التى تميزت بها الفترة الثانية من تاريخ المسيحية.

ولقد ساعد على الانشقاق بين الشرق والغرب، نهاية عهد ثيؤدوسيوس الكبير بوفاته عام (٣٩٢ م) حينما تولى ابناه من بعده، أركاديوس على مملكة الشرق وعاصمتها القسطنطينية، وأنوريوس على مملكة الغرب، وعاصمتها روما. فانقسمت الإمبراطورية الرومانية بهذا إلى شرقية، وغربية. وكان هذا بذار الشقاق فى الكنيسة..

وجاء دور الانشقاق فى الكنيسة فى القرن الخامس. وازداد خطورة فكان من أقسى النكبات التى مُنيت بها المسيحية بل أقسى من اضطهاد الأعداء لها، إلى أن كان الانقسام النهائى عام (١٠٥٤ م) حينما انقسمت الكنيسة إلى شرقية بيزنطية وغربية رومانية. ومع أن هذا الانقسام قد أضعف الكنيسة فى الشرق، إلا أنه ساعد على تقوية النفوذ البابوى فى الغرب.

وقد يؤكد البعض، استناداً إلى منطق التاريخ، أن ذلك الانقسام حدث لتفسير خاص لعقيدة من عقائد الإيمان المسيحى دفعت إلى ذلك التصادم والتحزب. لكن البصير بأعماق الأمور يستطيع أن يرى خلف هذه العوامل السطحية منافسات ذاتية، وخصومات وتصارعاً على مناصب كنسية، وتبايناً فى الاتجاهات ومجاراة لبعض الأوضاع السياسية وغير ذلك من الأمور الشخصية. وها نحن نرى أن الانشقاق استغرق ما يزيد على خمسة قرون كاملة. حتى وصل إلى منتهاه عام (١٠٢٤ م) بدخول الصليبيين إلى القسطنطينية، واستيلائهم على الكنائس الشرقية، ونهب تحفها ونفائسها، حتى انقطعت الصلات نهائياً بين كنيسة الشرق، وكنيسة الغرب.

قلنا إن إهلالة عصر قسطنطين، على ما لقب به من العصر الذهبى للكنيسة، لحصولها على أسباب الراحة من جهة خصومها، كان بداية عصور الهرطقات والبدع. الأمر الذى استدعى انعقاد أكثر من مجمع من المجامع الكنسية لفحص هذه الهرطقة، وإصدار الحكم على تلك.

وقد كان أول هذه مجمع نيقية عام (٣٢٥ م) لفحص بدعة أريوس، وتمخض عن حرمان أريوس. ووضع بنود قانون الإيمان النيقوى الذى صادق عليه ثلثمائة وستة عشر أسقفاً من أساقفة كنائس المشرق. غير أن هذا القانون لم يحدد صفة وذاتية الروح القدس.... وبعد أن انتهى المجمع من فحص قضية أريوس، تداولوا فى أمر عيد القيامة، وتحديد موعده وقد أوكل هذا إلى بابا الإسكندرية وكان يصدر كل عام رسالة فصحية توزع على كافة الكنائس ويحدد فيها موعد أكبر أعياد المسيحية.

ومع أن المجمع أصدر قراره بحرمان أريوس، إلا أن هذا المبتدع استمر فى تعكير صفو جو الكنيسة، حتى أنه استمال بقوة تأثيره، قسطنشيوس ابن قسطنطين، فأثار عاصفة من الاضطهادات على المتمسكين بقانون الإيمان النيقوى وكان الأنبا أثناسيوس الرسولى على رأس القائمة ورغم ما قاساه من مرائر إلا أنه ظل أميناً على الإيمان المسلّم للقديسين، حتى أن الكنيسة لقبته بحق «حامى الإيمان»... وفى عام (٣٨١ م) انعقد المجمع الثانى، وهو مجمع القسطنطينية لفحص هرطقة جديدة نادى بها أسقفها المدعو مقدونيوس، منكراً لاهوت الأقنوم الثالث. وقد أعلن المجتمعون تمسكهم بالإيمان النيقوى، وأضافوا إليه الصيغة الأخيرة الخاصة بالروح القدس، وهو القانون الذى يُتلى فى الكنائس حتى أيامنا الحاضرة. ثم كان المجمع الثالث الذى التأم عام (٤٣١ م) فى أفسس، لمناقشة هرطقة نسطوريوس أسقف القسطنطينية وخلاصة بدعته أن المسيح شخصان

متباينان، أحدهما إلهى، والثانى إنسانى، يعمل كل منهما على حدة تبعاً لطبيعته، أما السيدة العذراء، فهى أم المسيح فقط، ولا يمكن أن تلقب بأم الله.

ولقد اجتمع فى أفسس، مائتان من الأساقفة، واستمعوا إلى تفسير الأنبا كيرلس فى هذا المشكل، فأوضح لهم أن اتحاد اللاهوت بالناسوت فى شخص المسيح، اتحاد تام، بغير اختلاط أو امتزاج أو تغيير. وهو أشبه باتحاد النار بالحديد. فحين يطرق الحداد قطعة الحديد المحماة فى النار، فإنه يضرب الحديد، فى الوقت الذى تكون النار مشتعلة فيه ومتحدة به. ولكن النار لا تتغير طبيعتها ولا تختلط بالحديد أو تمتزج به. كما أنها لا تتأثر بطرقات المطرقة. وكذلك نار اللاهوت اتحد بالناسوت، فى شخص المسيح الواحد. وحين قبض اليهود على المسيح، وجلدوه ثم صلبوه، وقع الضرب والصلب، على جسد المسيح، مع أن الجوهر الإلهى كان متحداً به اتحاداً كاملاً. ولكن بلا امتزاج، أو اختلاط، أو تغيير...

وكما أن والدة كل إنسان لا دخل لها فى الروح التى تحل فى ابنها وتسيره بين الأحياء، إلا أننا لا يمكن أن نقول إنها أم جسد فلان، بل إنها أمه، كذلك لا يمكن أن نقول إن العذراء أم الناسوت، بل هى أم الله المتجسد.... وهكذا أفحم نسطوريوس، وحكم عليه بالحرمان، والتجريد من رتبته الكهنوتية... وكما تطرف نسطوريوس وقال بكمال الناسوت وانفصاله عن طبيعة اللاهوت،فإن أحد آباء القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس، ويدعى أوطيخا نادى هذا المبتدع بأن المخلص له طبيعة واحدة، هى الطبيعة اللاهوتية، وأن جسده، لأنه جسد الإله المتجسد ليس نظير أجسادنا وبخصوص هذه البدعة، التأم المجمع الرابع الكبير فى خلقدونية عام (٤٥١ م). وأصدر بالإجماع قراره التالى...

إننا نعترف بابن واحد هو هو نفسه ربنا يسوع المسيح، وهو كامل بحسب

الناسوت، من نفس واحدة وجسد، فهو إنسان حقيقى، وإله كامل بحسب اللاهوت مساوٍ للآب فى الجوهر. فهو مساو لنا فى جوهر الناسوت، ومولود من الآب قبل كل الدهور من جهة اللاهوت. إنه المسيح، والابن، والرب، والواحد، بطبيعتين بلا اختلاط، ولا تغيير، ولا انقسام، ولا انفصال... وفى مجمع خلقدونية حدث الصدام بين أباطرة القسطنطينية وكرسى الإسكندرية، مما تسبب عنه أكثر من صراع وانقسام بين أساقفة الكنيسة البيزنطية، والجالس على كرسى الكرازة المرقسية. ثمة صراع آخر حدث بين الكنيسة الغربية، والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية، عام (١٠٩٩ م)، حينما احتلت قوات الصليبيين مدينة القدس، وحاولت أن تفرض سلطان الكنيسة اللاتينية هناك، وتجعلها تحل محل الكنيسة الأرثوذكسية. ولقد فر البطريرك الشرقى سمعان، إلى قبرص، واستولى الكاثوليك على أملاك الكنيسة، ونَصَّبوا بطاركة لاتين يدينون بالولاء لروما، تعاقبوا الواحد بعد الآخر، على الكرسى الأورشليمى عاماً بعد عام طيلة حكم الصليبيين. وأقام اللاتين لهم أساقفة فى جميع المراكز الأسقفية، ولم يبق تحت سيادة الكنيسة الأرثوذكسية سوى أسقفيات اللد، والرملة، وصبرون، حتى انتهت موجة احتلال الصليبيين عام (١١٨٧ م)، حينما أخذ سلطانهم يتقلص، وتمركزوا فى عكا....

وأما أسقفية غزة فقد ظلت تابعة للكنيسة اليونانية، لأن أهالى غزة، من الأصل كان معظمهم من اليونانيين قبل اعتناقهم للمسيحية.. ونستطيع أن نلخص هيئات الكنيسة الأرثوذكسية، والتى أخذت تنظيماتها عن الإمبراطورية الرومانية البيزنطية، على النحو التالى: ومعنى هذا التنظيم أنه حيثما توجد دولة مستقلة، وجب أن تقوم كنيسة مستقلة تشكل وحدة مستقلة فى إدارة شئونها، غير أنها ترتبط بالكنيسة الأرثوذكسية الجامعة، بروابط الشركة المسيحية والأخوة والمحبة...

نقول إن تنظيمات الكنيسة الأرثوذكسية يمكن أن نلخصها على النحو التالى،

في عصرنا الحاضر:

أولاً: البطريركيات الأربع القديمة، وهى القسطنطينية، والإسكندرية، وأنطاكية، وأورشليم..

ثانياً: مجموعة الكنائس المستقلة فى قبرص، وجورجيا، وسيناء وقد انضمت كنيسة جورجيا إلى الكنيسة الملكية..

ثالثاً: الكنائس القومية فى روسيا، ورومانيا، واليونان، ويوغوسلافيا وبلغاريا.

رابعاً: الكنائس فى البلاد التى يشكل الأرثوذكس فيها أقلية، مثل بولندا، ورومانيا، وفنلندا.

خامساً: الكنائس المهجرية الأرثوذكسية فى الشرق الأقصى وفى الغرب، كما فى الأمريكتين، واستراليا..

أما قبل ذلك، فقد انقسمت الكنيسة الشرقية إلى النسطورية والتى تعرف بالديوفسيتية. أى القائلة بالطبيعتين، والمنوفسيتية أى القائلين بالطبيعة الواحدة، وهى تضم الكنائس القبطية، والأثيوبية والسريانية الغربية، أى الكنيسة اليعقوبية، ثم الأرمنية....

وقد انفصل عن الكنيسة الأرثوذكسية، من أطلق عليهم لقب الملكيين، الذين قبلوا الانضواء تحت لواء بابا روما مع الاحتفاظ بطقوسهم وتقاليدهم. وكذلك أقلية من البروتستانت، نتيجة لأعمال المرسليات الغربية التبشيرية فى الشرق...

أما مجال دراستنا فسوف يتركز فى الكنائس الشرقية الأرثوذكسية فحسب. ثم نختم بصفحات مقتضبة عن كنائس المسيحية الغاربة، فى النوبة، وقرطاجة والمدن العشر...

أما الكنائس الملكية الأرثوذكسية، فسوف لا نعرض لها لأنها تقع فى مجال كنيسة اللاتين، وكذلك الطوائف البروتستانتية فى الشرق، على تعدد مللها.

الفصل الثانى

على ضفاف النيل

وعلى ضفاف النيل كانت للمسيحية الأولى قصة وقصة....... فقد شهدت أرض كيم، أو لعلها ما شهدت، - فما شأنها بأسرة قروية فقيرة نازحة من بلاد فلسطين، تضم تلك الفتاة ذات العشرين ربيعاً، أو لعلها كانت دون ذلك، وقد جلست على ظهر حمار أضناه الرحيل، وهى تضم إلى صدرها طفلاً فى لفائف بالية، لا يلبث بين الحين والحين، أن يرفع صوته بالبكاء والأنين، وقد أمسك بمقود الحمار كهل خط الشيب فوديه... وهو يقود الموكب بين جذوع النخيل، ووسط الحقول.....

ومع ما تذكيه هذه الصورة الحلوة، من خيال الكتّاب والشعراء فلست أعرف من تناولها شعراً أو قصة مع خلفية رائعة للحياة الفرعونية فى شمسها الغاربة. وكذلك لا نعرف مؤرخاً استطاع أن يسطر تاريخاً يقيناً لذلك الحدث ما خلا ما كتب فى الأناجيل، ولم تبق لنا إلا أحاديث التقاليد، والقصص الأبوكريفية.

أما الطريق الذى سلكته العائلة المقدسة فى هروبها إلى مصر، فهو معروف منذ القديم، عبر القسم الشمالى من شبه جزيرة سيناء. فمن غزة إلى رفح، ثم إلى العريش حيث كان منفى المجرمين على أيدى الرومان. وأخيراً عبر بلوزيوم إلى مدخل مصر - هذا هو الطريق الذى سلكته جيوش الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد. وكذلك جيوش العرب فى القرن السابع الميلادى.

ثم يأتى دور التقليد ليقول - إنها عبرت مضيق السويس تحت بحيرة المنزلة. ولابد وأنها مرت بمدينة بوبسطة ثم امتد بها الطريق إلى المطرية حيث يقترن ذكر

دخولها هناك بشجرة جميز عتيقة يقال إنها استراحت تحت ظلها، وهناك تقوم بالقرب من المكان مسلة فرعونية. وقد قيل إن شجرة الجميز الحالية، والتى كانت بعض أغصانها مورقة حتى عهد قريب، قد أُخذت من فرع من الشجرة الأولى... وهناك تقوم الآن بالقرب من المكان، كنيسة كاثوليكية صغيرة.... ومكان الراحة الثالث الذى يحدثنا عنه التاريخ، هو فى حارة زويلة بالقاهرة، حيث تقوم كنيسة أثرية هناك تحت الأرض، حول كهف يقال إن العائلة استراحت فيه.

والمكان الرابع الذى يقترن برحلة المخلص الطفل إلى مصر، هو فى المعادى، بالقرب من شط النيل، حيث كان يقوم معبد لليهود. وبعد ذلك اختبأت فى كهف مدة ستة أشهر كاملة. وهناك كاتب مسلم من كتَّاب القرن السابع،يدعى محمد البكير، كتب يتحدث عن عجائب ومعجزات رافقت دخول الطفل الإلهى إلى أرض الفراعنة...

على أننا لا نستطيع أن نحدد على وجه الدقة الفترة التى قضتها العائلة المقدسة فى لجوئها إلى مصر. وأغلب الظن أن الأجل لم يمتد بهيرودس الكبير، أكثر من العام الأول للميلاد.

ولكن الأمر الذى يهمنا أن زيارة العائلة المقدسة إلى مصر، كانت من أحد العوامل التى ساعدت فى تقديم بشارة المسيحية فيما بعد، إلى شعب مصر.....

ثم جاءت الرحلة الثانية، حينما قام القديس مرقس وهو الذى كتب أقدم بشارة قانونية، بتقديم رسالة المسيح إلى سكان وادى النيل. والأقباط، فى مناظرتهم لغيرهم من الطوائف، يفخرون بأن جذور كنيستهم تتعمق إلى العصر الرسولى، وأن أول بطريرك لها كان مرقس الرسول، كاتب أقدم البشائر.

كان والدا مرقس يهوديين يقطنان فى كيرنايكا. وكانت تلك المنطقة معرضة

على الدوام لهجمات البربر، مما اضطرهم إلى النزوح إلى أورشليم، حيث يُظن أن ابنهما ولد هناك ربما فى وقت يقرب من ميلاد المسيح.. ويبدو أنه تلقى قدراً كافياً من التعليم فى اليونانية واللاتينية علاوة على معرفته بالعبرانية. ولقد كان والداه متدينين، وانعكست هذه الروح الدينية الغيورة فى حياة ابنهما. أما معرفته عن المسيحية، فقد كانت عن طريق خاله برنابا، وعن طريقه تعرف على بطرس، وبولس. وزيادة على ذلك فقد تعرف على شخص المسيح، الذى لابد وأنه فى زياراته إلى أورشليم، كان يتخذ من بيت أم يوحنا مرقس، مكاناً له هو وتلاميذه.

وكانت هناك العلية التى اجتمع فيها السيد مع تلاميذه.. وبعد صعود المسيح أصبحت علية أورشليم أول كنيسة صغيرة مسيحية فى التاريخ.

وعلى ذلك فقد كان القديس مرقس أقرب من شهد أولا فى القيروان. حيث عاش والداه فى غابر الأيام. ولقد كانت زاخرة باليهود، واليونانيين، الذين وجد بينهم مجالاً خصيباً للخدمة. وبعد أن أسس الكنيسة هناك وتدعمت، بالمعجزات، جاء إلى الإسكندرية، ولقد كانت بالنسبة للعالم القديم الصنْو القوى لروما فى الشرق، والقلعة القوية للفلسفات الوثنية. لذلك كان لابد من كسبها للمسيحية.

ولقد اختلفت المصادر فى تحديد الموعد الذى جاء فيه القديس مرقس إلى الإسكندرية. فتاريخ البطاركة يؤكد أنه كان فى عام ٤٨ أى بعد خمسة عشر عاماً لصعود المسيح. ولو أن البعض الآخر يؤكد أن ذلك لم يكن قبل عام ٥٨ م. ومهما يكن من أمر فالموثوق به أن استشهاده حدث فى عام (٦٨ م) بعد أن قدم بشارته إلى شعب مصر.

وتحاول القصص التقليدية أن تسد أكثر من ثغرة فى التاريخ فتقول القصة الأولى إنه عندما دخل إلى الإسكندرية من البوابة الشرقية احتاج إلى إصلاح حذائه، فدخل إلى دكان صانع أحذية لإصلاحه، وبينما كان الصانع يقوم بعمله،

تصادف أن دخل المخراز فى إصبعه، فصرخ قائلاً «ياإلهى الواحد» فسر مرقس سروراً عظيماً لذلك. وبعد أن شفى يده، قدم إليه رسالة المسيح. (وقد أصبح ذلك الصانع، فيما بعد، ثانى بطريرك للإسكندرية).

من هنا بدأت الشرارة. فأخذ ذلك الخراز ويدعى حنانوس، مرقس الرسول إلى بيته، حيث اعتمد هو وأسرته، وكذلك العديدين ممن دعاهم. ولقد كانت بداية الحركة التبشيرية ناجحة جداً فى الإسكندرية، حتى انتشرت الشائعات بين الوثنيين، أن جليلياً قادماً من فلسطين، ينادى بديانة جديدة، سوف يُقدر لها أن تمحق عبادة الأصنام من البلاد - وتكاثفت الجماهير حوله تعتنق دعوته. بينما ازداد شعور العداء له بين الوثنيين. ولما أحس بالخطر، رسم حنانوس أسقفاً - مع ثلاثة من القساوسة وسبعة من الشمامسة، ليكونوا على رأس الكنيسة، إذا حدث له أى حادث. وتقول القصة الثانية إنه عاد بعد ذلك إلى روما، وبقى هناك برفقة بولس وبطرس، حتى وقت استشهادهما عام (٦٤ م) وفى عودته قام بزيارة المدن العشر حيث بقى هناك عامين، يرسم أساقفة وكهنة، ويكسب أتباعاً جدداً للمسيح. وحينما عاد أخيراً إلى الإسكندرية وجد أن جمهور المؤمنين قد تزايد، حتى أمكن تأسيس كنيسة فى أطراف منطقة تعرف باسم بوكاليس بجوار شاطىء البحر بالقرب من الإسكندرية..

وفى نفس الوقت ازدادت الشائعات قوة بأن المسيحيين سيقلبون نظام العبادة فى البلاد - وتصادف فى عام (٦٨ م) أن كان عيد القيامة موافقاً لعيد سيرابيس، فتجمهرت الجموع الغاضبة فى المعبد، واندفعوا فى مسيرة صاخبة إلى المعيّدين فى كنيسة بوكاليس، وقبضوا على مرقس الرسول، وطوقوا عنقه بحبل، وجروه جراً فى الطرقات حتى تمزق جسده وانفصل رأسه عن عنقه. ويقال إنهم كانوا ينوون أن يحرقوا الجسد ولكن رياحاً هبت، وأمطاراً غزيرة هطلت، فحالت دون ذلك

- وأخذ المسيحيون الجسد، ودفنوه، بكل كرامة تحت مذبح الكنيسة.

ولن يهمنا ما تكاثر من أقاويل بعد ذلك حول مصير جسد القديس. وهل بقى فى مصر، أو سُرق الرأس دون الجسد وهُرّب إلى ايطاليا، أو سرق الجسد كله - بعد الفتح العربى لمصر عام (٦٤٢ م) حيث بعثرت محتويات الكنيسة. مهما يكن من أمر فإنه من الثابت أن الجسد وجد مثواه، الأخير فى فينيسيا، التى لقبت بسبب ذلك (جمهورية القديس مرقس).

.. أما القصة الثالثة للمسيحية فى مصر، فهى تدور حول نيران الاضطهادات التى اندلعت بعد ذلك، والبطولات التى ظهرت... والتى كان استشهاد مارمرقس، عملاً مفاجئاً من أعمال العنف الجماعية، لا دخل للسلطات فيه، ومع ذلك فقد كان عملاً له جذوره. فلقد كان اليونانيون فى الإسكندرية، ينظرون بريبة إلى هذا الشاب المثقف الذى ينادى بشيعة يهودية غريبة، يبدو فى نغمتها الثورة على الدولة وعلى المجتمع. وكان المتعصبون للآلهة الوثنية، يرون فيه خطراً على الآلهة، ومدعاة لتفكك العائلات، واستجلاباً لنقمة السماء، والويلات التى تحل بالزرع والضرع...

لذلك فمن الممكن أن نقول إن الاضطهادات بدأها الشعب، وأنه جاء بعد ذلك دور الحكومات والسلطات لمحاولة إقرار السلام، واستتباب الأمن، وإزالة أسباب التوتر. وقد يشذ عن هذه القاعدة الاضطهاد النيرونى الذى أثير لأسباب شخصية تدور حول مطامع الإمبراطور، أو تصرفاته الشاذة ولكن النظرية النيرونية، لا يمكن أن تفسر أمواج الاضطهادات الحارقة التى حدثت تحت حكم أباطرة آخرين، اتصف بعضهم بالحكمة ورجاحة الفكر، أمثال ماركوس أوريليوس الفيلسوف الرواقى، الذى لم يجد بداً من الاستسلام للأمر الواقع.. وبعد استشهاد مرقس الرسول، بدأ الحذر فى المجتمع المسيحى الإسكندرى واتجه المسيحيون إلى التصرف فى هدوء

وعدم إثارة العواصف عليهم. أما المصادر فإنها تكاد لا تعطينا أدنى إشارة إلى أحداث القرن الذى تلا ذلك.

ولكن كل ما تقدمه لنا أسماء البطاركة العشرة الذين جلسوا على كرسى الإسكندرية (٦٨ - ١٨٨ م) حتى نأتى إلى عهد البطريرك ديمتريوس الأول، معاصر أوريجانوس، حيث ثارت أول عاصفة رسمية حكومية من الاضطهادات المنظمة ضد المسيحيين. وذلك تحت حكم الإمبراطور سيفيروس الذى كان هدفه محق المسيحية. وفى الوقت الذى كان اليهود فيه معفين من التبخير أمام صورة الإمبراطور، لم يكن المسيحيون يتمتعون بهذا الحق. وكل من رفض منهم هذا المرسوم الإمبراطورى، كان مصيره الإعدام، إما حرقاً أو بالقائه للوحوش الضارية فى الملاعب، أو فى أهون الصور، بقطع الرأس، دون ما اعتبار لسن أو جنس. ومع ذلك ورغم كل هذه الاضطهادات ظهر أنها كانت تزيد المسيحية انتشاراً وقوة حتى أنه بنهاية حكم سيفيروس ازداد عدد الأساقفة من ثلاثة إلى عشرين أسقفاً. أما أوريجانوس، فيقال إنه نجا من الموت، حينما خبأت أمه ملابسه الكهنوتية حتى لا يجابه السلطات بها.

ثم تلت ذلك فترة هدوء قصيرة حتى جاء عصر دشيوس القصير، حينما اندلعت نيران الاضطهاد مرة أخرى. فلقد أقلق بال هذا الإمبراطور، انتشار المسيحية. وأصدر قراراً عام (٢٥٠ م) بأن على كل واحد أن يحصل على شهادة من الوالى، أو الحاكم فى منطقته تشهد بأنه قدم قرباناً للآلهة وكل من لم يقبل هذا القرار يعذب عذاباً مراً، ويصدر عليه حكم الموت.

ولقد لقيت الألوف المؤلفة حتفها، وخاصة فى الإسكندرية وساد الرعب، والحزن فى أرض مصر. ولم تهدأ العاصفة بل استمر الاضطهاد طيلة حكم خلفه الإمبراطور فاليريان. وقد تراجع البعض، أمام تلك الاضطهادات المرة، ولو أن

البطريرك ديونسيوس كان أكثر تسامحاً، فقبل عودتهم مرة أخرى للمسيحية (٢٤٦ - ٢٦٤ م) بعد هدوء العاصفة. ولم تهدأ نيران الاضطهاد إلا عام (٢٦٢) حينما أصدر الإمبراطور جالينيوس قراراً بالتسامح الدينى، وكان هذا بمثابة أول اعتراف رسمى بالمسيحية. فأُعيد فتح الكنائس، وأعيدت الممتلكات المؤممة لأصحابها، وسُمح للمسيحيين بإقامة الشعائر الدينية.. إلى أن كان عصر دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥ م).

ولسنا نغمط هذا الإمبراطور حقه فى الإصلاحات التى قام بها فى مصر وتقوية مشارف مصر من الجنوب فى صيين (أى أسوان)، ومن الشمال فى الإسكندرية، وكيف أنه تنازل عن حصة روما فى القمح، حينما انتشرت المجاعة فى الإسكندرية وسادت الأوبئة. ولسنا ننكر أن الاضطهاد الذى شنه على المسيحيين، كان بدافع رغبته فى إزالة كل أسباب التوتر والتفكك فى البلاد، وخلق جبهة قوية، خصوصاً بعد ثورة أحد قواد الجيش الرومانى عليه، ومحاولة الاستئثار بالسلطة فى مصر. ولكن مما يبدو أن المسيحية فى مصر، لم تعد بعد قاصرة على أفراد قلائل، بل أصبحت جبهة قوية. وهذا جعل العاصفة أكثر عنفاً، وضراوة، وتأثيراً فهلكت مئات الألوف. واكتظت السجون بأسر بكاملها تنتظر العذاب البطىء وفى النهاية الإعدام. أما التشويه فقد كان شيئاً لا يتصوره العقل. ولقد كانت أرحم الطرق الإعدام بقطع الرأس. والذى يريد أن يقرأ عن هذه الفظائع ليدرس «التاريخ الكنسى» ليوسابيوس حتى أنه يقال إن عدد الشهداء وصل إلى ثلاثة أرباع المليون من الأنفس. ولقد زاد من البلية أن مكسيميانوس خلف دقلديانوس فى الشرق، وسار على نفس سياسته. أما مصر فقد كان لها النصيب الأوفر.. ولا ينبغى أن نتصور أن السنكسار هو سجل كامل للاستشهاد القبطى، لأنه لم يقدم لنا إلا بعض الحالات البارزة ولقد كانت أحداث الاستشهاد عظيمة الأثر فى العقلية القبطية، حتى بُدىء التاريخ القبطى بها. وأصبحت سنة الشهداء، ذات قيمة كبرى

نظير التقويم الميلادى لدى الأقباط.. (٢٨٤ م).

ثم جاء دور الاستقرار بالنسبة للكنيسة المصرية بإصدار وثيقة ميلان (٣١٣ م) وذلك بإعطائها تسامحاً أكبر للمسيحية، حتى إذا استتب الأمر لقسطنطين أصدر قراره (٣٢٣ م) بجعل المسيحية الدين الرسمى للبلاد. ومنع الممارسات الوثنية، ولسنا نقول إن المسيحيين قد أظهروا من نحو أعدائهم روح التسامح التى نادى بها المسيح، وقد واتتهم الفرصة فمن وادى النطرون تدفقت جيوش من الرهبان المسلحين لنهب المعابد الوثنية وتحطيمها،ومهاجمة آخر ما تبقى من مظاهر العبادات الصنمية، ولعل أقوى دليل على ذلك، مهاجمة هايبشيا الفيلسوفة، وصاحبة المدرسة السكندرية الشهيرة، ورجمها حتى الموت فى ساحة احدى الكنائس. ولعهد لم يطل كثيراً، أصبحت المسيحية السكندرية محط أنظار المفكرين، والفلاسفة ومن مدرسة الإسكندرية نبت مفكرون وفلاسفة وآباء مسيحيون. ونبعت أيضاً بدع وهرطقات قُدر لها أن تطبع طابعها على تاريخ المسيحية الطويل.. بل منها ظهر مؤسسو الرهبانية المتوحدة الذين عنهم نقلت مجتمعات الغرب نظمها، وأديرتها. نقول إن أكثر من نجم لامع فى سماء المسيحية، قد ارتبط اسمه بمدرسة الإسكندرية.

فهناك أكلمندس الإسكندرى، أثينى فى الأصل، من أبوين أمميين (١٥٠ - ٢١٥)م، ترأس المدرسة فى وقت هبت فيه عواصف الاضطهاد على المسيحيين فى عهد الإمبراطور سيفيروس. ولقد انصاع لنصيحة الكثيرين، فآثر الاختفاء. ولقد درس الأغنسطية، وكان يرى أنه لا تعارض هناك بين حق الكتاب المقدس - وبين الفلسفة اليونانية. وأن الاستنارة الروحية هى أساس الكمال المسيحى. وعلى ذلك فليس هناك ثمة ضرر على رجال الكنيسة من دراسة الفكر اليونانى، والتشبع به. ولقد قدم للمسيحية العديد من أبحاثه، التى فقد معظمها،ولم يصلنا منها إلا

القليل.. ويمكننا أن نعتبر أكلمندس أحد رواد المدرسة الليبرالية المتحررة فى المسيحية.

ثم يأتى دور العلامة أوريجانوس (٢١٥ م) مصرى إسكندرى، ومسيحى صميم،ولكن هذا لم يمنعه من دراسة الفلسفات الأممية على يدى أمونيوس ساكاس رائد الأفلاطونية الحديثة، والذى تتلمذ على يديه أيضاً أفلوطين.وإننا لا نجد سفراً واحداً من أسفار الكتاب المقدس لم يكتب عنه أوريجانوس، مع أن تفسيره للكتاب الذى اتخذ له عنواناً «سكوليا» لم تصلنا منه إلا شذرات. إلا أن أثر كتاباته كان عظيماً على الفكر المسيحى خلال أجيال طويلة. وقد لخص أفكاره اللاهوتية فى كتابه «الأسس»، حيث وضع أساس علم اللاهوت النظامى فى أجزاء أربعة: الله وعالم الملائكة والإنسان والمادة والإرادة الحرة، والكتاب المقدس. أما مناهضته لكلسس فتعتبر من أقوى الأعمال الدفاعية، الرائعة ضد هذا المفكر الوثنى. حتى مواعظه ظلت نبعاً فياضاً يستقى منه الكثيرون..

ونضرب صفحاً عن مقاومة ديمتريوس له، وعن لجوئه فى النهاية إلى قيصرية، (٢٣١ م) وما رافق ذلك من أحداث ثم يأتى دور ديونسيوس الكبير الذى تولى إدارة مدرسة الإسكندرية حتى اختير بطريركاً (٢٤٦ - ٢٦٤ م). ولقد كان عهده عاصفاً. ثار فيه أكثر من اضطهاد على المسيحية، وتعرض فيه كثيرون للضغط والارتداد. لكنه كان متسامحاً واسع الصدر، حتى أنه قبل رجوع المرتدين، حينما عاد الجو إلى الصفاء.

أما أثناسيوس، فقد أسند رئاسة مدرسة الإسكندرية إلى ديديموس، الضرير (٣١٥ - ٣٩٨ م). ومن تلامذته القديس جيروم، وجريجورى النزينزى، وغيرهما. نجوم لمعت فى سماء الفكر المسيحى، حتى جاء الوقت الذى دخلت فيه تلك المدرسة أجيال الغموض، والتدهور. ولكن يكفيها أنها أسهمت بنصيبها فى تلك الحقب التكوينية من بداية المسيحية.

الفصل الثالث

من الرهبنة المتوحدة.

إلى الانطلاقة المرسلية...

ولقد كانت الرهبنة القبطية هدية مصر إلى المجتمع المسيحى فى العالم أجمع. وشأن كل الهيئات والحركات العالمية، اقتضى الأمر مراحل عديدة من التطور. لقد بدأت بداية متواضعة فى حدود الصحراء. ثم أصبحت طريقاً للحياة توفر كثيرون على نقده، ودراسته، كما طوره آخرون وزادوا عليه....

ويرجع أغلب المؤرخين بالرهبنة إلى القرن الثالث وإلى القديس أنطونيوس كأول من لجأ إلى الصحراء الشرقية فى مصر الوسطى، وزاد فى شهرته، ما كتبه عنه أثناسيوس الرسولى. وبدون أن نقلل من مكانة أنطونيوس فى نشأة الرهبنة هناك، إلا أن أكثر من سبب يجعلنا نؤمن أن الهروب المنظم إلى الصحراء، والانزواء هناك جاء نتيجة فعلية للاضطهاد الذى وقع على المسيحية،وأنه مقترن به فى التاريخ... ففى أثناء عصر الاضطهادات تحت حكم الإمبراطور أنطونيوس بيوس (١٣٨ - ١٦١م) يقال إن المدعو فرونتونيوس اجتذب حوله سبعين من أصدقائه، وقرروا العزلة فى وادى النطرون. بل إن القديس أنطونيوس نفسه يقال إنه التقى، فى توغله أكثر فأكثر فى الصحراء، براهب متقدم فى السن، يدعى القديس بولا الراهب، الذى منذ صباه أحب الصحراء مما يشير إلى أنه كان فى صحبة آخرين..

ولكن مهما يكن من أمر، فقد اقترن اسم أنطونيوس بالرهبنة المسيحية، والتوحد، وإذلال الجسد، وكان مثاله دافعاً لكثيرين على السير فى خطاه. وذاعت شهرته حتى أن أثناسيوس نفسه جاء ليجلس عند قدميه، والإمبراطور قسطنطين

بعث إليه يطلب بركاته. ويقال إنه لم يغادر الصحراء فى حياته سوى مرتين، الواحدة حينما نزل لتشجيع الإخوة أثناء اضطهادات مكسميانوس (٣١١ م)،والثانية للوقوف فى جانب أثناسيوس ضد بدعة أريوس (٣٣٨ م).

ثم جاءت المرحلة الثانية للرهبنة. وهى المرحلة الجماعية، حينما توافد عليه تلاميذ ومريدون يطلبون إرشاده، واستقروا هناك حوله. وكانت أول رهبانية جماعية بالقرب من البحر الأحمر حيث مازال يقوم دير الأنبا أنطونيوس حتى الآن. ثم كان هناك دير آخر فى طيبة يعرف باسم دير بيلمون، نشأ حوله أيضاً مجتمع رهبانى. وهذا هو المكان الذى اكتشفت فيه مؤخراً مجموعة البرديات الأغنسطية بالقرب من نجع حمادى، وفى الصحراء الغربية نشأت ثلاثة مجتمعات رهبانية أخرى وكلها حول وادى النطرون.

ثم جاءت المرحلة الثالثة التى لمع فيها اسم القديس باخوميوس (٢٩٠ - ٣٤٦ م). والتى يقدر عدد من كان يرأسهم فى تفنيس بسبعة آلاف راهب، والذى وضع أسس وقوانين الرهبنة التى سارت عليها طيلة الأجيال. أما نظام باخوميوس - فقد كان نظام القداسة،فى إطار قوانين هى أشبه ما تكون بحياة الجندى[1]. وكل صغيرة وكبيرة فى حياة الراهب آناء الليل، وأطراف النهار، وضعت لها قوانينها، وحدودها:

الثياب، والطعام، وساعات النوم وطريقته، والرحلات، وساعات العبادة، والعقاب الذى يوقع على الراهب المخطىء. كل هذه لها نواميسها. ومع ذلك لم يكن باخوميوس قاسى القلب، لقد كان يرى أن على الراهب إذلال الجسد، ولكنه لا ينبغى أن يحطمه. زد على ذلك أنه لم يغفل الثقافة الذهنية، فأدخل قدراً من التعليم فى الأديرة،كما استحدث نظام الأعمال اليدوية لسد حاجات الرهبان. أما

---

(١) : وعنه نقل ليولا نظم الرهبنة اليسوعية...

فترة اختبار طالب الرهبنة فقد كانت تصل إلى سنوات ثلاث.

كان مبنى الدير يشبه قلعة رومانية، ذات سور مرتفع ويؤدى المدخل الخارجى إلى مضيفة. أما الجزء الداخلى فمخصص للرهبان. وقد كان الدير يشبه مستعمرة كاملة بكل لوازم الحياة الجسدية من طعام وشراب وطاحونة لطحن الدقيق، ومخبز لصنع الخبز، ومطبخ، وحديقة للخضروات وكذلك بما يلزم للحياة الذهنية والروحية من مكتبة زاخرة بالرقوق، والمراجع. وهناك ركن من أركان الدير، خُصص لدفن الموتى... كما هيئت هناك قنطرة مائلة توصل إلى سطح علوى، يستخدمها الرهبان فى حالة هجوم البدو عليهم.

ولم يكن الدير يضم المصريين فحسب، فقد كانت هناك جماعات من أجناس أخرى. كان هناك رهبان من اليونان،والرومان، والليبيين، والسريان، والنوبيين، والأحباش، وغيرهم. وكانت كل جماعة عليها رئيسها، وكان آباء الكنيسة من كافة أنحاء العالم، يفدون على الأديرة للدراسة والمعرفة، ونقل نظم الرهبنة. فيوحنا ذهبى الفم انخرط فى سلك الرهبنة الباخومية فى طيبة مدة ثمانى سنوات (٣٧٣ - ٣٨١ م) وباسيليوس من كبدوكية، أدخل الرهبنة إلى المجتمع البيزنطى على أساس تتلمذه فى الأديرة المصرية.

ويوحنا كسيان من بلاد الغال، قضى سنوات سبع فى طيبة، ووادى النطرون. وحين عاد إلى بلاده، ليدخل الرهبنة هناك، كان الأباطرة بين حين وآخر يرسلون نواباً عنهم للتبرك بأولئك القديسين، والاسترشاد بحكمتهم...

ويكفى أن الأديرة المصرية، قد أعطت الكنيسة القبطية، بطاركتها، المائة والسبعة عشر، كما أنها كانت المصدر الحى لكنوز من الوثائق والكتابات. ومع أن معظمها قد اندثر الآن إلا أن الصحارى كانت فى وقت من الأوقات، مزدهرة بها. حتى أن وادى النطرون، كان يضم فى وقت من الأوقات خمسين من الأديرة..

ومهما تضاربت الآراء فإن الرهبنة المصرية قد طبعت طابعها القوى على تاريخ الكنيسة، وتاريخ الفكر المسيحى.

على أن هناك صفحة أخرى مشرقة للكنيسة القبطية، هى إسهامها فى المجال المرسلى. وإذا كان ثمة من يوجهون النقد إلى الكنيسة فى عصور ساد عليها الضعف. إلا أن نظرة للوراء ترينا الدور الذى قامت به فى رفع مشعل الإنجيل خارج حدودها. وعلى الرغم من قلة الوثائق التى بين أيدينا، إلا أننا نستطيع أن نمسك بخيوط من هنا وهناك لنصل إلى هدفنا..... فقد كانت الاسكندرية ملتقى الطرق التجارية، ومركز الاشعاع الثقافى، منذ عصر البطالمة. وكانت مدرستها المسيحية، مقصد معظم الجماعات المسيحية من كل مكان. وهكذا تعرف المصريون على كافة أجناس العالم. كما أسهمت الأديرة أيضاً فى التعارف مع تلك الشعوب. فقد كان الكثيرون يقصدونها للتبرك بها، والتعرف على نظمها.. أما الرهبان فلم يقفوا عند حد الانزواء بين جدران الأديرة، بل كانوا يقومون برحلاتهم التبشيرية فى كل بقاع العالم. ولو أن خدماتهم ظهرت ثمارها بصورة أكثر وضوحاً فى أقطار أفريقيا.

وليس من الغريب أن تكون العشر مدن، أو كيرنايكا فى شمال أفريقيا - هى أول المناطق التى ارتبط تاريخ أقباط مصر بها. ففى الرحلات التبشيرية التى قام بها مرقس الرسول، إلى المدن العشر، لابد وأنه اصطحب معه جماعات من مسيحى الإسكندرية. كما أن سكان شمال أفريقيا، كانت مصر قبلتهم، فى مجال العلم والدراسة. ويذكر التاريخ عن سنسيوس أسقف بتولمايس (٣٧٠ - ٤١٤) أنه تلقى تعليمه في الإسكندرية وأنه عرف مدرسة هايبشيا[١]، وكان يكن لها كل تقدير. ومنذ تعيينه أسقفاً بقرار من ثاوفيلس بطريرك الإسكندرية، ارتبط اسم المدن

---

(١) مدرسة سكندرية شهيرة

العشر، بالكرسي السكندري حتى يومنا الحاضر.

وقد كان للمسيحية القبطية أثرها الكبير أيضاً في صين (أسوان)، وهي مدخل المنطقة منذ مئات السنين قبل ميلاد المسيح - وانتشرت معابدها،وآثارها في بلاد النوبة. ولقد كان هناك عاملان ساعدا على انتشار الإرساليات المسيحية جنوبي أسوان: الأول، الاضطهادات المريرة التي وقعت على الأقباط، ودفعتهم إلى الانتشار في الواحات، وجنوباً عبر الشلالات. والثاني ازدهار الرهبنة وانتشارها،وشعور الرهبان بمسئولية الكرازة،وسعيهم على خطوات الرسل الأولين، لتقديم بشارة الإنجيل في كل مكان. ولقد أثبتت الحفريات في السودان الجنوبي أن المسيحية قد رسخت أقدامها في هذه المناطق السحيقة في البعد، منذ القرن الرابع الميلادي.

وفي القرن الخامس نقرأ عن تقارير تشير إلى العلاقات الطيبة بين رهبنة القديس شنودة، وقبائل الباجا والنوبة في الجنوب. وفي مستهل القرن السادس - عين على جزيرة فيلة أسقف مسيحي يدعى ثيودور بديلاً عن كاهن إزيس. وفي نفس الوقت أصدر جوستنيان أمره (٥٣٧ - ٥٦٥ م) بأن تتحول كل القبائل في أطراف الإمبراطورية البيزنطية إلى المسيحية، وهذا زاد في فعالية الكرازة المسيحية في بلاد النوبة، ولوأن أقباط مصر، كان لهم صراع في جبهتين: مع الوثنية، ومع أصحاب عقيدة الطبيعتين والمشيئتين Diophysites هناك في بلاد النوبة.

ولكن ما أن أهلّ عام (٥٥٩ م) حتى كُتب النصر للأقباط، وعين أسقف منوفيزتي يدعى لونجينوس، على كرسي النبطة، عاصمة مملكة النوبة. وبدأت المعابد الوثنية في طريق التحول إلى كنائس، وأقيمت كنائس جديدة. كما دخل نظام الرهبنة هناك، وأقيم أكثر من دير في أطراف المملكة.وأقرب مثال لها دير

القديس سمعان الذى أقيم بالقرب من مدينة أسوان، وخُرب على أيدى جنود صلاح الدين عام (١١٧٢ م).

على أن قصة دخول المسيحية لبلاد الحبشة، تحمل سطوراً أكثر إثارة. فمن التقاليد المتواترة، أن أثيوبيا كانت تدين بمبدأ التوحيد منذ زمن طويل قبل بزوغ شمس المسيحية.وهناك قصة سليمان وملكة سبأ، وزواجهما قبل ميلاد المسيح بعشرة قرون، ثم ولادة منليك الأول منهما ولو أن ذلك مشكوك فيه، واللقب الذى ارتبط بملك أثيوبيا «أسد يهوذا». أما دخول المسيحية فيرجح أنه حدث على يد الوزير الحبشى الذى تجدد على يدى فيلبس. ولو أنه من الثابت تاريخياً، أن تلك المناطق ظلت وثنية حتى القرن الرابع الميلادى، حينما دخلتها المسيحية على يدى شقيقين من أقباط الإسكندرية، اسميهما فرومانشيوس، وأديسيوس انكسرت بهما السفينة على سواحل البحر الأحمر الجنوبية وأصبحا ضمن الخدم فى بلاط أكسوم[1]. وارتقيا بسبب مقدرتهما، حتى أصبح أحدهما ساقى الملك، والثانى مربى ولى العهد.

وقد عاد فرومانشيوس بعد ذلك إلى الإسكندرية، مخبراً أثناسيوس بطريرك الإسكندرية، بتلك الأنباء - فعينه البطريرك أسقفاً على الحبشة باسم الأنبا سلامة (٣٤٦ م). وقد عاد إلى كرسى أسقفيته، مصحوباً، بطبيعة الحال بجماعات من الكهنة ليساعدوه فى نشر المسيحية وتأسيس الكنائس. وعلى الرغم من محاولات الإمبراطور كونستانشيوس بعد ذلك لسحب الأسقف المونوفيزيتى، إلا أن الشعب تمسك بالعقيدة القبطية إلى أن كان مجمع خلقدونية، فتثبت الإيمان الأرثوذكسى هناك (٤٥١ م).

واكتساب الحبشة للمسيحية، يعد جوهرة غالية فى تاج الكنيسة القبطية،

(١) راجع «قصة أبناء سبأ» للمؤلف

ومكافأة مجزية، على مجهوداتها التبشيرية في أفريقيا وهو الميدان الكبير الذى انتصرت فيه المسيحية المصرية.

على أننا لا نستطيع أن نغفل مجهودات الأقباط، وتحركاتهم التبشيرية في الأقطار المجاورة مثل فلسطين وسوريا، وكبدوكية، وقيصرية، وإلى حد ما فى الجزيرة العربية ولو أن النساطرة كان لهم ميدان السبق هناك. وهناك حالات فردية دعى فيها أقطاب الكنيسة القبطية، لأعمال محددة مثلما قام به ماراوجين من السويس (كاليزما) فى تأسيس الرهبنة فى العراق، وبلاد فارس، الأمر الذى طبع طابعه على المسيحية الأشورية. ويقال أيضاً إن بانتينوس، رئيس مدرسة الإسكندرية المسيحية (١٩٠ م) انتخبه ديمتريوس الأول ليكون بشيراً للهند. كما أنه فى القرن السادس قام أحد الإسكندريين، ويدعى كوزموس، الذى أصبح فيما بعد راهباً، برحلة تفقد لأحوال المسيحيين فى خليج فارس وبلاد الهند، وجزيرة سيلان، وغيرها. أما التبشير فى أوروبا فقد جاء بصورة عرضية، نتيجة لما لقيه أثناسيوس العظيم من منفى على فترتين. وليس من المستبعد أن يكون قد قام بالتبشير حيثما حل. بل إنه من الثابت أنه أدخل قوانين الرهبنة المصرية المنظمة إلى روما، مما كان له أثره فى تطوير النظم الرهبانية فى العالم الغربى.... زد على ذلك أن كثيرين من الحجاج القادمين من الغرب، لزيارة الأديرة المصرية، قد تأثروا إلى حد ما بالعقيدة القبطية، وعادوا إلى بلادهم، لينشروا عقيدتهم. وليس هذا من قبيل التخمين. ولعل أصدق الأمثلة جون كسيان (٣٦٠ - ٤٣٥ م) من بلاد الغال الجنوبى فقد قام بجولة، مع بعض أصدقائه، فى خطوات السيد المسيح. وهناك فى بيت لحم قطع على نفسه نذر الرهبنة. ثم جاء هو ومن معه إلى مصر ليقضى فى أديرة وادى النطرون وطيبة سبع سنوات كاملة. وقد جمع فى تلك الأثناء المادة التى ضمها كتابيه الشهيرين، «الأسس» و«المجامع» اللذين يتحدث فيهما عن الرهبان المصريين، وعاداتهم، وحكمهم، ونظمهم. وفى مدينة مارسيليا، أقام كاسيان ديراً

للرهبان، وآخر للراهبات فوق ضريح الشهيد سان فكتور،على نمط الأديرة المصرية. وقد أقيمت بعد ذلك قلعة فى مكان الأديرة موجودة إلى يومنا هذا، ويستطيع الباحث فى آثارها أن يكتشف أثر الفن القبطى هناك.

نقول أيضاً إنه كان للرهبان المصريين أثرهم،حتى بين أجداد الإنجليز، فى قلب الجزيرة الإنجليزية. وهذا هو المؤرخ «ستانلى لان بول» يقول بالحرف الواحد:

«إننا لا نعرف كم نحن مدينون لأولئك الرهبان الخشنين القدامى فمن المحتمل جداً، أنه قبل أن يأتى سان أوغسطين رسول المسيحية فى إنجلترا، جاء الرهبان المصريون وبذروا بذور تعاليمهم هناك، ونشروا نظم الرهبنة التى وجدها سان أوغسطين فى أكثر من مكان. بل إنه الأكثر وضوحاً، أثر الأقباط فى المسيحية الأيرلندية، ففى تراب أيرلندا يرقد سبعة من الرهبان المصريين. ونستطيع أن نلمس أثر الهندسة المصرية فى البناء وفى الفن الهندسى هناك.

بل إن أكثر من حرفة برع فيها الأيرلنديون فى القرن التاسع، والعاشر مردها إلى المرسلين الأقباط. إننا مدينون بالكثير لأقباط مصر فوق ما نتصور[١].

وحتى لو نظرنا إلى الهرطقات التى نبتت من تراب مصر، فإننا نجد الهراطقة أنفسهم، فى غيرتهم وتحمسهم لمعتقداتهم، حينما تصدر أوامر الحرمان عليهم، ويمنعون من التبشير فى حدود الإمبراطورية الرومانية،نجدهم يهاجرون إلى قبائل البربر، ويحاولون أن يزرعوا عقائدهم هناك. ولعل أصدق دليل أثر الأريوسية فى قبائل القوط، والوندال،والبرغانديين التى هاجمت أطراف الإمبراطورية الرومانية. بل إن أولئك فى غيرتهم الشديدة كان منهم من ترجم الكتاب المقدس إلى لغة القوط[٢] أنفسهم.

---

(١) "Cairo-sketches of its history & monuments"

(٢) أولفى لاس - رسول القوط (٣١١ - ٣٨٣ م).

بل إن أتباع أريوس وجد لهم أيضاً تلاميذ بين القبائل الجرمانية وراء حدود الراين والدانوب. وحتى وإن كان أريوس ليبى الجنسية إلا أنه عاش، وتربى فى الإسكندرية.. حتى يمكن أن يقال إن الأريوسية نبتت وترعرعت فى مصر...

الفصل الرابع

فترات حاسمة فى تاريخ الكنيسة

وسوف لا يتسع المجال، للحديث عن كافة الفترات الحاسمة فى تاريخ الأقباط. فالمكتبة العربية زاخرة بأكثر من مرجع لأقلام غنية متخصصة يستطيع طالب الاستزادة أن يرجع إليها... وهكذا سندع عجلة الزمن تمر على أحداث ما بعد مجمع خلقدونية، الذى ربما كانت تغذيه العصبيات القومية تحت ستار التمسك بعقيدة المونوفيزيتية، ضد الديوفيزيتية، أو مسيحية الإسكندرية، ضد مسيحية روما والقسطنطينية، والذى انتهى إلى الصدع الكبير بين الشرق والغرب.وما كان أغنى الكنيسة عن ذلك حفاظاً على روح الوحدة والأخوة... وسندع عجلة الزمن تدور أيضاً، على السنوات الأخيرة فى حكم الإمبراطورية البيزنطية فى مصر، وما تميز به من مد وجزر، وصراع ومؤامرات، وانحلال واهتزاز لكراسى الحكم، وفوضى عمت البلاد، ومهدت لركوعها أمام استعمار جديد.... كما سنمر مرور الكرام على أحداث الفتح العربى بحلوها ومرها، وما كان للأقباط من شأن فى القرون الأولى للخلافة الإسلامية، وما حل بهم من اضطهاد مرير فى عهد الخليفة المعتوه، الحاكم بأمر الله. وكيف أصدر أمره بأن يلبس القبطى زياً مميزاً، ويطوق عنقه بصليب حديدى يزن خمسة أرطال[1]. أما الكنائس فكان نصيبها الخراب والحريق، وممتلكات القبط إلى التأميم وأصحابها، إلى السجن أو التشريد أو القتل... ولعل أسوأ ما حل بالكنيسة هدم القبر المقدس وتسويته بالأرض. ولم ينقذ المسيحية من

---

(١) بسبب ثقل ذلك الصليب، كانت السلسلة التى تحيط برقبة حامله تحتك بها، فيصيبها التورم والزرقة. من هنا جاءت تسمية القبطية سخرية (بالعضمة الزرقاء).ولقد أصدر الخليفة أيضاً أمره إلى اليهود بأن يحيط الواحد عنقه بجرس، مثل الخيل، أو البغال.

جنونه إلا مؤامرة من شقيقته ست الملك، انتهت إلى قتله عام (١٠٢٠ م). كذلك لن يتسع الوقت للحديث عن حملات الصليبيين وحماقاتهم، وتهورهم، فى وقت يتحدث فيه مؤرخو الغرب عن سماحة وسعة صدر صلاح الدين..

أما الفتح الفرنسى فقد تميز بمداهنة للأغلبية على حساب الأقلية، ومحاولة لاسترضاء الشعب، عن طريق النفاق الدينى والتظاهر باعتناق الإسلام. وهذا هو الطريق الذى اتبعه نابليون، وكثيرون من الضباط الذين كانوا برفقته... ودعنا نمر على كل هذه، لنركز الأضواء على حقبتين من حقب النهضة القبطية: أما الحقبة الأولى فهى فى منتصف القرن التاسع عشر وهى التى عُرفت فى التاريخ باسم عهد كيرلس الرابع أبى الإصلاح.

ومع أن فترة جلوس كيرلس الرابع على كرسى الرئاسة، كانت قصيرة، (١٨٥٤ - ١٨٦١ م) إلا أنه استطاع فى هذه السنوات القلائل أن يقدم الكثير لشعبه وكانت أول أهدافه التعليم، فأقام كليته المثالية التى كان التعليم فيها بالمجان، وكان الطلبة يتلقون فيها الدراسات فى القبطية والعربية، والتركية، والفرنسية، والإنجليزية، والإيطالية. وقد ازدهرت مدرسته حتى أن الخديوى إسماعيل،فى عهد خلفه ديمتريوس الثانى، أوقف عليها أراضى شاسعة، كما عين لها راتباً سنوياً بلغ مائتى جنيه، وهو مبلغ كبير فى ذلك الوقت.

وقد أسس مدرستين أخريتين فى أحياء متباعدة من القاهرة غير الكلية القبطية. ولكن أعظم أعماله فى مجال خدمة التعليم، إقامة أول كلية فى مصر، لتعليم البنات، أى أنه كان الرائد الأول فى مجال تعليم الفتيات.

أما في خدمة الأدب، والكتابة، فقد استورد من أوربا أحدث ماكينات الطباعة واستقبلها استقبالاً رسمياً فى محطة مصر. وسار بها موكب من الشمامسة بملابسهم الدينية ينشدون التراتيل القبطية على أنغام الدفوف. ولما وُجه إليه النقد

بسبب ذلك قال إنه لو كان فى الموكب لما تمالك نفسه من أن يرقص بكل قوته أمامها - ألم يفعل هكذا الملك داود أمام تابوت الرب؟

ولقد تضمنت إصلاحاته إعادة ترميم الكنائس الأثرية، وبناء كنائس جديدة وإكمال بناء كنيسة البطريركية فى حى الأزبكية. ولقد جعل منها مركزاً لتعليم الكهنة، إذ هاله تفشى الجهل بينهم. فكان يدعوهم إلى دروس لاهوتية وتعليمية فى أيام السبوت. وكان يشترك بنفسه فى تعليمهم. أما الشمامسة فقد كان من نصيبهم تعلم الألحان الكنسية. كما قام بطباعة هذه الدروس بكميات هائلة، وتوزيعها فى الكنائس والبيوت.

وفى مجال السياسة أوفده الخديوى سعيد باشا فى مهمة سلام إلى أثيوبيا وقد استقبله ثيودور نجاشى الحبشة استقبالاً عظيماً، مسافراً من عاصمة ملكه على مسيرة ثلاثة أيام كاملة ليلتقى به. وقد نجح فى مهمته، وكان له الفضل فى عودة العلاقات إلى مجاريها (١٨٥٨ م).

أما فى مجال الدبلوماسية الكنسية، فقد كان للأنبا كيرلس الرابع نظرته العريضة المسكونية. كان يحلم بما يمكن أن نسميه «بان أرثوذكس» أى الأرثوذكسة العالمية. وهكذا مد يد الصداقة إلى الكنيسة اليونانية الملكية حتى أن بطريركها فى أثناء غيابه فى مهمة خاصة للقسطنطينية عهد إليه رعاية الطائفة. لقد كانت سياسته سياسة الحلم، والتسامح، حتى مع الذين وقفوا فى وجه العقيدة الأرثوذكسية فى مجتمع خلقدونية، ولكن موقف مصر السياسى الحرج تحت حكم أكثر من خديوى، جعل موقفه هذا محوطاً بالشبهات. وحينما وصل كيرلس إلى حد مد يد الصداقة إلى الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وكنيسة إنجلترا ازدادت مخاوف الخديوى سعيد، وبعد مقابلة بينه وبين الخديوى انتهت حياته فجأة فى ٣٠ يناير عام ١٨٦١ م، مما أكد الشائعات أن الخديوى دس له السم فى كوب من

الشراب.

ولقد كان عصر كيرلس الرابع زاخراً بالشخصيات القبطية المأثورة أمثال الأنبا أبرام مطران الفيوم الذى وزع كل ما يملك على الفقراء دون تفرقة بين مسلم ومسيحى، وكذلك الأنبا باسيليوس رئيس أساقفة القدس الذى أقام الكنيسة الصغيرة فوق سطح كنيسة القبر المقدس، وكان له فى الصراع مع الأحباش، حول دير السلطان، قصة وشأن، حتى أصدر السلطان عبد الحميد فرمانه الشهير، بملكية الأقباط لهذا الدير الصغير...

ثم جاء عصر الإرساليات الأجنبية من الكاثوليك، والبروتستانت، وقد كان ذلك فى عصر كيرلس الخامس. أما الكاثوليك فقد كانت محاولاتهم للتوفيق تمتد إلى أوائل القرن الخامس عشر. ثم تكررت المحاولة فى أواخر القرن السادس عشر، وفى عام (١٦٣٠ م) أسس أحد الرهبان الكابوشين مركزاً تبشيرياً متواضعاً فى القاهرة، لم يقدر له النجاح، واضطر صاحبه إلى الهجرة إلى الحبشة حيث اغتيل هناك. وفى عام (١٦٧٥ م) استقر الفرنسيسكان فى صعيد مصر بينما اتخذ اليسوعيون من القاهرة مركزاً لنشاطهم. ولم تحقق الهيئتان كبير نجاح. حتى كان عام (١٧٤١ م) حين تحول الأنبا أثناسيوس أسقف القدس مع البعض من معاونيه إلى الكاثوليكية وقد كان من بين أولئك، المدعو روفائيل الطوخى الذى هرب إلى روما وكان له نشاطه الدينى والأدبى إلى أن كان عصر الاحتلال الفرنسى فى أواخر القرن الثامن عشر، حينما استطاعت الإرساليات اللاتينية أن تجد بعض الحرية.

فإذا أغفلنا العامل السياسى، الذى يروى عن أحد الأقباط المرموقين، وقد كان سكرتيراً لمحمد على، أنه تعرض لضغط من الوالى، بتحريض من القنصل الفرنسى، فاضطر إلى أن يصبح كاثوليكياً هو وأسرته، فإننا نقول إن بداية تثبيت

أقدام الكاثوليك فى مصر كان فى عام (١٨٩٥ م)، حينما عينت روما كاهناً كاثوليكياً يدعى كيرلس مكاريوس، قاصداً رسولياً، مع اثنين من الأساقفة، أحدهما للوجه البحرى، والثانى لصعيد مصر. وبدلاً من أن يعمل القاصد الرسولى فى حدود رعاياه، كان يصدر النشرات، داعياً القبط للانضواء تحت لواء البابوية. كما أنه قام بأخطر عمل كان من شأنه تأييد الكاثوليكية، إذ حول القداس من اللاتينية إلى العربية والقبطية مع صبغه بالصبغة الكاثوليكية. وهكذا لم يجد الكثيرون من الأقباط فارقاً، فى الظاهر، بين القداس - كما يقدم فى الكنائس الأرثوذكسية، وبين ما يقدم فى الكنائس الكاثوليكية. ولو أن الأنبا كيرلس الخامس قام بمجهوداته فى الوقوف فى وجه الخطر الجديد، وأرسل المنشورات إلى كافة الكنائس تبصر الشعب بهذا الموضوع.

أما البروتستانت فقد بدأت إرسالياتهم من الكنيسة المشيخية المتحدة فى أمريكا عام (١٨٥٤ م)، وكذلك من الجمعية المرسلية الكنسية فى إنجلترا عام (١٨٨٢ م). ومع أن الهدف كان من البداية الكرازة بالإنجيل فى داخل الكنيسة المصرية القبطية. ولما وجدوا مقاومة شديدة اضطروا إلى تكوين هيئات بروتستانتية منظمة نشيطة - بالإضافة إلى ما فعله الكاثوليك - وعلى الأخص فى مجال النشر والتأليف. غير أن ما رأته الكنيسة الأرثوذكسية وبالاً عليها، كان من الناحية الأخرى، مصدر خير لها. فقد كان هذا لها نظير المناخس التى تدفع الجواد إلى الجرى والفوز فى السباق. وهكذا كانت النتيجة يقظة القرن العشرين التى ظهرت فى أكثر من وجه من أنشطة الكنيسة المختلفة فى العصر الحديث.

ولسنا نغالى إذا قلنا إن الكنيسة القبطية قد وجدت فى أكثر من واحد من أبنائها من يرفع مشعل الإصلاح بين الحين والحين، حتى فى أحلك الأوقات ظلاماً. فلقد مضى العهد الذى كان فيه ابن الكاهن، لابد وأن يلبس عمامة أبيه، حتى ولو

كان فلاحاً فى الحقل. وانزاحت غمة الكهنوت الجاهل، وخاصة بعد موجة الإصلاح التى قام بها كيرلس الرابع ومن أتى من بعده، وكيف كانوا يحيطون أنفسهم بمجموعة من رجال الإكليروس الحاصلين على الدرجات العلمية الجامعية. أما المجلس الملى القبطى فقد أصبح يضم رجالاً تفخر بهم مصر كلها.

أما فى مجال إقامة الكنائس، فقد تنافست الهيئات القبطية فى الإسهام فيها لتتكافأ مع عدد الأقباط الذى يربو الآن على ثمانية ملايين، والذى هو فى تزايد مستمر ولقد بُعث الفن الهندسى القديم فى لمسات البناء الحديث.

ولعل أصدق صورة رائعة كنيسة العذراء بالزمالك، ومصممها مهندس حصل على شهادته من جامعات باريس. أما الكاتدرائية المرقسية الجديدة بما تضمه من بنايات فتعتبر مفخرة المشرق.

ومع أن معظم المدارس القبطية أصبحت الآن تحت سلطة الحكومة إلا أن الكلية الإكليريكية يديرها الأقباط، وقد انتقلت من بناياتها القديمة فى مهمشة إلى البنايات الحديثة فى الأنبا رويس، وأصبحت تضم ثلاثة أقسام للمبتدئين، والمتوسطين، وكذلك للجامعيين الراغبين فى دراسة العلوم الكنسية واللاهوتية دون الانخراط فى سلك الكهنوت. وهناك فرع من الكلية يُعرف باسم معهد ديديموس للعميان، لتعليم المرتلين ومرددى الألحان.

ولدينا الآن هيئتان يجدر الإشارة إليهما بسبب نشاطهما:

الأولى: هيئة مدارس الأحد، أما **الثانية:** فهى أصدقاء الكتاب المقدس، وهى مدرسة جديدة فى الكنيسة القبطية، تتجه إلى نشر التفاسير الكتابية المنقولة عن كتاب الغرب. صورتان للفكر الأرثوذكسى المتفتح الحديث، المتجه إلى تعليم الشباب.. إن قروناً من العزلة والضغط على حد تعبير الدكتور عزيز سوريال،قد

ساعدت على ظهور طبقة من الأكليروس الجاهل لا يعرف إلا ترديد كلمات القداس وكفى. وهكذا أصبحت الخدمة الدينية جامدة، خالية من كل روحانية، وكان لابد من خلق مثل هذه الهيئات الجديدة التعليمية، لتعوض عن هذا النقص.

على أن أبرز معالم النهضة القبطية فى القرن العشرين - مما أثار أكثر من إعجاب وتقدير الدوائر العلمية - مشروعات ثلاثة كبرى - وهى المتحف القبطى، والجمعية القبطية للآثار والحفريات، ومعهد الدراسات القبطية.

أما المتحف القبطى، فقد تأسس عام (١٩١٠ م) على يدى مرقس سميكه باشا، فى صالة واحدة بالقرب من كنيسة المعلقة. ولقد ضم إليه، كل ما كان يعثر عليه من تحف، وآثار وأيقونات، وغير ذلك، فى الكنائس القديمة، وحتى فى البيوت القبطية العريقة. وشيئاً فشيئاً ابتدأت السلطات تتبنى المشروع وأدرجته ضمن هيئة الآثار، وأقامت مبنى جميلاً يتسم بطابع الفن القبطى، ليحل محل الصالة المتواضعة. ونقلت إلى هناك كل الآثار الكائنة فى المتحف المصرى، ذات الطابع القبطى. أما النوافذ فقد طعمت بزجاج ملون من بنايات أثرية. وقسم المبنى إلى أقسام أو صالات، كل صالة تزخر بنوع خاص من الفنون. فهذه للآثار المنحوتة، وهذه للخشبية، وثالثة للأقمشة، ورابعة للخزف والزجاج، وخامسة للصور والأيقونات، وغيرها للأدوات المنزلية، بحيث أصبح المتحف القبطى همزة الوصل بين المتحف المصرى، والمتحف الإسلامى. أما المكتبة الملحقة بالمتحف، فقد ضمت مجموعات نادرة من الرقوق، وكسر الخزف، والمخطوطات الأثرية، وزادها ثراء مجموعات البردى الأغنسطية التى اكتشفت مؤخراً فى نجع حمادى.

أما الجمعية القبطية للآثار فقد أسسها مريت غالى - أحد أحفاد بطرس غالى باشا عام (١٩٣٤) باسم «جمعية أصدقاء الفن القبطى» وتبدل اسمها فيما بعد. ولقد قامت الجمعية بإصدار مجلتها الحولية التى اجتذبت أقلام كافة المهتمين

بالآثار القبطية فى الشرق والغرب. كما تبنت مؤخراً مشروع الحفريات الأثرية فى موقع دير سانت فيلامون الأثرى، فى طيبة بالقرب من الأقصر.

وإذا نظرنا إلى معهد الدراسات القبطية، فإننا نستطيع أن نعتبره مؤسسة ظهرت للوجود نتيجة لتكاتف نشاط الهيئتين السابقتين، واتساعاً لدائرتيهما. ولقد بدت الحاجة ماسة منذ زمن طويل إلى ظهور هيئة تعليمية منظمة فى مجال الدراسات القبطية. وبإمكانات محدودة بدأت جماعة صغيرة من الأساتذة المختصين فى إنشاء هذا المعهد ضمن مبانى أنبا رويس. وتخصص هذا المعهد فى دراسة كافة أوجه الحضارة المصرية فى العصور القبطية. أى فترة التحول من عصور الأسر الفرعونية، إلى عصور الخلافة الإسلامية. أما الدراسة فمواضيعها التاريخ، والدراسات الاجتماعية،والحفريات، والفنون والقانون، والموسيقى الكنسية، واللاهوت، ودراسات أثيوبية وأفريقية، وغير ذلك. ولقد كان الهدف منذ البداية لا أن تكون الدراسة ذات صبغة دينية بقدر ما تقدم الحضارة المصرية، فى الحقبة القبطية المسيحية. لذلك فتح المعهد أبوابه لكافة الأديان والطوائف دون تمييز، الأمر الذى زاد فى نشاطه واتساع دائرته.

بقى لنا أن نختم هذه السطور بكلمة عن روح الانفتاح التى بدت أخيراً، فى الكنيسة القبطية تجاه الطوائف الأخرى، وانخراطها فى سلك الحركة المسكونية العالمية...

ولقد نعى على الأقباط منذ القديم، روح العزلة التى تميزوا بها والنفور من كل ما هو غير قبطى، وعدم مد يد الصداقة لمن يختلف معهم فى الرأى. وربما كان هذا بسبب أجيال من الاضطهاد من الأعداء من الخارج، بل ربما كان هذا بسبب غيرتهم للحفاظ على الإيمان القويم من الهرطقات والبدع وخاصة بعد مجمع خلقدونية، وما أثاره من شقاقات بين الإخوة أبناء الدين الواحد.

ولكننا نقول إن هذه الروح قد بدأت تخف حدتها، وإن الكنيسة القبطية قد بدأت تستعيد صداقة ومحبة الكثيرين من إخوتها في آسيا ، وأفريقيا، وفي الغرب عبر المحيطات. فهي ترسل سفاراتها إلى رؤساء الطوائف الأخرى في لقاءات محبة وتفاهم. بل إن تلك التحركات اتخذت صبغتها الإيجابية في تعيين أساقفة لرعاية الأقباط في أكثر من بقعة كانت بمنأى عن النشاط القبطي. فالكويت عين لها الآن أسقفها (١٩٦٤). وعبر البحار عين هناك كهنة لرعاية أبنائنا في أستراليا والأمريكتين. وفي أفريقيا أصبح للأقباط أسقفيتان في السودان، الواحدة في الخرطوم، والأخرى في أم درمان. كما أن هناك أخباراً ترددت منذ أعوام - مفادها أن خمسة ملايين من المسيحيين الأفارقة في أوغندا وما يحيط بها، يتطلعون إلى كنيسة مصر لرعايتهم كمن يتطلعون إلى كنيسة أفريقية نظيرهم.

وإذا كانت قد أصبحت للحبشة ظروفها الخاصة في الآونة الأخيرة، فإننا نأمل أن تظل الكنيسة الأثيوبية في روح الشهادة الصادقة للمسيح في الداخل، وفي روح الحفاظ على المحبة لإخوتها في الخارج، كما كانت منذ أقدم العصور...

وفي مجال الحركة المسكونية، كان شيئاً فريداً مثيراً، أن يتطلع مندوبو كنائس الغرب، في مجلس الكنائس العالمي المنعقد في صيف عام (١٩٥٤ م) ليشاهدوا مندوبين ثلاثة عن الكنيسة المصرية ضمن صفوفهم. وقد قوبل الوفد بحفاوة بالغة كمن دخلوا إلى نطاق المسكونية للمرة الأولى. وكان شيئاً طريفاً أن يجيبوا بأنهم كانوا هنا منذ ألف وخمسمائة عام. وأنهم ما انسحبوا عام (٤٥١ م) إلا بعد نتائج مجمع خلقدونية وانقساماته. وها هم يعودون لإخوتهم إذ عادت شمس الصفاء تشرق مرة أخرى.. كما كانت لفتة إيجابية أن يعين البابا الراحل الأنبا كيرلس السادس، أسقفاً دائماً للشئون المسكونية. ولم يتخلف القبط مرة واحدة منذ

ذلك الحين عن حضور اجتماعات مجلس الكنائس العالمى...

وليس أحب الآن، بالنسبة للقبطى، إلا أن يرفع الشعار الذى نادت به الكنيسة فى فبراير ١٩٥٥، ويعمل على تقدمه «أن نبذل كل ما فى وسعنا لتنمية روح الصداقة بين الشعوب المسيحية. وأن نزيل كل أسباب الأحقاد، وعدم الفهم، وأن نخلق الأخوة الصادقة بكل الوسائل الممكنة». ولكن ليس على حساب العقيدة..!.

الفصل الخامس

سطور عن اللغة والادب، والموسيقى القبطية

إن كلمة قبطى ومصرى، متطابقتان فى المعنى، وهما مشتقتان من الأصل اليونانى أجبتوس التى استخدمها اليونان قديماً للإشارة إلى مصر، والنيل. ولقد كانت الكلمة ترخيماً للاسم الذى كان يُطلق على مدينة ممفيس: «هاقبتاه» أى البيت الذى يسكن فيه روح بتاه أو بتاح أحد الآلهة المصرية التى تحوطها التقاليد بالعظمة والإجلال. ومنها أشتقت الكلمة من الحروف الوسطى، قبط، لتشير فى كل اللغات إلى مصر والمصريين.

ولقد كان العرب يلقبون مصر بدار القبط. وإذ كان سكانها قديماً من المسيحيين، ارتبطت الكلمة بالمسيحيين، مع أنها لا تشير فى الأصل إلا إلى المصريين، ولا ترتبط بأى دين. لذلك يمكن أن يقال هذا مسيحى قبطى، وهذا مسلم قبطى، أى مصرى.

فإذا أتينا إلى اللغة القبطية التى تستخدم إلى يومنا هذا فى طقوس العبادة الكنسية، نقول إن تلك اللغة هى آخر طور فى سلسلة تطور اللغة الفرعونية، فالأطوار التى سبقتها - الهيروغليفية - وهى التى سطرت رموزها على جدران المعابد، وصفحات البردى - ثم الهيراطيقية وهى التى كان يستخدمها الكهنة فى تسطير الوثائق الملكية وغيرها - ثم الديموطيقية، وهى أقل رمزية وتصويراً وأكثر بساطة، وكان يستخدمها رجل الشارع...

وبمرور الزمن، ودخول المسيحية إلى مصر، وتأثير الثقافة اليونانية، وشيوع لغة

الإغريق فى التجارة والتعامل،أصبح لزاماً تطوير الديموطيقية وإدخالها فى نطاق الأبجدية اليونانية - فابتدأ الكتاب المصريون القدامى يكتبون لغتهم المصرية بأبجدية يونانية. ولما وُجد أن اليونانية لا تكفى لكل المقاطع الصوتية المصرية، أدخلوا على «الخليط» الجديد السبعة حروف الأبجدية الأخيرة من اللغة الديموطيقية. وهكذا نستطيع أن نعرّف اللغة القبطية بأنها الطور الأخير من اللغة الفرعونية، موضوعة فى قالب الأبجدية اليونانية ومطعمة بالسبعة حروف الأبجدية من الديموطيقية. ولقد اقتضى الأمر وقتاً طويلاً، لتصل إلى صورتها المنظمة الحالية.. حتى أننا نقول إنه ما أن أهل القرن الثانى للميلاد حتى كانت القبطية تستخدم جنباً لجنب مع الديموطيقية.

وآخر مظهر من مظاهر استخدام الديموطيقية كان بين كهنة إيزيس، فى جزيرة فيله حتى عام (٤٥٢ م).ولو أن القبطية كانت قد زحفت على كافة البقاع فى وادى النيل، وأصبحت الديموطيقية لغة غير حية.

ومن الأمور المهمة أن نلاحظ أن اللغة القبطية تعكس اللهجات التى كانت سائدة قديماً: اللهجة البحيرية لمصرالسفلى، والصعيدية لمصر العليا، والفيومية، والأخميمية. أما اللهجة التى تستخدم الآن فى الكنائس القبطية - فهى البحيرية - التى تعتبر أقدم اللهجات الأربع.

ومن المحتمل جداً أنه ببداية القرن الثالث الميلادى، كانت كل أسفار الكتاب قد تُرجمت إلى القبطية. وأقدم الوثائق الكتابية التى اكتشفت فى مصر، يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثانى للميلاد، وهى تحتوى على اقتباسات وافية من رسائل بولس. مكتوبة على البردى. ولقد قدمت لنا القرون الثلاثة التى تلت ذلك وثائق عديدة غاية فى الأهمية للمؤرخ،والباحث، إلا أن معظمها يصطبغ بالصبغة الدينية الكتابية.

وفى الأيام العاصفة التى حلت بمصر بفتح العرب لها، ظلت اللغة القبطية لغة البلاد الرسمية، فى كافة الشئون، حتى القرن السابع، وفى عام (٧٠٢ م) أصدر الحاكم الأموى عبد الله بن عبد الملك قراره، بأن تستبدل القبطية بالعربية فى شئون الدولة الرسمية. ومع ذلك فقد ظلت القبطية لغة تخاطب حتى القرن الثالث عشر. وإننا نجد كثيرين من علماء اللغة فى ذلك الحين، مثل ابن العسال، وابن كبر، يقدمون للدارسين قواميس لمفردات اللغة القبطية حفاظاً عليها من الضياع. ومع أن القبطية قد انكمشت الآن إلا من دائرة الطقوس الكنسية، إلا أن الكثير من مفرداتها قد وجد طريقه إلى اللغة العربية، وعلى الأخص الدارجة فى مصر.

كما أن كثيرين من هيئات المتحمسين اليوم، أمثال شباب مدارس الأحد قد بدأ حملات دراسية، لتعليم هذه اللغة لأبناء الجيل الحاضر.

أما فى مجال الأدب القبطى، ونقصد بذلك أدب ما قبل الفتح العربى، فإننا لا نجد سنداً يذكر من مراجع وأبحاث، فهى مازالت فى دور البداية ولم تكتمل حتى الآن، حتى تقدم للباحث والمؤرخ، مادة منظمة. ولكننا نقول، بصورة عامة إن الأدب القبطى، ولد بولادة اللغة القبطية.. أما القبطية - فيتفق تاريخ ظهورها ،مع تاريخ انتشار اللغة اليونانية فى مصر، وبالتالى مع ظهور المسيحية. ولذلك فقد كان أول مجال لها فى الأدب المكتوب، ترجمة الأسفار الكتابية إليها. ثم قامت الأغنسطية بمحاولتها للتوفيق بين المسيحية وأفكارها الفلسفية، فكان لها أدبها وكتاباتها، ما بين القرن الثانى، والقرن الرابع. ومنها ما اكتشف فى مخطوطات نجع حمادى.

ثم يأتى دور الصراع بين اللهجات القبطية المختلفة، والذى تنتصر فيه البحيرية على سواها، حيث كان بابوات الإسكندرية يفضلون دير الأنبا مكاريوس أثناء حكم العرب، وهكذا سادت البحيرية فى القراءات الكنسية ومراسيم العبادة منذ مطلع القرن الحادى عشر.

وتبنى البحيرية كلغة الكنيسة لم يوقف تقدم الأدب الصعيدى. فبعد مجمع خلقدونية، استبعد كل ما هو يونانى من المراكز الصعيدية. وكان هذا «التطهير» لازماً كل اللزوم لتنقية الأدب القبطى فى فجر المسيحية، فى مستهل القرن الخامس للميلاد، من كل الشوائب. فلقد أفسح المجال فيها، وفى تعبيراتها القوية، مع تواريخ حياة الشهداء، وغير ذلك مادة تسبى الألباب فى لغتهم الصعيدية.

ولقد كان هناك علاوة على الأناجيل، وسفر الأعمال،الكثير من الكتب الأبوكريفية، التى أبطلت الكنيسة استخدامها فيما بعد، ولو أنها تحوى الكثير من القصص المثيرة.

هناك على سبيل المثال قصة نزول بولس إلى الهاوية، ولقائه المثير مع يهوذا الإسخريوطى، وذلك ضمن ما ورد فى كتاب «أعمال الرسولين بولس وأندراوس». وهناك قصة الرجلين اللذين قاما من الأموات بعد دفن المسيح، ونزوله إلى الهاوية، وكيف تحدثا عن استقبال السيد فى عالم الأرواح.!. على أن أقوى الاكتشافات إثارة مجموعة البرديات الأغنسطية، التى اكتشفت عام (١٩٤٦ م)، وأُطلق عليها لقب «برديات نجع حمادى» وهى تضم أربعة وأربعين مكتوباً، من ضمنها بعض الأناجيل الأبوكريفية، مثل إنجيل يوحنا الخفى، وإنجيل المصريين، وهو المدعو باسم الكتاب المقدس للروح الخفى الأعظم، ورؤيا بولس، ورؤيا يعقوب، وإنجيل توما وهو يضم بضعة أقوال غير معروفة للسيد المسيح، وإنجيل فيلبس. وكل هذه أصبحت الآن ضمن المتحف القبطى. وهناك سفر يُعرف باسم «الإنجيل الحقيقى» ينسب إلى واحد يدعى فالنتنوس من القرن الثانى الميلادى. وقد هرب إلى سويسرا. وهو يبدأ على هذا النحو...

«هذا هو إنجيل الحق (نبع) كل مسرة، لمن نالوا المعرفة من آب الحق، عن

طريق قوة الكلمة.. الكائن فى فكر وعقل الآب، الذى يدعى المخلص. لأن هذا هو العمل الذى جاء ليتممه لخلاص أولئك الذين لا يعرفون الآب.

هذا الإنجيل هو إعلان الرجاء لأنه اكتشاف له. وفى الحقيقة أن «الكل» كان يبحث عن ذاك الذى منه جاء. ولكن «الكل» كان فى ذلك الواحد غير المدرك،الذى يسمو على كل فكر. وعدم معرفته وإدراكه، كان السبب فى كل الآلام والمخاوف المرعبة. وأصبح الألم نظير غمامة غطت الأعين فلم تر. لهذا ازداد الخطأ، وتعاظم، وتميزت مادته فى الفراغ الموحش، دون معرفة الحق... إن الوحشة والخواء لم توجد مع الله... ولكن مع الله وجدت المعرفة، حتى تزيل الوحشة والخراب، وتمهد الطريق لمعرفة الآب». ونفس الاتجاه الأغنسطى، نلمسه أيضاً فى إحدى كلمات المسيح المدونة فى إنجيل توما...

يقول «يسوع»: «وإن قال لكم الذين يرشدونكم، هوذا الملكوت فى السماء، فطيور السماء قد سبقتكم إليه. وإن قالوا لكم هو فى عمق البحار. فالأسماك سبقتكم إليه. لأن ملكوت السموات هو داخلكم، وخارجكم. فإن عرفتم أنفسكم ستعرفون وتدركون أنكم أبناء الله الحى. ولكن إن لم تعرفوا أنفسكم فأنتم فى الفاقة تعيشون،بل أنتم الفاقة عينها..».

مثل هذه التعبيرات القوية، كان لها أثرها على عقلية المصريين، الذين تركوا عبادة الأصنام حديثاً، ليعبدوا الله الحى. ونفس هذه الروح قد فتحت الطريق لتغلغل المانشية خلال القرن الثالث. ومجموعة البرديات المانشية التى اكتشفت فى الفيوم (١٩٣٠ م) يمكن ربطها بما تقدم به الأسقف سيرابيون فى القرن الرابع،فى دفاعه عن المسيحية ضد المانشية. على أننا نخطىء الظن إذا تصورنا أن الأدب القبطى كله،كان أدباً دينياً. فهناك وصفات طبية وصلت إلينا مع تعاويذ سحرية. وهناك رسائل وخطابات، وإيصالات تجارية وكلها وصلتنا على كسر الخزف، أو

رقائق البردى. وهناك أحداث، سُطرت إبان الفتح العربى، تبين الشعور القومى القبطى، وقصص قد تستند إلى الواقع، أو لا تستند، ولكنها على كل حال تترجم مشاعر الأقباط، وعلى سبيل المثال قصة الأخوين، اللذين ارتقى أحدهما إلى كرسى بيزنطة. وذكر آخاه، وأرسل وأجلسه رئيساً على أساقفة القسطنطينية. وهناك قصة قمبيز على ما فيها من خلط فى التواريخ، وغموض، وقد كتبت القصتان نثراً.

ومع أن الأدب الشعرى فى القبطية كان نادراً، إلا أننا نستطيع أن نذكر شواهد منه. فهناك ما وصل إلينا من بقايا قصة واحد يدعى أرخليتس وأمه. فقد كان من أسرة ثرية. وأرادت أمه أن ينال قسطاً وافراً من التعليم فأرسلته إلى جامعات أثينا ولكن الشاب استهوته الرهبنة،وانتهى به الأمر إلى أن أصبح راهباً فى دير الآب رومانس. وانقطعت أخباره عن أسرته.أما هو فقد نما فى حياة القداسة، ونال موهبة شفاء الأمراض وذاع صيته فى كل مكان.. وفى يوم من الأيام سمعت الأم عن قديس فى دير الآب رومانس، وفى استفسارها عنه عرفت أنه ابنها وليس سواه. فتاقت نفسها إلى رؤيته. وتحملت عناء السفر فى سبيل ذلك، وهنا تبدأ المأساة. فقد قطع القديس على نفسه عهداً بألا ينظر وجه امرأة حتى ولو كانت أمه.. وتتوسل الأم، وتبكى بالدموع. أما هو فيطلب من الله أن ينهى حياته حتى لا يكسر عهده. ويستجيب الله له فلا ترى الأم إلا جسد الابن. وفى انكسارها تموت معه. ويدفن الاثنان جنباً إلى جنب، فى الدير...

أما فى عهود العرب، فإننا نجد كُتّاب الأقباط. حتى القرن الرابع عشر يقرنون كتاباتهم القبطية، بترجمات عربية لها جنباً لجنب. ومنذ القرن الثالث عشر، كما أشرنا انتصرت اللهجة البحيرية،وأصبحت هى السائدة فى الخدمات الدينية. ولعل أشهر كتّاب تلك الحقبة أولاد العسال.. ولم يحاول واحد من الكتّاب، تقديم دراسة

منظمة عن الأدب القبطي، عدا ما قام به كاتب مسلم حديث، يدعى محمد سيد كيلانى، قدم دراسة متواضعة عن الأدب القبطى قديماً وحديثاً، ونال بها درجة الماجستير. وهى تدور حول أدب الأقباط منذ بداية الفتح الإسلامى حتى عصرنا الحاضر. ولو أن الكاتب يبدو متحيزاً فى بعض أحكامه..

فإذا أتينا إلى الموسيقى القبطية، نقول إن هناك مدرستان بخصوصها، الأولى تنادى بأن الموسيقى القبطية قد دحرتها وانتصرت عليها الموسيقى البيزنطية بعد دخول المسيحية إلى وادى النيل. ويعتمد أصحاب هذه المدرسة الأولى على مراجع ربما تكون الوحيدة فى تاريخ الموسيقى المصرية.....

أما المدرسة الثانية فتنادى بأن هذه هى بالفعل الألحان القبطية منذ قديم الزمان، ولم يطرأ عليها كثير تغيير، وهم يستندون فى هذا الرأى على أنه بعد مجمع خلقدونية، وما جر وراءه من انقسام، ومتاعب، فى منتصف القرن الخامس، استبعد كل ما هو ذو صبغة يونانية فى الأدب، واللغة، والليتورجية، وكل شىء. فلماذا تستثنى من ذلك الألحان؟ ولماذا يتبنى أبناء النيل، الموسيقى البيزنطية بديلاً من ألحانهم القومية؟ إن هذه الألحان - ولو أنها بقيت سماعية حتى القرون الوسطى قبل إدخال الصنوج، كان الأبناء يتناقلونها عن الآباء جيلاً بعد جيل. وكان الرهبان يحفظونها فى صدورهم فى قلب الأديرة، ويلقنونها لمن يأتى بعدهم. كما أن الخدمات الكنسية أسهمت فى الحفاظ عليها وتوارثها دون أن يُفقد منها شىء ذلك لأنهاترتبط بمراسيم العبادة القبطية وخدمة القداس، والأعياد والمناسبات وغير ذلك....

وكان هذا من الناحية النظرية الفرضية. وبقى تأكيدها بالمنطق البحثى العملى...

ولقد قام بذلك قبطى ثرى يدعى راغب مفتاح عام (١٩٢٧)، حينما دعا عالماً

موسيقياً من جامعة أوكسفورد يدعى نيولاند سميث لقضاء فصل الشتاء فى ذهبية بالنيل، ليفحص الموسيقى القبطية،ويضع لها نوتها، بزيارة الكنائس،والاستماع إلى الألحان. وقد خلص ذلك العالم الموسيقى من مجهوداته، بثلاثة عشر مجلداً من الحجم الكبير سجل فيها كافة الألحان القبطية، معلناً أن النتيجة المذهلة، قد فاقت أقصى توقعاته.

ولنستمع إلى تقريره الختامى... يقول:

«إن ما نعرفه اليوم عن الموسيقى القبطية، يبدو كالأشعة الخاطفة من أضواء فن عظيم مجيد. وهذه الموسيقى التى انتقلت إلينا منذ عصور سحيقة فى القدم، ينبغى أن نضعها فى موضعها الصحيح فى عالم الموسيقى. وينبغى أن يقدرها علماء الغرب، كالقنطرة ما بين الموسيقى الشرقية الحديثة،والموسيقى الغربية، إنها فن نبيل عظيم، تحيطه هالة الروحانية المطلقة، التى تفتقر إليها موسيقى عصرنا الحاضر..».

وفى رأيه الذى نشره فى أبريل عام (١٩٣١) فى جريدة المورننج بوست أن الموسيقى الغربية قد أخذت واستقت فى الأصل، من ينبوع مصر القديمة».

ومهما كان من أمر هذه المدرسة الجديدة، وهل ستلقى قبولاً أم لا، فيكفينا القول إننا نستطيع أن نعتبر الخدمة الدينية كلها فى الكنائس القبطية دراما إلهية، يشترك فيها الكاهن كالمرنم الرئيسى، مع الكورس من الشمامسة وكذلك جمهور العابدين الذى يقوم بدوره الرئيسى فى المردات. وبالقياس إلى تقاليد الخدمة فى الكنائس الرومانية - فالعبادة، ولا نقول هذا تحيزاً، تنفرد فى الكنائس القبطية، بالغيرة والحماس، والألحان الغنية المؤثرة لكل المناسبات...

ومنذ إنشاء معهد الدراسات القبطية، وقد شغل القائمون به على تسجيل

الألحان، كما قدمها نيولاند سميث علي أشرطة. ويشترك فى الأداء، نخبة من المرتلين من جيل قديم. ليحققوا ما قاله ذلك العالم الإنجليزى.. «إن هذا الأساس الموسيقى الجديد، يفتح آفاقاً ما كان يحلم بها ،جبابرة الموسيقى الغربية».

الفصل السادس

الكنيسة الاثيوبية فى مهب الريح

ترى ما هى قصة الكنيسة المسيحية فى تلك البلاد التى عبر عنها السيد المسيح «بأقاصى الأرض»؟.

أشرنا إلى دخول المسيحية لأثيوبيا فى معرض حديثنا عن النشاط المرسلى للكنيسة القبطية، الأمر الذى يؤكده معظم المؤرخين الكنسيين القدامى والمحدثين. إن الأثيوبيين يذكروننا على الدوام، بأن تاريخهم الروحى يرتبط بتاريخ بنى إسرائيل، كما يرجع إلى المسيحية الأولى.

فهناك قصة ملكة التيمن التى أتت من أقاصى الأرض لتسمع حكمة سليمان، ولوأن الاسم يشير إلى بلاد اليمن. وهناك التقليد المرتبط بذلك، من زواج سليمان بها، وولادة منليك الذى فيه تسلسل ملوك أثيوبيا، ولو أنه تقليد لا يستند على أساس تاريخى. وهناك قصة أبو كريفية عن عظة يتقدم بها متى البشير إلى جماعة من الأثيوبيين فى فرصة صعود المسيح إلى السماء. ثم تأتى حادثة تجديد وزير الحبشة، وزير خزانة كنداكة ملكة أثيوبيا، الذى جاء إلى أورشليم فى فرصة العيد. ولو أن بعض الناقدين اعترضوا بأن لقب كنداكة كان يُطلق على ملكات النوبة، وليس على ملكات الحبشة. وأن كلمة حبشى يقصد بها إنسان أسمر البشرة لتفرقته عن السود.

ولكن من الثابت الأكيد أن المسيحية أصبحت ديانة الدولة الرسمية منذ عام (٣٤٠ م).

أما تقليد تعيين أسقف قبطى من مصر، على كرسى أثيوبيا، فقد بدأ منذ عهد

تعيين أثناسيوس الرسولى، لفروما نشيوس. وظل هذا التقليد معمولاً به حتى عام (١٩٤٨ م)، حين تحررت الحبشة من هذا التقليد. ولو أن بطريرك الأحباش الحالى الأنبا باسيليوس، قد تكرس عام (١٩٥٩) على يدى البابا كيرلس السادس، بحضور الإمبراطور السابق هيلاسلاسى.

الأمر الثانى الذى يبرز بصورة واضحة فى تاريخ الكنيسة الأثيوبية دخول الرهبنة على نظام القديس باخوميوس قبل القرن الخامس الميلادى، وفى حياة ذلك القديس.. ومع أن أفراداً من الرهبان، كانوا يفدون على أثيوبيا من طيبة، بين حين وآخر، إلا أن الحدث الرئيسى، فى نشر الرهبنة كان فى عام (٤٨٠ م) حينما وفد على أثيوبيا مجموعة مكونة من تسعة من الرهبان بقيادة أبونا ميخائيل أرجاوى، وقاموا بتأسيس أول دير على مرتفع كبير بالقرب من أكسوم عُرف باسم دير «ديرادامو» ثم توالى إنشاء الأديرة بعد ذلك، مثل دير «ديراسينا» الذى أسسه أبونا يؤنس، و«دير البانوس» الذى أسسه أبونا لبانوس، ولقد ساعدت طبيعة البلاد الجبلية فى تكوين هذه الأديرة المنعزلة.

وطبيعى أن يأتى مع هذا دور ترجمة الأدب الدينى من القبطية، واليونانية، والسيريانية، إلى اللغة القديمة الأثيوبية، لغة الغيز. ومع أن الأمهرية قد حلت محلها كلغة التخاطب، فإن الغيز ما تزال تستخدم حتى الآن فى الليثورجية الأثيوبية، تماماً كما تستخدم القبطية فى كنائس مصر. وقد أكملت ترجمة الكتاب المقدس، إلى تلك اللغة، ما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلادى، مع الليتورجية، وشىء من الأعمال الأبوكريفية، مثل سفر صعود إشعياء..

أما القرن الخامس، فقد جاء بمجمع خلقدونية، والانشقاق بين الشرق والغرب. وقد التصق الأثيوبيون بالأقباط والعقيدة المنوفيزتية.

أما الإسلام فقد بدأ بروح الصداقة بين المسيحيين الأثيوبيين وبين نبى الإسلام،

والخلفاء الأولين. ولكن العداوة بدأت بعد ذلك، مع محاولة المسلمين احتلال شواطىء البحرالأحمر، والمحيط الهندى. وبانتشار الإسلام فى الوديان، انسحب المسيحيون الأمهريون، إلى المسطح الجبلى الحصين. ولمدة ستة قرون كاملة حتى نهاية القرن الثالث عشر، يلف تاريخ البلاد هناك ضباب الغموض، وتنقطع كل الصلات بين أثيوبيا، والعالم الخارجى. وحتى الصلة مع مصر لا تعدو تكريس أسقف قبطى وإرساله الواحد بعد الآخر. ولكن تقوى الأحباش وتمسكهم بدينهم، كان السبب فى الحفاظ على المسيحية، وبقائها حتى يومنا الحاضر.

وفى أذيال الإسلام أتت حملات البابوية. فقد كانت اليسوعية فى فورة تكوينها وطلب ليولا من البابا أن يستهل حياته الكنسية بحملة أثيوبية. ولقد عين البابا راهباً يدعى نيوس بريفو ليصبح بطريركياً على أثيوبيا، مع اثنين من الأساقفة، أما بريفو فقد انتهت حياته فى جوا عام (١٥٦٢ م). ولم يجد معاوناه من صلابة الأثيوبيين، وعدم رغبة القصر الإمبراطورى فى الخضوع للكرسى البابوى، بدأ من أن يطلبا من البابا أن يجرد حملة من البرتغاليين ليخضعوا الحبشة بقوة السلاح. وقد كان البابا حكيماً حينما أمر بنقلهما إلى الشرق الأقصى.

وبهذا انتهت أول محاولات اليسوعيين إلى الفشل (١٥٩٧ م)، ولكن اليسوعيين عادوا إلى أكثر من محاولة. ونحن نقرأ عن يسوعى مارونى أرسله رئيس أساقفة جوا للتبشير بين الأحباش، ولكن حياته انتهت بالاغتيال. وكذلك نقرأ عن آخر أرسله البابا جريجورى الثامن عشر نفسه، محاولاً أن يسترضى الأقباط فى شخص بطريرك الإسكندرية، ولكنه لم ينجح. ثم تابع رحلته إلى الحبشة ولم يكن أسعد حظاً من سالفه، فقُتل هناك فى مصوع. ثم أتى دور هندى كاثوليكى،استطاع أن يتسلل إلى داخل البلاد، واتصل برجال البلاط. وأعان أحد الأمراء على خصومه. وظن الأمير أنه يستطيع أن يكسب معونة روما المادية،

بتظاهره بالكثلكة. إلا أن الشعب كله كان وراء «أبونا» القبطى. ولم يتم للكاثوليك السيطرة على القصر إلا عام (١٦٢٤ م) فى عهد المدعو ملاك سجاد الثالث، الذى أمر بأن ترتبط البلاد رسمياً بروما، ولكن الشعب ثار. وبدأ البطريرك اللاتينى حملة اعتقالات واسعة بمعونة محاكم التفتيش التى أقامها. وكان مصير الثائرين الحرق أحياء. وهذا زاد فى نفور الشعب وثورته على الكاثوليك. حتى ما أن أهل عام (١٦٣٢ م)، وتولى العرش الملك بازيلدس، إلا وأمر بطرد اليسوعيين من البلاد. واضطر مندوب روما إلى الفرار إلى جوا..

وعلى الرغم من كل هذا، حاول جماعة من الرهبان الكابوشين التسلل إلى البلاد. ونجحوا فى الوصول إلى العاصمة أكسوم. ولكن السلطات هناك ألقت القبض عليهم، وأصدرت عليهم حكم الإعدام شنقاً. ثم أصدرت قراراً بتحريم دخول أى كاثوليكى إلى البلاد.

ولكن تكرار مثل هذه المحاولات، لم يكن بلا جدوى وخاصة بين قبائل الجالا والوثنيين، حيث أصبح ثمانى عشر ألفاً منهم من أتباع روما، ووصل عدد الكنائس الكاثوليكية حتى بداية القرن الحالى هناك، إلى عشرين كاتدرائية فاخرة وعين لهم فى عام (١٩٥٠ م) قاصد رسولى يشرف على شئونهم من قبل البابا.

وفى القرن التاسع عشر، بدأت الإرساليات البروتستانتية حملاتها ،بإرسالية من كنيسة إنجلترا. ولقد أظهر الأثيوبيون صدراً متسعاً من نحوهم، ذلك لأنهم كانوا يعملون فى الحرف. وكانوا بحاجة إلى الصناع الفنيين. ومع ذلك فقد انتهى أولئك بالقبض عليهم وسجنهم عام (١٨٦٨ م)، واقتضى الأمر أن ترسل إنجلترا سفيراً لفدائهم، حيث سمح لهم بمغادرة البلاد.. ثم جاء دور الأمريكيين فأرسلوا مرسلاً طبيباً ليعمل فى العاصمة الجديدة إديس أبابا، بين قبائل الجالا الوثنيين، وقد نجح إلى حد ما..

على أننا ينبغي أن نلاحظ أنه في المبدأ ما كان الأثيوبيون يرتاحون لا إلى «أبونا» القبطي – ولا إلى المرسلين من أي طائفة كانت، ولا إلى أولئك الغرباء الذين يتقربون إلى البلاط الإمبراطوري، الذين كانوا ينظرون إليهم بعين الارتياب. فأثيوبيا، في نظامها الكنسي، هي أبعد ما تكون عمن هم خارج دائرتها. كما أن تصرف القاصد الرسولي في القرن السابع عشر، ومؤامراته، واتصالاته بالقصر، وإقامة محاكم التفتيش، وغير ذلك، قد جعلتهم يرتابون في مقاصد كل من هو غريب. وقد ظهر هذا مؤخراً في مطالبتهم بأن يكون لهم أساقفتهم الوطنيين ورؤساء أساقفة من بلادهم وشعبهم. وكان أول «أبونا» وطني لهم، الأنبا باسيليوس بطريرك كل أثيوبيا، (١٩٥٩ م). والبلاد الآن مقسمة إلى اثنين وعشرين أسقفية. وكان للنزاع الذي دار بين الأقباط وبينهم، على ملكية دير السلطان، أثره في زيادة شقة الخلاف. ولقد بدأت، ملكية دير السلطان، منذ انتصار صلاح الدين على الصليبيين، وطرد اللاتين من القدس، والسماح للكنيسة الشرقية بملكيته. فالشقاق لا يتسم على الإطلاق بصبغة عقائدية.

وعلى أنهم قد أعفوا رئيس الكلية الإكليريكية القبطي من منصبه واستبدلوه بواحد من الكنيسة السيريانية في مالابار، إلا أن علاقتهم مع الأقباط ما تزال طيبة، ومازالوا يرسلون أبناءهم لتلقي العلم في مصر، وفي معهد الدراسات القبطية. ومازالوا يعتبرون الكنيسة القبطية الكنيسة الأم.

وفي مجال التعليم والعقيدة، يتمسك الأثيوبيون بكل أمانة، بتعاليم الكنيسة القبطية حتى نظام الأديرة، والرهبنة مأخوذ عن الأديرة المصرية.

ومع ذلك فمن الخطأ أن نظن أن الكنيسة الأثيوبية هي نسخة طبق الأصل من الكنيسة القبطية. فهي تصطبغ بتقاليدها المعينة التي أعطت لها طابعاً خاصاً، يميزها عن بقية كنائس المشرق. وهذه التقاليد ترتبط بتاريخها اليهودي، كما

بعاداتها الوثنية أيضاً.

ومن التقاليد اليهودية التى يمارسونها تقديس يوم السبت علاوة على الأحد، وممارسة الختان اليهودى، ورفض الأطعمة النجسة بحسب الشريعة اليهودية. وتتميز هذه التقاليد بصورة واضحة فى قبيلة الفالاشا القوية التى يرجع أصلها إلى ما هو أبعد من تاريخ المسيحية. ومن قصصهم أن جماعة من الإسرائيليين قد رجعت مع ملكة سبأ من زيارتها لسليمان وبعد زواجها منه - ومازالت هذه القبيلة فى فرصة الأعياد، تمارس رقصة دينية يقال إن اللاويين اليهود كانوا يمارسونها فى مراسيم عبادتهم فى قلب هيكل سليمان، مستخدمين المثلثات الموسيقية التى كان كهنة إيزيس يستخدمونها فى معابدهم. أما الطبلة، فما يزال الأفارقة الوثنيون يستخدمونها فى حفلاتهم الدينية، حتى يومنا الحاضر، وتعرف هذه الجماعة المميزة باسم (الدابتراس). وهم نظير المرتلين فى الكنيسة القبطية. ولهم مكانهم فى الفولكلور الأثيوبى، حيث يعتبرهم الشعب كمن لهم المقدرة على كتابة الأحجبة السحرية التى تشفى الأمراض وتطرد الشياطين.. أما أصول الموسيقى الكنسية عندهم فيرجعون بها إلى شماس من القرن السادس يدعى يارد، يقولون إنه سمعها من جوقة ملائكية سماوية، ولقنها لهم.

ونظير الأقباط الذين يستخدمون فى كنائسهم اللغة القبطية، يستخدم الأثيوبيون لغة الغيز بدلاً من الأمهرية. وهذا يجعل العبء قاسياً على من يريدون الانضمام لدائرة الخدمة الدينية. أما النظام والقانون الكنسى، فهما نظير كنائس القبط باستثناء وجود من يسمى بالأخاج أو رئيس الرهبنة، والمشرف على كل الأديرة. وفى العادة يكون رئيس «دير دبرالبانوس» وسلطته تأتى فى المرتبة الثانية بعد سلطة الأسقف الأثيوبى.

وأساقفة أثيوبيا ينبغى أن ينالوا موافقة الإمبراطور قبل انتخابهم. فالكنيسة

وكرسى العرش - ونحن نتكلم هنا عن النظام الذى كان سائداً قبل الانقلاب الأخير - هما مصدر كل السلطات. ولا توجد ما نسميه سلطة زمنية، وسلطة روحية. فالإمبراطور كان يعتبر حامى الكنيسة . والكنيسة والحكومة كما قال نظير السيف الذى تحمله اليد.

ولكى ندرك تغلغل الحياة الدينية فى كيان الشعب الأثيوبى، لنذكر أن عدد الكنائس يقدر بعشرين ألف كنيسة، والكثير من القرى لها كنيستان وكل واحدة بشمامستها ، ومرتليها وكهنتها. والكاهن له سلطانه الذى يتغلغل فى حياة الأفراد ،والعائلات من الولادة إلى الموت. وتبدو روح التقوى فى الشعب، ليس فى حضور الكنائس فحسب بل بممارسة كافة المراسيم والطقوس والفرائض حتى أن الأصوام تصل إلى ثلاثة أرباع السنة،والصوم انقطاعى حتى الثالثة بعد الظهر. ومظهر الاحترام للدين والتمسك به، يبدو حتى فى وشم الصليب، فالفتيات الشابات يستخدمن الوشم ليس على رسغ أيديهن كما هى العادة، بل على جباههن. أما التعليم فملحق بالكنيسة، نظير الكتاتيب القديمة فى قرى مصر، وأساس التعليم دينى، يتلقن فيه الطلاب، مزامير داود ، وبعض أقوال المسيح وتسبيحات العذراء، ومجموعة من الصلوات فى اللغة القديمة الأثيوبية، لغة الغيز.

ومعظم الكنائس الأثيوبية فى بناياتها ، ذات طابع دائرى أو ثمانى الأضلاع. ويقال إن هذا الفن متأثر ببناية هيكل سليمان فى أورشليم، ولو أن ما يبدو على الأصح، أنه يتأثر بهندسة بناية الأكواخ الدائرية فى جنوب أثيوبيا وأفريقيا بوجه عام.

وأقدم كنيسة هناك هى كاتدرائية أكسوم المكرسة «لسيدتنا ، سيدة صهيون» وفى قدس تلك الكنيسة يوجد تابوت العهد الموسوى، وهناك أيضاً كانت تتم

حفلات تتويج الأباطرة، ولسنا ندرى إن كان حكام الثورة الجدد يُكرسون فى تلك الكنيسة أم لا. وعلى الرغم من أن تلك الكاتدرائية قد هُدمت أكثر من مرة، وأن بنايتها الحالية تعود إلى منتصف القرن الماضى، فإن هندسة البناء الأولى، قد حافظ عليها أصحابها. والكاتدرائية من الداخل مزينة بصور كثيرة من مناظر كتابية، يتضح فيها الفن الأثيوبى بتركيزه عل الألوان الزاهية، والموضوع الفنى أكثر من اهتمامه بالنسب.أما الصورالرئيسية فهى تدور حول التابوت وحملته، والعذراء وطفلها، ومارجرجس والتنين، ثم صور من حياة القديسين التسعة وجميعها مرسومة على القماش الذى ألصق بعد ذلك على الجدران. أما التابوت الموسوى فخلال عصور الغزو المتكررة كان الأباطرة يحرصون علي إخفائه حرصاً عليه. ولا أحد يعرف ماذا يحوى، ولو أن بعض الكتّاب المسلمين يؤكدون أنه يضم حجراً أبيض، غُشى بالذهب. ومن الأمور التى تنفرد بها كاتدرائية أكسوم، أنه، على الرغم من أن ارتياد جميع الكنائس الأثيوبية مباح للجنسين إلا أنه غير مسموح أن تطأ أرضها القدسية قدم امرأة. وهذا التقليد يقال إنه يرجع إلى تاريخ حكم إحدى الامبراطورات السيدات، التى يقال إنها دنست الكنيسة.. وبنايات الكنائس الأثيوبية بوجه عام، دائرية الشكل، والعديد منها نراه قائماً على مرتفعات على جانبى الطرق المؤدية إلى القرى. وجميعها تتكون من ثلاث دوائر متمركزة. القدس، ويحتل مركز الدائرة، وهو مربع الشكل وتحجبه الستائر الكثيفة. ثم الدائرة التى تحيط به. وقد خصصت للمرتلين والذين يتقدمون إلى المناولة، أما الدائرة الخارجية فقد خصصت للعابدين، وفرشت بالحصر، ليقفوا عليها بأقدام عارية. وهناك فاصل يفصل بين السيدات، والرجال.

وهناك نوع آخر من الكنائس الأثيوبية، منحوت في قلب الصخر. ويرجع تاريخه إلى ثمانية قرون خلت. وهذه الكنائس الأثرية بأعمدتها المنحوتة، وسقوفها المقببة، يعتبرها علماء المعمار، أجمل بنايات الفن الهندسى الكنسى فى العالم

المسيحى بأكمله. وقد عنى بإقامة تلك الكنائس أحد ملوك أسرة زاجوى، ويرجح أنه قام بزيارة لمصر، وسوريا، واستدعى مهندسين أقباط، وسريان للقيام بهذه المشاريع الجبارة. وعدد هذه الكنائس فى مجموعها يصل إلى أحد عشر. وهى تعطى المتأمل فيها، صورة المعابد المصرية القديمة. أو بنايات البتراء الجبارة المنحوتة فى الصخر. ومع أن البناية كلها قد نُحتت فى قلب الجبل إلا أن المهندسين القدامى، اهتموا بفصل الكنيسة عنه، عن طريق شقوق وأخاديد اصطنعوها فى قلب الصخور الجامدة. أما النوافذ، والسقوف، وحافة البنايات، فقد زينت بمنحوتات آية فى الإبداع من صلبان تقليدية وصلبان معقوفة، وغير ذلك.

إن مثل هذه الكنائس الأثرية، إلى جوار الكنائس الريفية، فى قلب مناطق جبلية، وغابات تزأر فيها الوحوش الكاسرة وأيضاً مظاهر الحضارة الحديثة، فى المدن، وغيرها، تطبع هذه الأمة الجبارة، بطابع فريد غريب، وتجعلها تقف فى تحد وإصرار، فى وجه كل تغيير وتبديل... أمة عريقة، راسخة فى القدم، متمسكة بأركان تدينها على ما فيه من بدائية، وبساطة....

والآن ماذا تبقى لأثيوبيا العظيمة، وهى تواجه العواصف؟ هل ستثبت أصالتها، ومعدنها النقى، فى بوتقة الاختبار؟ هذه أسئلة سنترك الأيام القادمة للجواب عليها...

الجزء الثانى

اليعاقبة وكرسى انطاكية...

الفصل السابع

فى فجر المسيحية

إن وضع مدينة أنطاكية منذ فجر المسيحية، قد أعطاها مقاماً فريداً فى إشراق نور المسيحية على العالمين. وبهذا أصبحت هذه المدينة واحدة من ثلاث مدن هى أقوى مراكز الإشعاع المسيحى، فى قرون تكوين المسيحية. أما المدينتان الأخرتان فهما أورشليم، والإسكندرية.

وتقع أنطاكية فى وادى أورنتس، فى نقطة ملتقى الفرات والبحر الكبير، كما أنها همزة الوصل بين آسيا الصغرى وفلسطين وسوريا. وهكذا ساعد موقعها الجغرافى على ازدهارها، كنقطة ملتقى الطرق التجارية، بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، حتى أنه قيل إن سكانها قد بلغوا فى القرن الرابع الميلادى، نصف مليون نسمة. وأحد الأدلة على مقامها فى المجتمع الرومانى، أنها كانت تتمتع بمزايا المدينة الحرة الرومانية. وكانت آية فى الإبداع فى بناياتها، وحماماتها، وملاعبها، ومعابدها العظيمة.

هذه هى أنطاكية التى دُعى فيها أتباع المسيح مسيحيون لأول مرة. والتى أصبحت، بفضل بشارة بولس ورفاقه، واحدة من قلاع المسيحية الأولى. وعلى الرغم من أنها كانت مركز اضطهاد فهى التى أثارت العواصف على أتباع المسيح، إلا أنه حتى أباطرة الاضطهاد، مثل دقلديانوس، قد أقاموا لأنفسهم قصوراً هناك.

ثم بدأ عصر أباطرة بيزنطة، فراحوا يحتضنون المدينة الكبرى إلى أن بدأت تمزقها الانقسامات، والثورة وخاصة فى القرن الخامس، ضد قرارات مجمع خلقدونية. وكان قسطنطين الكبير أول من بنى فيها كاتدرائية فاخرة، وحذا حذوه

آخرون من الأباطرة، والعظماء، حتى أصبحت بحق عاصمة المسيحية فى المشرق.

على أن انحلال هذه المدينة قد بدأ بعوامل ثلاثة: الأول سلسلة من الزلازل حطمت معظم مبانيها الكبرى، والثانى الغزو الفارسى الذى أتى على ما تبقى من بنايات وأمجاد، والثالث الفتح العربى، (٦٣٨ م) الذى فصل المدينة نهائياً عن العالم المسيحى، وجعلها تبتلع فى المحيط الإسلامى وما أن تم سحق سلطة اللاتين أثر الحروب الصليبية فى أورشليم فى أواخر القرن الثالث عشر، حتى وقعت أنطاكية تحت سلطنة حكم المماليك فى مصر...

وفى العصور الحديثة تم غزو المدينة مرتين، الأولى على يدى محمد على (١٨٤٠) والثانية إثر الحرب العالمية الأولى، على أيدى قوات جنرال اللنبى. ثم وقعت تحت الوصاية الفرنسية وأعيدت بعد ذلك إلى الجمهورية التركية.

واليوم لم يتبق لها من سكانها نصف المليون إلا ثلاثين ألفاً (١٩٥٠ م). ومن أمجادها، إلا الذكرى والتاريخ، وكرسى ضمن مسيحية المشرق... ولكن عن ذلك الكرسى، انشقت فى أيام سالفة، كنائس وطوائف وفروع.

وبمرور الزمن أصبحت بطريركية أنطاكية (التى كانت تضم المنوفيزتيين، ثم بطريركية اليعاقبة، بعد ذلك)، تضم عديداً من الطوائف التى اتجهت معظمها للانضواء تحت لواء الغرب. فهناك البطريركية اليونانية الأرثوذكسية، والبطريركية المارونية، التى انضوت تحت سلطان روما، والكاثوليك المتحدين، أو البطريركية الملكية، والمناظرة وهى تجمع السريان الشرقيين، وبطريركيات أرمينيا وجورجيا، فى نطاق الاتحاد السوفيتى... ولكن ولا واحدة من هذه الكراسى الفرعية، تتخذ الآن من مدينة أنطاكية، مقراً لها.

من هنا يتضح لنا أنه على الرغم من حاضرها الهزيل، فإن كرسى أنطاكية يحق

له أن يفخر على سائر بطريركيات المسيحية، بأنه أقدم الكنائس المسيحية، وأعرقها على الإطلاق. وفي الحقيقة لا يمكننا أن ننكر على أصحابه هذا الحق الذى يفخرون به. فمنذ العهد الرسولى الأول، دُعى أتباع المسيح «المسيحيون» أولاً فى أنطاكية. كما يؤكد يوسابيوس أن الكنيسة هناك، قد أسسها بطرس الرسول الذى كان أول أساقفتها وحسب التقاليد ظل على كرسيها سبع سنوات كاملة قبل أن يرحل إلى الغرب. وبينما كان التبشير بالإنجيل تتسع دائرته نحو الشرق، فى أديسا، وملابار فى جنوب الهند، على أيدى توما الرسول، ومارتداوس، كانت الأحداث تعصف بأورشليم عام ٧٠ للميلاد، وكان عدد المهاجرين المسيحيين اليهود، يتزايد إلى أنطاكية. ولن نجد من المراجع التاريخية، ما يعيننا على معرفة التفاصيل، ولكننا نقول بوجه عام، إن أنطاكية قاست من الاضطهاد الرومانى، ما تحملته الإسكندرية وروما، حتى أن أسقفها الذى خلف بطرس الرسول، القديس أيديوس، نال إكليل الشهادة فى عهد نيرون، وخلفه بعد ذلك القديس أغناطيوس ونال أيضاً شرف الاستشهاد، فى عهد الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧).

وقصة استشهاد أغناطيوس تظهر لنا روح المسيحية فى ذلك العصر، وجهادها العظيم. فلقد حوكم أمام الإمبراطور نفسه. ولما أظهر ثباته على إيمانه، أمر بأن يلقى للوحوش فى ملاعب روما.

على أنه قد سمح له، أثناء ترحيله إلى الإعدام، أن يفتقد الكنائس فى كل مكان يمر به. فكان يعظ الإخوة حيثما حل، مشدداً ومشجعاً. وكان فى صحبته شماس يدعى فيلو رافقه فى رحلته خلال مدن سوريا. وفى سميرنا التقى مع بوليكاربوس، وأنسيمس، كما كتب رسائل إلى كنائس أفسس، وفيلادلفيا، وإلى سميرنا فيما بعد، تعتبر صورة للأدب المسيحى فيما بعد العهد الرسولى. وحيثما

حل كان ينضم إلى موكبه قساوسة وشمامسة، حتى بدأ الموكب الجنائزى كأنه موكب انتصارى.

وهناك فى ملاعب روما كلل بإكليل الشهادة أمام سبعة آلاف متفرج من الوثنيين، الذين فاقت هتافاتهم، صراخ المسيحيين ونواحهم..

ولقد كانت ذكرى هذا الشهيد الأول عزيزة على قلوب السريان حتى أنهم قرنوا اسمه، على مر العصور والأجيال، باسم بطاركة اليعاقبة. فيُقال، على سبيل المثال، مارأغناطيوس برسوم، وهو البطريرك السابق لهم فى العصور الحاضرة، ولقد كان أساقفة أنطاكية الأولون من اليهود المسيحيين حتى عام (١٣٥ م)، حيث كان يجلس على كرسى البطريركية السريانية مار يهوذا آخر بطاركة الختان. ثم جاء عهد ثاوفيلس، العالم المسيحى الذى قدم الكثير من المؤلفات الدفاعية ضد تعاليم الأغنسطيين الهرطوقية. ولقد كانت له دراية واسعة بالديانات القديمة، كما بالتوراة والأناجيل أما تفسيره الرمزى للمفاهيم اللاهوتية، فإنها تجعل محاوراته وحججه أكثر منطقية بالنسبة لعقلية العصرالحاضر. وهذا كله يتركز بأكثر وضوح فى دفاعه ضد ماركيون.. الذى كتبه فى عصر الاضطهاد حينما كانت بلاده تحت سلطة الإمبراطور كومودس (١٨٠ - ١٩٢ م).

ولقد بدا، منذ ذلك الحين، أن أنطاكية أصبحت فى طريقها، إلى أن تكون قلعة حصينة من قلاع المسيحية. فبعد ثاوفيلس ظهر بين السريان على مسرح التاريخ، الأسقف سيرابيون (١٩٩ - ٢١١ م)، الذى كتب العديد من الرسائل، والدفاعات، وأهمها دفاعه عن المسيحية ضد هرطقة مونتانوس الفريجى. ولكن كتاباته لم يصل منها الكثير إلينا...

وبعد ذلك نقرأ عن أساقفة أقل شأناً، مثل القديس بابلس، الذى ذكره يوحنا ذهبى الفم، وبولس السامسطى الذى كان سابقاً لنسطوريوس، وكان أول من نادى

بعقيدة الطبيعتين والمشيئتين، واقتضى الأمر التئام مجمعين فى أنطاكية، لزحزحته من كرسى البطريركية بسبب هذه العقيدة.

وباستثناء بولس السامسطى، نستطيع أن نقول إن تاريخ السريان كان تاريخاً مجيداً، وإن صفحاته سُطرت بدماء الشهداء. فلم يمت إلا القليلون من بطاركتهم، على فراشهم والغالبية العظمى نالت أكاليل الاستشهاد. بل إن الألوف المؤلفة من السريان، قد ختمت على إيمانها بدمها، منذ انفجار عاصفة الاضطهاد النيرونى. ولعل أصدق الأدلة استشهاد أحد عشر ألفاً من الجند، دفعة واحدة بعد عصر الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧ م). فقد أمر بنفيهم جميعاً إلى مجاهل أرمينيا، ثم استشهدوا فى عصر خلفه هادريان.

أما فى مجال العلوم اللاهوتية، فالمسيحية مدينة بالكثير لمدرسة أنطاكية اللاهوتية، التى أسسها لوكيانوس اللاهوتى الشهيد، الذى استشهد فى نيقومديا عام (٣١٢ م)، فى نفس الليلة التى سبقت «قرار ميلان» بالتسامح مع المسيحيين. ولقد كان عالماً عظيماً من علماء الكتاب. حتى أنه قام بمراجعة الترجمة السبعينية، وتنقيحها، وكذلك الأناجيل. ولو أن البعض وجه إليه التهمة، بأن بذور الأريوسية كانت كامنة فى تعاليمه، وأن تلك البذور قد وجدت تربة خصبة فى تلميذه أريوس. ومع ذلك فلا يمكن أن ننكر أن مدرسة لوكيانوس لعبت دورها الكبير فى وضع أساس التعليم المسيحى، والعقيدة المسيحية.

نقول أيضاً إن مجموعة من الشخصيات البارزة فى تاريخ المسيحية الأولى، قد ارتبط اسمها بهذه المدرسة، مدرسة أنطاكية فهناك ديودورس الذى جاء خلفاً للوكيانوس، الذى تتلمذ على يديه يوحنا ذهبى الفم. وإن كنا نرى فى سلسلة من أتوا بعد ذلك، نسطوريوس المنحرف بطريرك القسطنطينية.

ونضرب صفحاً عن عصر الهرطقات الذى أتى بعد ذلك، وعن المجامع

المسكونية التى ارتبطت بمدينة أنطاكية، لنسلط الأضواء على شخصية كان لها أكبر الأثر فى تاريخ الكنيسة السريانية الا وهو المدعو يعقوب براديوس، والذى ارتبط اسم الكنيسة به فعرفت بكنيسة اليعاقبة...

ولقد ظهر يعقوب فى فترة حرجة كانت فيها السريانية المنوفزتية، تتأرجح بين الحياة والموت. كان ذلك فى عصر الإمبراطور جوستنيان. وقد وضع ذلك الإمبراطور فى قلبه، أن يحفظ وحدة الكنيسة بمحاربة كل من ينادى بالطبيعة الواحدة. فسلط زبانيته على كل من يخالف الديوفزتيين. وقام بسجن زعمائهم وقادتهم، ولم يعف من ذلك حتى ثيودوسيوس بطريرك الإسكندرية الذى قاسى مرارة السجن فى قلعة دركوس، هو وثلثمائة من رجال الكنيسة، بالقرب من القسطنطينية. ولولا أن الإمبراطورة ثيودورا، قد فتحت قلبها، وواحداً من قصورها لإيواء خمسمائة من المنوفزتيين، من مختلف أرجاء الشرق، لكانت المنوفزتية مجرد ذكرى فى التاريخ.

ولقد تركزت المقاومة ضد جستنيان وصنائعه، فى صحراء سيتى بمصر بين الرهبان، وفيما بين النهرين، كما فى مناطق من شمال سورية.

ولقد كان التاريخ الحاسم فى إحياء المنوفزتية السريانية عام (٥٤٢)، وتحت تأثير ضغط الملك العربى الحارث بن جبله، مع مجهودات الإمبراطورة ثيودورا، اعتلى يعقوب كرسى البطريرك القبطى ليصبح أسقفاً لأديسا، كما رُسم ثيودور أسقفاً على البصرة.

ويعقوب براديوس، أو البرادعى، وذلك لأنه كان يرتدى إما تقشفاً منه، أو تنكراً، قماش البرادع الخشن، من مواليد عام (٥٠٠ م) من قرية فى أعالى الفرات. وقد قطع عهد الرهبنة فى دير ايزالا. ودرس العلوم اللاهوتية فى كلية نصيبين. ويبدأ تاريخ جهاده بعد رسامته، حين قيل، إنه هرب خارج العاصمة

البيزنطية بواسطة الملك الحارث فى الوقت الذى كان فيه المنوفزتيون يُطردون، ويُقبض عليهم كأعداء الأمة ويُزج بهم فى السجون، ويلاقون كل صنوف العذاب، والموت..

ولم يكن ليعقوب مقر ثابت. فلقد اختار الترحال فى كل مكان، نظير بولس الرسول، مشجعاً، للمضطهدين، ومنادياً بعقيدته فى كل مكان يذهب إليه، حتى أنه يقال إنه جاب كل أنحاء سوريا، وأرمينيا، وكبدوكية، وكيليكية، وفريجية، وجميع مناطق آسيا. ومصر، كما أنه أبحر منادياً بما آمن به، فى الجزائر البعيدة، فى قبرص، ورودس وغيرهما. فى كل مكان ذهب إليه، كان يبشر، ويعظ، ويعزى، وينظم الكنائس، التى تشتت بسبب الضيق، ويختار رعاة وأساقفة، لمن خلت أماكنهم بسبب القبض عليهم، حتى أنه يقال وهو قول فيه بعض المبالغة، لكنه يرينا مدى نشاطه أن عدد رجال الكنيسة الذين نصبوا على يديه بلغ مائة ألف. وأنه قام بتنصيب تسعين أسقفاً.

على أن ذلك القائد الروحى للكنيسة السريانية الأرثوذكسية، لم يجلس قط على كرسى البطريركية فى أنطاكية بل نصب مكانه اثنين من زملائه فى الكفاح، أحدهم يدعى سرجيوس الأنطاكى (٥٤٢ - ٥٦٢ م) والثانى أتى بعده، ويعرف باسم بولس الأسود، مصرى من الإسكندرية ترهب فى الأديرة السريانية (٥٦٤ - ٥٨١ م). ولقد كانت فترة رئاسة الأسود فترة عاصفة، حتى أنه، نظير سواه من بطاركة أنطاكية فى فترة حكم جوستنيان، لم يصل إلى كرسيه على الإطلاق، بل كان مطارداً على الدوام من جنود الإمبراطور وحتى اضطر إلى أن يجد الملجأ والأمان فى قصر أحد ملوك الغساسنة العرب، وأحياناً كان يلجأ إلى أديرة مريوط جنوبى غربى الإسكندرية. وأخيراً لم يجد بدأ من مداهنة الإمبراطور، والتظاهر باعتناق مبادىء مجمع خلقدونية، حيث استدعاه جوستنيان، وقضى ما تبقى من

عمره فى عاصمة الإمبراطورية البيزنطية.

أما بخصوص يعقوب البرادعى، فإننا لا نعرف الكثير عن سنى حياته الأخيرة، سوى أنه شُغل برأب الصدع، والانقسامات التى سادت الكنيسة، ومحاولة إعادة الوئام بين الكنيستين الكبيرتين، اللتين تؤمنان بالطبيعة الواحدة. ولقد انتهت أيامه عام (٥٧٨ م) فى دير سان رومانوس بالقرب من حدود مصرالشرقية. ثم نُقلت عظامه بعد ذلك لتستقر فى دير فاسلتا بجبل إيزالا، وهو الدير الذى بدأ حياته فيه.

ومجهودات ذلك القديس السريانى التى استمرت خمسة وثلاثين عاماً، فى رفع شعلة المنوفزتية فى الشرق. لا نستطيع أن نقدرها حق قدرها، إلا على أساس الحقيقة التى يؤكدها الكثيرون، أنه لولا هذه المجهودات لما كان مقدراً للأرثوذكسية أن ترسخ أقدامها فى الشرق، ولكانت قد طغت عليها الكنيسة البيزنطية، وذلك على الرغم من أنه رأى، فى أخريات أيامه،الانشقاق الكبير فى كنيسته، الذى ثبتت فيه كنيسة اليعاقبة على مبدئه،بينما اتخذت الكنيسة النسطورية فى الشرق طريقاً آخر، سنعرض له فيما بعد..

على أنه من الملامح المميزة للكنيسة السريانية فى فجر المسيحية ارتباطها بنظام غريب فى الرهبنة ابتدعه القديس سمعان العامودى وسار على نهجه كثيرون فى الشرق والغرب.. ومع أن النشاط الرهبانى والكنسى بوجه عام، الذى ارتبط باسم السريان، لا نستطيع، حتى القرن الخامس أى قبل الانشقاق فى الكتلة السريانية، أن نجعله وقفاً على اليعاقبة، أو النساطرة، إلا أننا نقول إن نشاط اليعاقبة قد اتجه بعد ذلك التاريخ، إلى مناطق شمالى بغداد حول نهر دجلة، بينما تمركز نشاط النساطرة فى قلب بغداد وإلى المناطق الواقعة جنوبها...

وكثير من القصص التى نسجت حول سمعان العامودى يحوطها الغموض.

والإغراق فى الخيال.ولكن الخطوط الرئيسية قد اتفق عليها مختلف الكتّاب سواء من اليونان أم السريان، أم الأرمن، أم العرب، حتى أن حياته تمثل صفحة ناصعة مشرقة فى تاريخ الكنيسة السريانية بل تاريخ الرهبنة فى الشرق بأسره.

ولد سمعان من أبوين مسيحيين فى سين بين حدود سوريا وكيليكية ومنذ صبوته.. أظهر بوادر التقشف والزهد وإطالة الأصوام، حتى إننا نجده فى السادسة عشرة، ينضم إلى دير قريب، ويقوم بأعمال الأمانة، مما أذهل إخوانه، خلال السنوات العشر التى قضاها هناك. فهو يرفض أن يقطع صيامه إلا يوماً واحداً فى الأسبوع. وهو يطوى على اللحم تحت ثيابه، حبلاً من الألياف المجدولة، حتى يتهرأ خصره، ويقيح، ويقطر منه الدم. وهو يرفض كل علاج لقروحه. ويتضايق منه رئيس الدير. فيكون فى هذا انفصاله عن إخوته. واعتزاله فى الجبال والمغاور مع راهب آخر يعرف باسم باسوس فى برية تل نشين ويطلب من زميله أن يسد المغارة عليه ببناء من الطوب، لأنه يريد أن يصوم انقطاعياً كما صام سيده. ولكن باسوس يشفق عليه فيضع إلى جواره جرة ماء وعشرة أرغفة من الشعير. وبعد نهاية الأربعين يوماً، يفتح المغارة، ليجد الخبز والماء لم يمسهما سمعان، ويجده بين الحياة والموت. فيطببه ويعتنى به حتى يعود إلى الحياة. ولكنه لا يكتفى بهذه التجربة بل يكررها على مدى ثمانية وعشرين عاماً، مما جعل صيته يذيع، وتنتشر أخباره فى كل مكان، ويتقاطر عليه المرضى، والمحتاجون للبركة. فيقوم بمعجزات الشفاء، ويبارك اللواتى أصابهن العقم فيحملن. وتتزايد شهرته أكثر فأكثر فتتدفق الجموع عليه، هذا يريد أن يلمسه، وذاك يريد أن يقص قطعة من قميصه الجلدى للتبرك، وغير هذا، فلا يجد وسيلة لاعتزال الناس، سوى أن يطلب من زميله أن يبنى له عموداً قيل إنه وصل إلى ارتفاع أحد عشر متراً، وأنه زاده بعد ذلك إلى ارتفاع سبعة وعشرين متراً. وكان الناس يتجمهرون حوله، فيعظهم فى النهار،أما فى

الليل فيظل راكعاً رافعاً يديه بالصلاة. ولقد أرسل إليه الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، جماعة من الأساقفة ترجوه أن ينزل ليشفى المرضى فى العاصمة، ولكنه رفض كل رجاء ولمدة ثلاثين عاماً بقى على هذه الصورة الغريبة.

وبعد موته، قامت أربع كنائس فاخرة، على صورة صليب مركزه ذلك العامود. وتعرف بقاياها الآن باسم خرائب قلعة السمان. وهى تعطى السائح والدارس فكرة عما كانت عليه من عظمة وجمال.

ولقد انتشرت فكرته، وذاع نمطه الغريب فى الرهبنة، وقامت هيئة كبرى من الرهبنة العامودية امتدت حتى مصر واليونان، وظلت حتى العصور الوسطى. واستمرت حتى تحت حكم العرب. ومهما يكن من أمر المتحمسين، فتلك الأعمدة ما كانت معزولة تماماً عن العالم، بل كان يمكن الوصول إلى قمتها عن طريق السلالم وتوصيل الزهيد من الطعام والشراب لصاحبها. ولعل آخر محاولة لتقليد رهبان هذا النظام اكتشفها أحد السياح فى جبال القوقاز حيث وجد راهباً أقام قلايته فوق أحد الأعمدة، وكان ذلك فى عام (١٨٤٨)...

على أنه، وإن كان هذا النظام قد ارتبط بالرهبنة السريانية إلا أنه كانت هناك الأديرة العادية. بل إن أولئك الرهبان المتوحدين - كانوا يقيمون الأديرة. ثم يعتزلونها بعد ذلك، مثال ذلك القديس يوحنا الأتربى الذى كان عالماً فلكياً، ومؤرخاً ضليعاً، والذى قضى السنين الأخيرة من عمره فى أواخر القرن الثامن، على قمة أحد الأعمدة. كما أن السنكسار القبطى، والأثيوبى، لا يخلوان من الإشارة إلى أسماء نظير هذه...

أما الأديرة السريانية الخاصة بالراهبات، فقد انتشرت أيضاً منذ القرن الخامس للميلاد. ولعل أشهرها ما أقامته الملكة هند ابنة الملك العربى النعمان ابن المنذر ملك الحيرة (٥٨٥ - ٦١٣) والذى أشار إليه كثرة من الكتّاب العرب.

نقول فى خاتمة هذا الفصل، إنه إن كانت معظم الأديرة السريانية قد اندثرت، وعفا عليها الزمن، وتحولت إلى معامل لتقطير النبيذ، فإنها قد لعبت فى زمانها، دورها المجيد فى نشر المعرفة، وإحياء العلوم. ومع أن بعض الرهبان اختاروا حياة العزلة فى الكهوف، والجبال أو فوق الأعمدة، إلا أن تلك الأديرة استمرت فى أداء رسالتها بمواقعها الحصينة، وبناياتها التى تشبه القلاع. وخلف الجدران. كانت تضم الكنائس والمكتبات،والمخابز، والمخازن ومعمل التقطير، وحظائر الماشية، والحدائق، وقلايات الرهبان. كان كل دير وحدة متكاملة، تتيح الفرصة للراهب، والمتعبد، والباحث، ليحيا، ويعمل ويترجم، ويؤلف وكان أكثر الرهبان علماء أسهموا بالخير الكثير فى مجال المعرفة ورقى الإنسانية.

وسوف نعرض فى الفصل القادم لجانب من خدماتهم، فى مجال ترجمة الكتاب المقدس...

الفصل الثامن

السريان، وترجمة الكتاب المقدس

نسنطيع أن نقول بوجه عام إن الأدب السريانى، عدا الترجمات من اليونانية، هو أدب مسيحى. أما أدب ما قبل المسيحية، فقد انتهى واندثر. والأدب السريانى كما يقول «رينان»، لا نلمس فيه ما يميزه عن سواه. فهو لا يتسم باللهيب الشاعرى الذى تميز به الأدب العبرانى القديم، أو الآداب العربية. ولم ينبغ بين السريان من يُشار إليه بالبنان، فى الحرب، أو فى الفن، أو فى العلوم. كل ما تميز به هؤلاء هو أنهم كانوا تلاميذ الإغريق. فكانوا يتمثلون ما يدرسون من الأدب اليونانى، ويقدمونه لإخوتهم دون إضافة أو تحسين. نقول إن بين السريان لم ينبغ واحد نظير الفارابى، أو ابن سينا، أو ابن رشد. وأن أديسا، ونصيبين، لم تقدم للتاريخ شخصيات لها مكانتها. ومع ذلك فإن للسريان أسبقية الفضل على سواهم، فى توصيل العلوم اليونانية إلى العرب.

على نفس القياس نقول إن الكنيسة السريانية لم تنبغ بينها شخصيات نظير يوسابيوس، وباسيليوس، وذهبى الفم. ولكننا نشكر لها الجهد الدائب الذى قام بنقل تراث الكنيسة اليونانية، وعرفنا بكتابات الآباء هناك. وحتى أولئك المؤرخون المتواضعون من السريان، مثل يوحنا الأفسسى وبارهيبرايوس، يستحقون منا المديح والثناء. لأننا بدون كتاباتهم، ما كان ممكناً لنا أن نتتبع تاريخ فرعين من الكنيسة الشرقية. أو نعرف الظروف السياسية التى عاصروها.

حيث أن الأدب السريانى يبدأ بالكتاب المقدس، لذلك فمن الملذ لنا أن نعرض لمجهودات السريان فى مجال ترجمة الأسفار الإلهية...

وأهم هذه الترجمات هى «البشيتا» أو الفولجات السريانية ونظير اسمها تعنى

البسيطة وقد عرفت البشيتا وساد استخدامها منذ القرن التاسع الميلادى. ويرجح أن تاريخ هذه الترجمة يرجع إلى القرن الثانى، وأنها من أعمال الآباء السريان فى أديسا، (الذين عرفوا فيما بعد بالنساطرة) وجلهم من اليهود المتنصرين. وربما اشترك أيضاً فى هذا العمل البعض من علماء اليهود أنفسهم لأن بعض الأسفار، مثل أيوب، وأسفار موسى، نجد ترجمتها حرفية، مع أن الأسفار النبوية نلمس فيها مجهودات المسيحيين فى النقل عن الترجمة السبعينية. أما الحديث عن صلة بين علماء اليهود والمسيحيين فينبغى ألا يدهشنا حينما نذكر أن الآباء السريان مثل يعقوب السريانى فى أواخر القرن السابع، كانوا يستشيرون علماء المجامع اليهودية، ويرجعون إليهم شأنهم شأن الأب جيروم، فى ترجمة الفولجات اللاتينية..

أما إلى أى مدى روجعت هذه الترجمة، وكم من المرات فإننا لا نستطيع أن نجزم تماماً. ولكن من المحتمل أنها روجعت بين حين وآخر، لتطابق الترجمة السبعينية، وهو ما يتضح فى أسفار الأنبياء.

أما الأسفار القانونية التى تتضمنها البشيتا، فهى نفس الأسفار المتضمنة فى التوراة العبرية. ففى الأسفار المعروفة بالمازورة، سواء بين النساطرة، أو بين اليعاقبة، نجد أسفار الأحبار، وعزرا، ونحميا، قد أسقطت. وأسقط زيادة عليها بين النساطرة سفر استير. ولكن من الجانب الآخر نرى أن كافة هذه الأسفار قد اقتبس منها أفراتس السريانى فى القرن الرابع. أما الأبوكريفا فهى كما وردت فى الأسفار العبرانية. وهى تتضمن «الحكمة» و«رسالة إرميا»، ورسالتى «باروخ»، و«نشيد الثلاثة فتية» و«بعل التنين»، و«سوزانه» و«يهوديت» وسفر «الجامع» و«رؤيا باروخ» و«السفر الرابع لابن سيراخ» و«أسفار المكابيين». وفى نسخ أخرى نجد مضافاً إلى ذلك «السفر الأول والثالث لابن سيراخ» و«سفر طوبيت» و«صلاة منسى».

أما الأسفار القانونية للعهد الجديد في البشيتا فهى الأناجيل الأربعة، وسفر الأعمال، ورسائل بولس بكاملها يُضاف إليها ثلاث من الرسائل الجامعة وهى رسالة يعقوب، ورسالة بطرس الأولى، ورسالة يوحنا الأولى. ولقد أسقطت الكنيسة السريانية الرسائل الجامعة الأقصر وهى يوحنا الثانية والثالثة، وبطرس الثانية، ويهوذا. كما أسقطت أيضاً رؤيا يوحنا.

أما عن نسيج الأناجيل فى «البشيتا» فان أكثر من سؤال يعرض لنا فى دراستنا لصلتها بعملين آخرين قام بهما السريان: الأناجيل الكيروتنية، والدياطسرون أى الرباعى لططيانوس. ولقد كان ططيانوس صديقاً ليوستنوس الشهيد، واعتبر هرطوقياً بعد ذلك. وقد صنف الرباعى، أى مزيج الأناجيل، أو الأناجيل الأربعة فى واحد وما تزال تتضارب آراء العلماء حول ما إذا كان ططيانوس قد كتب الرباعى باليونانية، أم من ترجمة سريانية سابقة للبشيتا. ويؤكد البعض أن لغة الكاتب سريانية ومصادره يونانية.

ولقد ذاع استعمال الدياطسرون فى الكنيسة السريانية مدة قرن كامل من الزمان. ولكن حوالى عام ٢٥٠ م بتأثير انتشار الأصل اليونانى فى كنائس الغرب، غزت كنائس السريان نسخ الأناجيل المنفصلة التى عرفت باسم الأناجيل الكيروتنية، والتى يعتبر البعض أنها الأثر الوحيد الباقى حتى يومنا الحاضر. ويختلف العلماء فيمن هو السابق، إن كان ططيانوس قد صنف عن ترجمة سريانية للأناجيل أو إن كانت الأناجيل المفردة قد اعتمدت على الرباعى - الشىء المهم أن الرباعى ذاع ذيوعاً عظيماً فى الكنيسة الأولى. وإننا نجد أفراتس يقتبس عنه. وأفرايم السريانى يكتب تفسيراً له. وفى كتاب «عقيدة تداوس» أو عادى، وهو عمل من القرن الرابع، يرجع الكاتب به إلى العهد الرسولى. على أننا نجد «رابولا» أسقف أديسا (٤١١ - ٤٣٥) يصدر أمراً بأن «على الكهنة

والشمامسة أن يهتموا بأن تحتوى كل كنيسة على نسخة من الأناجيل المنفصلة وأن تقرأ فى الكنائس». أما ثيودوريت أسقف كورس (٤٢٣ - ٤٥٧) فقد انتزع من الكنائس التى فى دائرته، مائتى نسخة من الرباعى، وأحل محلها الأناجيل الأربعة. ولقد كان من نتيجة هذا، ومن نتيجة أعمال مماثلة، أن اختفى كل أثر للنسخ السريانية للدياطسرون، ولم يصل إلينا منها شيء....

أما النسخة العربية التى عنيت بنشرها دار الكنيسة الأسقفية للنشر والتأليف بالقاهرة، فهى مأخوذة عن ترجمة عربية للأصل السريانى قام بها أحد النساطرة عام (١٥٤٣ م) ويدعى أبو الفرج عبد الله بن الطيب، عن نسخة سريانية نقلها أحد تلاميذ حنين بن إسحق.

وفى مستهل القرن الخامس للميلاد، جاء دور (رابولا) أسقف أديسا وصديق كيرلس الإسكندرى، ليسهم بدوره فى ترجمة العهد الجديد عن اليونانية إلى السريانية. بمعنى أن العمل الذى قام به جاء بعد مراجعة دقيقة للترجمة السريانية على الأصل اليونانى الذى فى حوزته.وربما كان ذلك من أثر اتصاله بكيرلس الإسكندرى بابا الإسكندرية.وأننا لا نستطيع أن نعرف ما إذا كان هذا مجرد عمل فردى - ولو أنه من المحتمل أنه كان الخطوة الأولى فى عمل أكمل عُرف باسم الترجمة الفلكسونية.

على أن اليعاقبة السريان، أو القائلين بالطبيعة الواحدة، لم يكتفوا بالفولجات السريانية أو البشيتا، وأرادوا أن يكون لهم نصهم الخاص الذى يستخدمونه فى كنائسهم، والذى يتفق بأكثر دقة مع النص اليونانى...

وهذا العمل قام به الأسقف فلكسينوس (٤٨٥ - ٥١٩). بمعاونة مساعده بوليكاربوس. واستطاع الاثنان أن ينتهيا فى عام (٥٠٨) من ترجمة كاملة للكتاب المقدس. ولقد قوبل هذا العمل بالارتياح فى بادىء الأمر. ولقى أكثر من

مديح وثناء من الآباء. ولكن لم يمض قرنان من الزمان، حتى عادت الرغبة تساور المونوفزتيين لترجمة أخرى جديدة. قام بها الأسقف توما هرقل الذى أقيل من منصبه، فلجأ إلى مصر، واعتزل فى دير الأنبا أنطونيوس وقام بتنقيح كل أسفار البشيتا مضيفاً عليها الرسائل الأربع القصيرة التى حُذفت منها.

وبعد قرن آخر من الزمان، كانت آخر محاولة لتنقيح أسفار العهد القديم فى الكنيسة المنوفزتية، وقد قام بها الأسقف يعقوب من أديسا (عام ٧٠٤). وقد بقى من هذا العمل خمس نسخ، اكتشفت أربع منها فى أديرة وادى النطرون.

ولن نعرض للترجمة التى قام بها الملكيون والتى كتبوها بلهجة آرامية قريبة الشبه بلغة المترجم اليهودى أكثر من البشيتا السريانية. والتى تضم مكتبة الفاتيكان بعض النسخ منها. فهذا خارج نطاق بحثنا. أما النساطرة فقد التزموا بنص البشيتا. ولم تفلح أية محاولة فى إدخال أية ترجمة أخرى إلى كنائسهم، ولو أنه يقال إن هناك محاولة للترجمة عن اليونانية قام بها المدعو مار «آفا» وهو زرادشتى اعتنق المسيحية. وقد ذهب إلى أديسا حيث درس اليونانية على يدى معلم يدعى توما.ثم اشترك معه فى نقل الكتاب المقدس بعهديه إلى السريانية. وهى، حقيقة يؤكدها كثيرون من الكتاب القدامى مثل عبد عيشو أسقف نصيبين (١٣١٨). وبار هيرايوس، وغيرهما.

ولا بأس فى ختام هذه الكلمة أن نثبت ما جاء فى رسالة كتبها وليام رايت الأستاذ الأسبق للغة العربية فى جامعة كامبردج يقول: «لقد كانت سوريا غنية بمدارسها، وجامعاتها. وكانت منتشرة فى أكثر مدنها. وكان التعليم فى أغلبه، يصطبغ بصبغة لاهوتية. لتعليم طلابها كيف يقرأون ويفسرون أسفار الكتاب فى اليونانية، والسريانية شأنهم فى ذلك شأن المدرسة الفارسية فى أديسا التى كان يشرف عليها النساطرة، والتى خُربت عام ٤٨٩. وهكذا كانت مدرسة نصيبين

وغيرها. بل إن الأديرة نفسها تحولت إلى مدارس مثل دير قونه، ودير غبرائيل فى الموصل. وكان لكل من هذه المدارس أساتذة يعلمون الطلبة المبتدئين النطق والتشكيل والدراسة الأولية قبل أن ينتقلوا إلى المراحل الأعلى ليتتلمذوا على أيدى المفسرين، وعلماء اللاهوت. ولقد قام أولئك بجمع الكلمات الصعبة والجمل العسيرة فى الكتاب، لتكون «الكاتوبا ذاكرياتا» أو كتاب المذاكرة، حيث أضيفت إليها الأصول لنطقها ودراستها، ويضم المتحف البريطانى عينات من هذه».

وهذا ولن نستطيع، فى هذه العجالة، أن نلم بكافة تفاصيل مجهودات السريان، سواء كانوا نساطرة، أم يعاقبة أم ملكيين، ونستطيع أن نضم إليهم أجداد الموارنة سكان الجبل - لن نستطيع أن نلم بما قاموا به من إسهامات فى مجال الأدب المسيحى والتفسير، والدراسات الكتابية ويكفى الإشارة إلى واحد من الرعيل الأول، هو أفرايم السريانى المتوفى عام (٣٧٣ م) والذى كتب فى كل فرع من المواضيع اللاهوتية، من تفسير الكتاب إلى العظات، إلى الترانيم التى قدمها فى مختلف صور النظم، إلى تفسيره للدياطسرون إلى مقالات دفاعية ضد كتابات الفلاسفة الوثنيين، والهراطقة مثل يوليانوس المرتد، إلى دواوين شعرية. وجلها تدور حول حياة المسيح، والمناسبات المقدسة والأعياد. وقد تُرجمت كتاباته إلى اليونانية، والأرمنية،والقبطية، والعربية. كما إلى اللغة الأثيوبية.

ونعتذر عن الاسترسال فهدفنا هنا توجيه الأضواء على المنابع والحقبة الأولى من تاريخ المسيحية.

الفصل التاسع

عصر الانحلال، ووفود الإرساليات

قبل الفتح العربى لسوريا والشرق الأوسط، كانت الكنيسة اليعقوبية، شأنها شأن الكنيسة النسطورية قد أصبحت غير قانونية، وكهنتها غير معترف بهم. الكنيسة الوحيدة التى أقرها البيزنطيون كانت اليونانية الملكية. وبطريركها فى أنطاكية كان البطريرك الوحيد المعترف به من الإمبراطور البيزنطى، وشأن يعقوب البرادعى، كما رأينا فى فصل سابق، كان المنوفزتيون يُطاردون فى كل مكان، ويُقبض عليهم، ويُزج بهم فى السجون ولكن حينما أتى العرب، تغير الحال بالكلية.

أما العرب فما كانوا يعرفون فى تلك الأوقات شيئاً عن الخلافات الطائفية بين المسيحيين، ولو أنهم كانوا يعرفون أنهم «أهل الكتاب» لهم ما لهم وعليهم ما عليهم. وأنهم تحت الرعاية أو الوصاية، طالما يلتزمون بدفع الضرائب ويعيشون فى سلام مع الغزاة، ولا يتدخلون فى المعتقدات الاسلامية. والضرائب نوعان: الخراج أو ضريبة الأرض والممتلكات ويدفعها المسيحى والمسلم على السواء، والجزية ويدفعها المسيحيون ثمناً للإعفاء من الجندية، وقد كانت فى الأصل ديناراً ذهبياً عن كل رأس. وكان على الجميع دفع الجزية حتى النساء والأطفال. ولم يعف منها الرهبان والكهنة.

وهكذا فالسريان جميعاً يعاقبة، ونساطرة، وأرثوذكس أصبحوا جميعهم تحت الالتزام الواحد، والامتيازات الواحدة أيضاً... ولا ننكر أن اليعاقبة على وجه الخصوص، تنفسوا الصعداء تحت الحكم الإسلامى، أكثر مما كانوا تحت سلطان إخوتهم البيزنطيين. ولا ننكر أيضاً أن الحقبة الأولى للحكم الإسلامى - تميزت

بالتسامح، والعدالة يشوبهما الاحترام من قبائل بدوية بدائية، تدخل إلى دوائر علم ومعرفة، وتريد أن تفيد منها قدر المستطاع، على الرغم من التباين فى العقيدة. هذا الموقف السليم يفسر لنا المراكز الرفيعة التى سما إليها اليعاقبة والنساطرة، فى قصور الخلفاء، الراشدين. زد على ذلك أن العرب قد وحدوا بين سوريا، والعراق، وبلاد فارس، تحت حكم واحد. وهكذا أزيلت الحواجز والفوارق التى كانت قائمة فى عهود البيزنطيين، وفتح الطريق أمام إرساليات اليعاقبة إلى مناطق سحيقة فى البعد كانت، فى الماضى، وقفاً على النساطرة فقط. صحيح أن اليعاقبة لم يكن لهم نفس نشاط النساطرة الذى تغلغل إلى كافة أقطار الشرق الأقصى، ووسط آسيا، إلا أننا نستطيع أن نقول إن نشاطهم قد تضاعف فى العمل فى العراق، وبلاد فارس بل حتى بين النساطرة أنفسهم. ومن الخطأ أن نظن أن اليعاقبة، ما كان لهم من يمثلهم فى هذه المناطق قبل مجىء العرب. فلقد كانت شيرين زوجة الملك خسرو الثانى (٥٩٠ - ٦٢٨) من اليعاقبة المسيحيين. ومع أنه بوجه عام نقول إن النساطرة كان لهم النفوذ الأكبر بين حكام فارس، وفى قصور خلفاء العرب، إلا أننا نؤكد أن الوضع الجديد لكنيسة سوريا أعطاها الجو المناسب للازدهار والنشاط والاتساع خلف حدود فارس، حتى جاء الصليبيون، وانقلب وضع السلام فى الشرق الأوسط وبدأ عصر انحلال الكنيسة، وهبوب الأعاصير عليها ولا نقول إنه لم تكن هناك عصور اضطهاد قبل ذلك ولكن الصليبيين كانوا العنصر الحاسم الفعال فى انتهاء روح المهادنة الأولى، مما أدى إلى تدهور كنائس المشرق حتى أن القرون الوسطى المتأخرة، شهدت نهاية حيويتها، وأمجادها، فاختفت مدارس الشرق اللاهوتية، وانتهى عهد الأدب السريانى وأمجاده. وبقيت القلة الباقية تعيش على ذكريات الماضى.

على أننا نخطىء التقدير إذا كنا نظن أن عصر الصليبيين كان بداية عصر

التدهور بالنسبة للمسيحية فى الشرق بصورة عامة، والكنيسة السريانية بوجه خاص. فقد كان هناك عنصران آخران فى الكيان العربى نفسه، انتهيا إلى تغير المعاملة بين العرب، وبين المؤسسات المسيحية التى تخضع لسلطانها.

وأول هذين العنصرين انتشار التعليم بين المسلمين، وارتفاع مستواه، مما أدى إلى استغناء الخلفاء، ومن أتى بعدهم، عن الاستعانة بالمسيحيين. وإننا لنجد نتيجة لذلك، استغناء وإقالات جماعية للمسيحيين من الوظائف الكبرى، فى عهد الخلفاء والسلاطين وإحلال آخرين من المسلمين فى أماكنهم لا لسبب ظاهر إلا الدين.

أما العنصر الثانى فيكمن فى قلب الكيان الحاكم، إذ بدأ يظهر على مسرح السياسة كيان جديد غير عربى، يتزايد قوة جيلاً بعد جيل، ويفرض سلطانه على مجريات السياسة الإسلامية، ويطوى فى كيانه السلطة الشرعية العربية الحاكمة. ولقد بدأ ذلك التطور الجديد منذ عصر الخليفة المعتصم، وهو ابن هارون الرشيد من جارية تركية (٨٣٣ - ٨٤٢). هذا الخليفة رأى عنصراً مناوئا له فى جنود المسلمين فى خورسان، ممن كانوا يتمسكون بالخلافة العباسية. فأراد أن يقف فى وجه هذه القوى، بإحاطة نفسه بحرس قوامه أربعة آلاف جندى استحضرهم من تركيا، ومن وسط آسيا لحمايته. ولكنه لم يحسن التقدير. فحتى فى حياته أصبح أولئك قوة كبيرة تفرض سيطرتها على مجريات الحكم وتحد من سلطان الخليفة، حتى أنه اضطر إلى نقل عاصمة خلافته إلى شمال السامرة على نهر دجلة، وما أن كانت نهاية القرن الحادى عشر، حتى انتزعوا لقب السلطان من الخلافة التى أصبحت مجرد صورة، واسم لا غير. ونظير البربر، قبيل سقوط الإمبراطورية الرومانية، بربروا » الخليفة بجهلهم. أما عن اضطهادهم للمسيحيين، وسطوهم على قوافل الحجاج، وإعمال القتل والسلب، فالمجال لا يتسع لذكرها. كل ما نستطيع

أن نقوله إن أمثال هذه الأحداث، كانت الشرارة التى ألهبت قلوب المسيحيين فى الغرب، وعجلت بالحروب الصليبية.

ولقد كان لليعاقبة من الاضطهاد النصيب الأكبر، حين استتبت أسباب السلطان لهذه الفئات، وكونوا سلطنة السلاجقة. وبدأت المراسيم والقوانين التى تحد من حرية المسيحيين، تتوالى، وتوقع عليهم كل أسباب الظلم، حتى أننا نستطيع أن نعتبر القرون الثلاثة منذ القرن العاشر إلى الثانى عشر - عصر انحلال المسيحية السريانية، وانتهاء الأدب السريانى... وإننا لننظر، خلال هذه القرون عن اسم يلمع هناك. فنجد واحداً باسم «يوحنا بن مارون» (المتوفى عام ١٠٠٣) وراهب فى دير غبوس، يلقبونه بمحيط العلم. وكل ما قدمه بحثاً نقله عن أمثال سليمان. ثم هناك المدعو مرقس باركيكى الذى رقى إلى رتبة الأسقفية باسم أغناطيوس. ثم اكتشفت الكنيسة سوء سلوكه فطُرد، وترك المسيحية.وثالث هو البطريرك يوحنا العاشر (١٠٥٨) الذى شغل جل أوقاته فى مناقضة مع الأرمن حول استخدام الخمير، والزيت، والملح فى خبز المناولة ثم كان عصر أغناطيوس، الذى بعد وفاته بعام واحد (١٠٩٥) هاجم الأتراك بلدة متينا، وذبحوا خلفه الأسقف يوحنا، مع الألوف من اليعاقبة.

واستمر عقم الكنيسة اليعقوبية، وانطفاء شعلة الأدب السريانى حتى منتصف القرن الثانى عشر، حين لمعت ثلاثة أسماء هناك هم: ديونسيوس بارصليبى، وميخائيل السريانى، وبارهبرايوس.

أما ديونسيوس، فقد كان أسقفاً على ديار بكر حيث بقى فى منصبه إلى سنة وفاته (١١٧١). وتضم أعماله موضوعات كثيرة متنوعة منها تفاسير مطولة لأسفار الكتاب، وشروحات لكتابات الآباء، مع قاموس فى اللاهوت،والعديد من النبذ العقائدية عن القانون النيقوى. كما قاوم كل بدعة، من النساطرة إلى

الخلقدونية شارحاً أصول الإيمان المنوفزيتى، ومدافعاً عنه.

وفى مجال الفلسفة كتب شروحات لأرسطو. أما أشعاره فتقدم لنا صورة حية للأحداث التى عاصرها والتى مرت بالكنيسة آنذاك. لذلك لا غرابة أن يلقب بنجم القرن الثانى عشر فى تاريخ اليعاقبة.

أما ميخائيل السريانى، فقد وُلد فى نفس البلدة التى وُلد فيها ديونسيوس -بلدة مليتين- عام ١١٢٦. وانخرط فى سلك الرهبنة فى سن مبكرة، فى دير الأنبا برسوما القريب من بلدته... وبعد وفاة بطريرك اليعاقبة أثناسيوس الثامن، انتخب بطريركاً ولم تتجاوز سنه الحادية والثلاثين. وعلى الرغم من أن فترة رئاسته كانت فترة عاصفة، لأنها كانت فترة الحرب الصليبية الثالثة (١١٨٩ - ١١٩٢)، وفترة حكم صلاح الدين، وفترة تغلغل نفوذ اللاتين فى الشرق الأوسط،ومقاومتهم للمنوفزتيين، إلا أنه استطاع أن يقدم للكنيسة الكثير من المؤلفات. ولعل أهمها تاريخه التتابعى، الذى بدأه منذ بدء الخليقة، وانتهى به إلى السنين والأحداث، التى عاصرها ،واعتمد فى تصنيفه[1] على مراجع ووثائق معظمها لا وجود له الآن. وقد ختم تاريخه هذا بتذييل عن كنائس المشرق، مركزاً الأضواء على سلسلة بطاركة اليعاقبة وأسمائهم وتواريخهم.

أما النجم الثالث بارهبرايوس، فهو، كما يشير اسمه، يهودى الأصل،ولد فى مليتين أو مليطة عام (١٢٢٦) ومات فى أذربيجان عام (١٢٨٦). وقد اعتنق المسيحية وأصبح واحداً من أعاظم رجال الكنيسة اليعقوبية.

وأهم ما يرتبط به تواريخه الثلاثة التى كتبها «تاريخ السريان» و«التاريخ الكنسى»[2] وما يمكن أن نطلق عليه «تاريخ العرب» كتبه بالعربية بعنوان

---

(١) تاريخ ميخائيل السريانى نشرت له ترجمة فرنسية.

(٢) أربعة مجلدات، فى مطلع القرن الحالى، فى باريس.

«مختصر تاريخ الدول».

أما فى مجال التفاسير الكتابية، فقد قدم لنا تفاسير للأسفار المقدسة، ضمنها اقتباسات من تفاسير كافة الآباء الذين سبقوه، من أثناسيوس، وباسيليوس، إلى موسى بارصفا، ويوشداد النسطورى، ولقد كانت له المقدرة التامة على الكتابة بالعربية الفصحى، كما بالسريانية.ولكننا نقول إنه ما أن حلت نهاية القرن الثالث عشر، حتى وجد الكتّاب السريان، أنه لا داعى للكتابة بعد باللغة السريانية. فأصبحت كافة المؤلفات باللغة العربية....

ولقد عاصر بارهبرايوس أهوال الغزو المغولى. وكتب باستفاضة واصفاً أحداث ذلك الغزو. ولكن المسيحيين فى العصور الأولى للمغول كانوا يتمتعون بالكثير من الحرية، وسُمح لهم بإعادة بناء كنائس وغير ذلك. فلقد قيل إن هولاكو فاتح بغداد، كانت له زوجة مسيحية وإننا لنجد بار هبرايوس بعد وفاة هولاكو، يعنيه وينعى زوجته كأنما هما بطلان من أبطال المسيحية. ولكن على الرغم من ذلك، ينبغى أن ندرك أنه فى خلال الحروب، والفتوحات، لا يفرق السيف بين واحد وآخر. وأن الاضطهاد لا يتوقف عند قرار حاكم أو ممالأة من يجلس على عرش السلطان لفئة ما. لكننا نستطيع أن نقول إن الفترة الأولى لحكم المغول كانت هادئة بالنسبة للمسيحيين، وعلى الأخص اليعاقبة... حيث سُمح لهم، دون حدود أو قيود مزاولة مراسيم العبادة، وإعادة بناء الكنائس فى بغداد ودمشق.

ولكن الحال لم تدم طويلاً. فقد تغير المغول عن سياسة المهادنة مع المسيحيين. فقد فضل «غازات» حاكم المغول، اعتناق الإسلام،وجعله دين الدولة الرسمى عام (١٢٩٥).

وهكذا ما أن بدأ القرن الرابع عشر، حتى بدأ الاضطهاد المنظم وكان ظهور تيمورلنك على مسرح السياسة والحكم عام (١٣٩٤)، قمة المأساة للجميع -

مناطق كاملة بعقوبية في صبغتها وسكانها، مثل ديار بكر، ومردن، وثور عابدين، وتكريت، وغيرها، عصفت بها جحافل المغول المسلحة. وكان اليعاقبة يطاردون فى الجزيرة، وشمال العراق، ويذبحون ذبح النعاج. أما الذين استطاعوا الإفلات من أيدى البرابرة، فكانوا يهربون إلى الجبال. ويختبئون فى المغاور ليعودوا، بعد أن تهدأ العاصفة، فيجدون منازلهم، وكنائسهم، وأديرتهم، قد سويت بالتراب. وإلى هذا التاريخ يمكننا أن نعود لنبدأ بقصة اختفاء الأديرة السريانية بكاملها، بل لنبدأ بقصة اختفاء الأدب السريانى من مسرح الوجود، حيث انطفأت بأيدى البرابرة هذه المنارات التى كانت تشع بنور العلم والعرفان، على الشرق بأكمله وأحرقت جميع المخطوطات والكتب الأثرية التى لا تقدر بثمن.

وليت الأمر قد انتهى عند هذا الحد، فقد دب الانقسام بين الكهنة، وعلى حد تعبير الدكتور عزيز سوريال عطية «لقد كانوا أصحاب نفوس وضيعة». أما مركز البطريرك، فقد كانت تدبر له المؤامرات، وقد تدور حوله المساومات، ويحاول الوصول إليه أشخاص غير أكفاء. وشيئاً فشيئاً ابتلعت الرعية فى هذا المحيط الخضم، وتلاشت الكنيسة العريقة، أو كادت.

ثم جاء دور السلاجقة بعد ذلك. ومن بعدهم الأتراك الذين ألهبت صدورهم بالحقد حملات الصليبيين وشملت إمبراطوريتهم، آسيا والشرق الأوسط، وشمال أفريقيا وكانت سياسة الباشا الحمقاء، تهدف إلى زيادة خزينة الدولة بكافة الصور. دون اهتمام بصالح الشعوب، ولقد وصل اليعاقبة، مثل النساطرة، فى تلك الأوقات، إلى حالة من الجهل والفاقة لا مثيل لها. وانقرضت جماعاتهم حتى لم يصبحوا سوى أقليات لا يزيد تعدادها، فى القرن التاسع عشر، عن مائة وخمسين ألفاً، تتمركز فى شمال العراق، حول الموصل، وفى سوريا فى حمص. وبالطبع حرصت هذه الأقليات على المعايشة السلمية مع جيرانهم فى سوريا، ومع الأكراد

فى كردستان حتى أنك لن تستطيع أن تفرق بين أولئك وهؤلاء لا فى المظهر ولا فى اللغة. وربما كان هذا هو السبب الذى لم تلاق فيه نفس المصير الذى انتهى إليه النساطرة فى الجبال فى صراعهم مع الأكراد، أو المصير الذى انتهى إليه الأرمن فى صراعهم مع الأتراك. لقد كان اليعاقبة يختلفون عن الأرمن، والنساطرة. فعلى الرغم من كونهم مخلصين لكنيستهم، متمسكين بعقيدتهم، إلا أنهم كانوا يقبلون الوضع الاجتماعى الذى يعيشون فى ظله ويتعايشون فى روح السلام مع جيرانهم، مهما اختلفوا عنهم فى العقيدة بعكس إخوتهم. لذلك لم تمحقهم المذابح فى القرون الأخيرة، التى تعرض لها أولئك وهؤلاء.

نقول، إننا إن كنا قد تتبعنا فى إطار عريض، تاريخ اليعاقبة خلال عصور التاريخ، إلا أن اليعاقبة فى العصور الحديثة لن تستطيع أن تصل إلى إلمامة سريعة بأحوالهم. ويقال إنه فى عام (١٨٣٨) كانت أول علائم اليقظة حينما ألمح بطريرك الأرمن فى لقاء له مع بطريرك اليعاقبة، أن شعباً بدون تعليم لابد وأن ينتهى إلى البوار. وهكذا قام البطريرك بتأسيس مدرسة متواضعة تضم خمسة وعشرين تلميذاً، فى دير الزعفران، يتعلمون السريانية والعربية، والخط وغير ذلك. ولقد حذت حذوها الأربعة أديرة الباقية للسريان. وفى عام (١٩١٤) قام العلمانيون بانتفاضة طلبوا فيها من السلطان أن يشتركوا مع مجلس الطائفة، فى إدارة شئون الكنيسة لوقف التدهور الذى أصابها فى كيانها، وأدى إلى انحياز البعض للكاثوليك من جهة، ولإرساليات البروتستانت من جهة أخرى. وقد تم لهم ما أرادوا. وفى عام (١٩٢٠) رأى البطريرك أنه من الأفضل أن ينقل كرسى البطريركية إلى حمص فى سوريا، نتيجة للاعتداءات والاشتباكات الدموية بين الأكراد والنساطرة، والتى أدت إلى تزايد روح المرارة ضد المسيحيين. ومن هناك يشرف، حتى الآن على الست عشرة أسقفية للسريان المتفرقة فى مختلف أنحاء

العالم، سبع في جنوب الهند، وثلاث في سوريا، واثنتان في العراق، واثنتان في تركيا، وواحدة في مصر، وواحدة في الولايات المتحدة الأمريكية...

فإذا تطرق الحديث بنا إلى الإرساليات، نرى أنها وفدت من جهات ثلاث: من روما، ومن أمريكا، ومن إنجلترا.. ولقد كان الكاثوليك سباقين في هذا المجال شأنهم في كل ميدان. زد على ذلك أن الصلة كانت طيبة بين اليعاقبة وبين روما، على الرغم من عدم اعترافهم بقانون الإيمان الخلقدوني. وكان من الطبيعي أن تتجه الأنظار في الأزمات إلى روما التي لها صلتها بهم، ضمن أسقفيتين أخريين: الإسكندرية، وأنطاكية. ولذلك فما كان مسيحيو الشرق، يترددون، في وقت الحاجة،في إرسال مبعوثين، من جانبهم، لتحسين العلاقات مع روما.

على أن تثبيت أقدام روما في المجتمع السرياني، جاء في منتصف القرن السابع عشر، نتيجة لظروف شاذة فقد اعتنق واحد، يدعى عبد الغالي أخيجان، وهو يعقوبي، الكاثوليكية، وهرب إلى لبنان حيث أرسلوه هناك إلى كلية اللاهوت المارونية في روما لتعليمه... وبوساطة القنصل الفرنسي في حلب، عينه البطريرك الماروني، أسقفاً كاثوليكياً على المدينة باسم الأسقف أندراوس (١٦٥٦). وبمعونة السلطات حوله كما بثقافته ودراسته، استطاع أن يكسب لنفسه أتباعاً. ثم كانت وفاة البطريرك اليعقوبي بعد ذلك. وإذا بالقنصل الفرنسي يبذل أقصى الجهد بالسعي لدى السلطان، ليعينه على كرسي البطريركية ولنستمع إلى ما ورد في كتابات أحد المؤرخين يصف هذا الوضع الغريب:

«لقد أرسل السلطان عام (١٦٦٢) فرماناً مكتوباً بماء الذهب لكل الباشوات بأن يخضع كل السريان في كافة أرجاء الإمبراطورية لسلطان المونسنيور جراند اندراوس البطريرك».

أما البابا أكلمندس التاسع فسرعان ما أسرع بإرسال قراره بتثبيت هذا

الانتخاب (١٦٦٧). وهكذا ولدت البطريركية الكاثوليكية للسريان، ووجد اليعاقبة أنفسهم فى مأزق جديد لم يسبق له مثيل. ولا داعى أن نطيل فى وصف مآسى الصراع مع الوضع الجديد. لكن المال، والإغراء بالتعليم فى جامعة القديس يوسف فى بيروت، والكنائس الفاخرة، استطاعت أن تخلق مجتمعاً كاثوليكياً قوامه خمسة وستين ألفاً. وعلى الرغم من الصعوبات التى لقيها المجتمع الجديد من تعصب إخوتهم اليعاقبة واضطهاداتهم، إلا أن تحوّل أسقف حلب اليعقوبى، عام (١٧٨٣) إلى الكاثوليكية ثبت وضعهم، حتى أنهم استمروا إلى وقتنا الحاضر... ثم جاء دور الإرساليات البروتستانتية فى القرن التاسع عشر.... للعمل. ليس بالذات بين اليعاقبة، بل بين الطبقات الفقيرة والمضطهدة فى الإمبراطورية العثمانية فى الشرق الأوسط. ومهما يكن من أمر تطورها، فقد كان المبدأ الروحى نبيلاً فى بداية الأمر: إيقاظ الكنائس الوطنية القديمة، ودفعها للوقوف على أقدامها، وتنشيطها لرعاية شعبها. ولم يلاق المرسلون الأمريكان فى البداية أى عداء، بل إن اليعاقبة أنفسهم رأوا فيهم حليفاً جديداً، أو على الأقل مناوئاً ومنافساً قوياً للكاثوليك الذين كسروا شوكتهم. لكن روح المحبة تحولت إلى عداء، حينما شاهدوا أولئك المرسلين يؤسسون الكنائس الإنجيلية الوطنية، ويسعون لاختطاف الخراف السمينة من حظيرتهم.

ثم جاء دور الإرساليات الإنجليزية، التى ظهر فى البداية أنها تهتم بتقديم العلم للسريان، دون رغبة فى تحويلهم إلى مذاهبها. ومهما يكن من أمر هذه الإرساليات فقد كانت المحور الذى حرك النار المنطفئة، وأعادها إلى نشاطها، وتأججها إلى حد ما.

والنظام الكنسى بين اليعاقبة له صبغته الخاصة، ولو أنه لا يختلف كثيراً عن نظام الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. فهو يضم الكيان الكهنوتى والكيان الرهبانى

فى إطار واحد. أما أعلى سلطة فى الكنيسة، فقد خُصصت للبطريرك. ويُلقب بقداسة مار أغناطيوس، البطريرك المعظم لكرسى أنطاكية الرسولى ولكل الكنائس اليعقوبية فى سوريا، وسائر المشرق «أما لقب أغناطيوس فيرجع إلى عام (١٢٩٣) حينما أطلق بار وهيب البطريرك على نفسه لقب أسقف أنطاكية وهو الذى استشهد عام (١٠٧) وينتخب البطريرك بواسطة المجمع المقدس، بالاشتراك مع الأساقفة، والشعب ومقر البطريركية حمص. وقد أسلفنا أن كرسى البطريركية كان فى وقت من الأوقات، فى دير الزعفران بالقرب من مردن على الحدود التركية،وأن الاضطرابات التى سادت بين الأكراد والنساطرة، دفعت البطريرك إلى نقل الكرسى إلى حمص. والتصديق على انتخاب البطريرك كان يتم بفرمان من الباب العالى يعطيه كافة الحقوق لحكم أبناء طائفته. وبعد سيامته لا يمكن تنحيته إلا بسبب الهرطقة، أو بناء على تصويت جماعى من الشعب. وعلى البطريرك أن يكون قد بدأ حياته راهباً، ويقبل نذر البتولية للنهاية ويكون مشهوداً له بالقداسة، وحسن السيرة. والقانون الكنسى يمنع من هم فى رتبة الأساقفة أن يرتفعوا إلى مقام البطريركية، غير أن حالات نادرة قد حدث فيها ذلك.

والرتبة التالية للبطريرك بين اليعاقبة يدعونها: «مافريان وكاثوليكوس المشرق» إشارة إلى وضعه قديماً كمشرف على جنوب العراق، وبلاد فارس وما حولها. وقد عُين أول يعقوبى لهذه الرتبة عام (٦٢٨) فى تكريت بأمر البطريرك أثناسيوس الأول. وكان عصره عصراً زاهراً وصلت فيه الأسقفيات إلى خمس عشرة أسقفية فى جنوب العراق، وفارس،وبلاد الأفغانستان، والعربية.

والمافريان له معظم سلطات البطريرك. فهو يعين الأساقفة ويقيلهم. ويقوم بكافة مهام الكرسى البطريركى فى حدود الدائرة التى يُنصب عليها. واحدى صور هذه الوظيفة بارهبرايوس (١٢٦٤ - ١٢٨٦) الذى اعتذر عن الكرسى البطريركى....

ثم يأتى دور المطارنة أو رؤساء الأساقفة وهم من الرهبان أيضاً. وعددهم ستة عشر: سبعة فى الهند، وثلاثة فى سورية، واثنان فى العراق، واثنان فى تركيا، وواحد فى مصر، وواحد فى الولايات المتحدة الأمريكية. أما رؤساء الأديرة فيحملون لقب الأساقفة. وكل ما تبقى من الأديرة لليعقوبيين، بعد العواصف التى عصفت بهم خمسة أديرة، ولكن لا توجد أديرة للراهبات. ومن بين رهبان هذه الأديرة ينتخب الأساقفة، ورؤساء الأساقفة كما أسلفنا. وأقل سن للأسقف ٣٥ عاماً...

أما الكهنة فيُسمح لهم بالزواج مرة واحدة قبل أن يكرسوا للخدمة الدينية. فإذا ماتت زوجة الكاهن، لا يجوز له الزواج مرة أخرى. كما هو المتبع فى الكنيسة القبطية.

وهناك من يلقبون بالكهنة العلمانيين فى القرى. لا توجد لهم كنائس معينة، ويعيشون على الهبات والتبرعات.فإذا ماتت زوجة الواحد، عليه أن ينسحب إلى الدير. وكبير الكهنة فى مدينة كبرى وله معاونوه من الكهنة، لا يمكن أن يرتقى إلى رتبة خور أسقف، بمسئوليات الأسقف الكنسية والمدنية. وتحت حكم العثمانيين، كان الكهنة يعفون من بعض الضرائب، والخدمات. ولذلك فقد كانت الخدمة الدينية مرغوباً فيها، حتى زاد عددهم عن حاجة الأبرشيات.

والكاهن اليعقوبى، فى الغالب، فقير، لا يكاد يكفى نفسه بما يصله من راتب أو هبات. ولذلك يضطر إلى العمل فى الحقول وما شابه. وينتخب أهالى الأبرشيات كهنتها من بين الشمامسة.ويقوم الأساقفة بتكريسهم بوضع الأيدى. والكهنة يحلقون رؤوسهم، ويطلقون لحاهم. والرتب العليا تتميز بشكل العمامة المقبية... وبعد الكهنة تأتى الرتب الأقل: (المزمورانو) أى المرنم، و(القورابو) أى القارىء، ومساعد الشماس، والشماس (ماشمشونو) ورئيس الشمامسة.

أما الشماسات فى الكنيسة اليعقوبية. فقد كانت رتبة موجودة فى العصور الأولى، لمعمودية البنات والسيدات، ولكنها انتهت ولم يعد لها أثر، بعد أن اعتنقت الكنيسة مبدأ معمودية الأطفال،وتثبيتهم..... وإننا نستطيع أن نقول، بصفة عامة، إن تاريخ بطاركة اليعاقبة لا تشوبه شائبة. هناك حالة واحدة تذكر، فى أواخر القرن التاسع عشر، لأحدهم ويدعى أغناطيوس عبد الله ستاتوف، الذى قام بزيارة إنجلترا، وجنوب الهند وتأثر بالبروتستانتية، فأراد، عند عودته تحطيم الصور والأيقونات. وثار عليه الشعب.وإننا نجده بعد ذلك عام (١٨٩٦)، ينحرف فجأة إلى طائفة الموحدين ويبقى تسع سنوات كاملة بينهم. ثم يثوب إلى رشده، ويعود إلى طائفته، وإلى مركزه.

عدا هذه الحالة، لا نجد أى انحراف فى الكرسى الحاكم بين اليعاقبة...

الجزء الثالث

النساطرة

الفصل العاشر

النساطرة، شعب يسكن وحده

من هم النساطرة ذلك الشعب الغريب؟ وإلى أى جنس ينتمون؟. ما هى السطور الأولى فى تاريخهم؟ وكيف كانت نشأتهم؟ وهل من صلة بين العبرانيين، وبينهم؟ وهل هم حقاً بقية أسباط إسرائيل العشرة التى لم تعد من السبى، وبقيت فى أشور؟.

ولماذا أطلق عليهم هذا اللقب؟ هل أخذوه عن الأسقف المبتدع نسطوريوس الذى أدانته كنيسة القسطنطينية عام ٤٣١ بتهمة الهرطقة؟. وما هى صلتهم به؟ وهل فى عقائدهم الحالية، ما يشير إلى أنهم من أتباعه حقاً؟... وما هى صلة الكنيسة النسطورية بالكنيسة الرسولية الأولى... وهل حقاً يرجع تاريخها إلى الأيام الأولى لنشأة المسيحية؟ وهل من بين من زرع البذور الأولى فى تربتها، ملوك المجوس؟ وهل كان من دعاة المسيحية الأولين هناك الجماعات الساكنة ما بين النهرين فى يوم الخمسين بعد صعود المسيح الذين كانوا فى أورشليم فى ذلك الحين؟ ثم ما هى الملامح المميزة فى سطور تاريخهم الطويل؟ وإلى أى مدى نستطيع أن نقول إن أرضهم قد تخضبت بدماء الشهداء والقديسين؟ شأنهم شأن سواهم؟

وماذا كان إسهامهم فى مجال العمل المرسلى؟ وهل كان لهم النصيب الأوفر فى رفع مشعل الإنجيل فى ربوع آسيا والشرق الأقصى؟ تلك أسئلة تضاربت فيها الآراء، وحار المؤرخون. ولكننا بقدر ما نستطيع سنحاول أن نحل ألغازها ونحيط عنها اللثام، خاصة وأن الغرب قد بدأ يفتح عينيه ويتنبه إلى عراقة وأصالة تلك الطوائف المسيحية الصغيرة، ويتابعها بالرعاية الروحية، وبالإرساليات.

نود قبل كل شىء أن نقول، فى شىء من التحفظ، إنه لا توجد كبير صلة، بين

الكنيسة الأشورية، وبين المبتدع نسطوريوس، وإن تلك الكنيسة، إن كانت قد هللت له وارتبط اسمها باسمه، فما ذلك إلا لعقيدة واحدة وقف في وجهها، وقاومها، وكانت السبب في طرده من الكنيسة. وكانت تلك العقيدة هي الباب الذي دخلت منه البدع والهرطقات في كنيسة روما، من عبادة الملائكة والقديسين، إلى تقديس بقايا الموتى، إلى رفع مقام الكاهن إلى رتبة خليفة الله على الأرض، وممثل المسيح في الكنيسة وغير هذه من العقائد التي بسببها ثار أكثر من مصلح، وقامت ثورة الإصلاح الكبرى في القرن السادس عشر..

أما ما عدا ذلك من عقائد نادى بها، فما تبعه أولئك في شيء. وما كانوا من الراغبين يوماً في أن يلتصق اسم نسطوريوس بجماعاتهم وكنائسهم. ولكنه اسم ألصق ظلماً وتحقيراً لهم. وإنك حينما تسألهم: هل أنتم من أتباع نسطور؟ يجيبونك: كلا. نحن أبناء إسرائيل... وهي حقيقة تشهد بها عقائدهم، وبُغْضُهم للتماثيل والصور في الكنيسة، وتقاليدهم الروحية وأعيادهم، وتمركزهم حول أنفسهم في عزلة عن بقية الشعوب. بل تشهد بها حتى ملامحهم - لقد حفظ الله هذه البقية له، خلال الحقب السحيقة التي تمتد جذورها إلى سبعة قرون قبل ميلاد المسيح، شعباً خاصاً «يسكن وحده، ووسط الشعوب لا يحسب»... شعباً على ما فيه من فقر وجهل يسكن في مناطقه الجبلية الحصينة، التي ساعدته، رغم ما أثاره الأعداء من اضطهادات حارقة، على أن تبقى منه البقية الأمينة... الركب التي لم تنحن لبعل، والشفاه التي لم تتدنس بتقبيله...

وكما يقول أحدهم «لقد بكى ذو القرنين لأنه لم يجد بعد عوالم يفتتحها ويخضعها لسلطانه، بعد أن دانت له أقطار المعمورة. ولكنه لم يستطع أن يقهر تلك القبائل الجبلية التي ترعى ماشيتها فوق سفوح جبال أديبنه المتوجة بالثلوج... ولقد حاول بالفعل أن يدفع قواته عبر هذه المعابر الجبلية القاسية، ولكن لم يقدر له

النجاح. ويقال إنه سمع صوتاً من السماء يقول له: إنك لن تدخل إلى قدس أقداس الله».

ولكنك قد تتساءل فلماذا هلك منهم الألوف المؤلفة فى مذابح مروعة أثارها عليهم جيرانهم عبر الأجيال؟ نجيب أن تلك الوديان الجبلية والشقوق الصخرية، ما كانت تستطيع، لا بوضعها، ولا بإمكاناتها أن تستوعب شعباً بأكمله. وهكذا اضطر الألوف منهم إلى النزوح إلى المناطق المحيطة، مثل سهول أوروميا ومدن مادى. وفى تلك المناطق كانت تتصيدهم قبائل الأكراد، تحرق بيوتهم، وتسبى نساءهم وأطفالهم. ولكنهم كانوا يعرفون أن لهم أخوة فى الجبال. وأولئك كانوا حسبما تتيح لهم إمكاناتهم، ينزلون من سفوحهم ليردوا للمعتدى الصاع صاعين.. وكان الأكراد يخشونهم أشد ما يخشون، ويحسبون الحسبان لغاراتهم. وانتقامهم.

والآن ننتقل بالقارىء العزيز لنقدم له، فى سطور سريعة، صورة تخطيطية، هى أبعد ما تكون عن الكمال، عن ذلك الشعب الضائع بين الشعوب، ولكنه غير المضيع بالنسبة لنفسه أو لربه، ولكنيسته.

الفصل الحادي عشر

هل هم بقايا الاسباط العشرة؟

وهذا ما نود أن نثبته في هذه العجالة. ولكننا لا نعني بهذا أنهم هم وحدهم بقية الأسباط الضائعة في الشتات، ولو أن أكثر من قرينة تشير إلى أنهم من سلالات الأسر العبرانية ممن سباهم ملوك الأشوريين قديماً، وحملوهم مع قطعانهم وكل ما لهم إلى هناك. ففي أكثر من بقعة أخرى غير هذه، تستطيع أن نميز جماعات تشير إلى أن الدم العبراني يجري في عروقهم وهذه حقيقة يؤكدها كثيرون. ومنهم البعض من كتّاب النساطرة القدامى...

فهم يتحدثون عن قبائل «اليزيدي» التي تقطن المناطق المتاخمة لنينوى، كسلالة العبرانيين، مؤكدين أنهم كانوا في يوم من الأيام، من أتباع الكنيسة النسطورية. ولكنهم الآن انحرفوا في عبادتهم. فهم يخلطون مع مسيحيتهم ممارسات غريبة يمارسها عبدة النار، مع طقوس وذبائح لا يمكن أن نرجع بها إلا إلى أصل عبراني...

وهناك من الباحثين الاجتماعيين، من يلقبون قبائل اليزيدي بلقب «عبدة الشيطان» ولعلهم وحدهم وسط الشعوب، يتفردون بهذه الصورة. فخوفهم من انتقام إبليس يدفعهم إلي عدم التحدث عنه بروح الازدراء، بل في كثير من الاحترام يلقبونه بسلطان الظلمة، وينادونه برب السماء، وهم على يقين بأن الله الغفور الرحيم، سوف يعفو عنهم يوماً من الأيام، فلا داعي، والحال هكذا للتقليل من شأن ملاك عظيم نظيره، كان له مقامه في يوم من الأيام وسوف يكون!

وليس اليزيدي شعباً صغيراً. إنهم يعدون بعشرات الألوف. ونستطيع أن نلمس فيهم ما يربطهم في الأصل بالنساطرة. فهم يمارسون نظيرهم فريضة الختان

العبرانى فى اليوم الثامن. وتتميز أيضاً فيهم الملامح اليهودية فى كثير من الطقوس، والتقاليد الدينية، فهم يعيدون عيد الفصح اليهودى فى الرابع عشر من شهر نيسان - كما أن نظام الذبائح، والتقدمات لديهم، يمكن أن نرجع به إلى أصل عبرانى...

وليس من المستبعد أن تهاجر قبائل من العبرانيين إلى أماكن بعيدة - عبر نهر الفرات، سعياً وراء الرزق، أو هرباً من الاضطهاد. ويؤكد لنا أحد الرحالة الباحثين، فى لقاء له مع اليهود الهنود ذوى البشرة السمراء، أنه استفسر منهم عن مصير إخوتهم من البقية من الأسباط العشرة. فكان جوابهم إنهم هناك فى أرض الكلدانيين، فيما بين النهرين، وهو نفس المكان الذى حُملوا إليه فى أراضى السبى قديماً. ولكن البعض، كما رأينا هاجر إلى كوشين وراجابور فى الهند، وإلى أماكن أكثر بعداً فى الشرق الأقصى، وتكاثر واستقر به المقام. وليس من المستبعد أن نرجع بأصل الشعب الأفغانى أيضاً إلى مثل هذه القبائل المهاجرة، التى تكاثرت وتزايدت وكونت هذا الشعب المميز فى شمال الهند. ولكن الأمر المؤكد الذى لا يدع مجالاً للشك أن النساطرة هم بالفعل من بقايا سلالات السبى العبرانى القديم...

ولنرجع، فى تأكيد هذه الحقيقة، إلى ما ورد فى سفر الملوك الثانى (١٧: ٦ - ٢٣) هناك نقرأ أنه «فى السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك أشور السامرة، وسبى إسرائيل إلى أشور، وأسكنهم فى حلح وخابور نهر جوزان وفى مدن مادى» وبعد أن يثبت كاتب السفر سبب ذلك، وهو خطية الشعب يقول... «حتى نحى الرب إسرائيل من أمامه كما تكلم عن يد جميع الأنبياء... فسبى إسرائيل من أرضه، إلى أشور إلى هذا اليوم».

ولكن من الأمور التى تدعو للدهشة، أنه قبل أن يسبى الأشوريون بنى

إسرائيل، قاموا بإعداد المنطقة التى سوف يسكنونهم فيها، وكأن هذا كله بترتيب إلهى عجيب. فقد هجموا على سكان تلك المناطق وحاربوهم، وطردوهم من بلادهم. وهذا واضح من خطاب ربشاقى رسول سنحاريب الذى وجهه إلى حزقيا ملك اليهودية (٢ملوك ١٩: ١١ - ١٣)، «إنك قد سمعت ما فعل ملوك أشور بجميع الأراضى لإهلاكها. وهل تنجو أنت؟ هل أنقذت آلهة الأمم هؤلاء الذين أهلكهم آبائى. جوزان وحاران..» وهنا نرى صورة عجيبة لعناية الله وتدبيره لشعبه حتى فى طريق تأديبه لهم. لقد سمح بسبيهم من بلادهم ليطهرهم من ربقة الأصنام، ودفعهم إلى معزل جبلى ليحفظهم من التلوث بشرور الأمم، ونجاساتهم.... لقد كان ملوك أشور، فى حروبهم التوسعية، وإرضاء غرورهم، يتممون مقاصد الله الأزلية... ولمدة أجيال طويلة، حفظ جانب كبير من سلالة العبرانيين فى تلك المنطقة الشمالية من أشور والتى تعرف الآن باسم كردستان، والتى كانت تعرف فى القديم بمنطقة أديبنه، مسكن الأسباط العشرة فى «جوزان، وحاران، ومنطقة حلح» ومنهم تسلسل أبناء الكنيسة النسطورية فى أوقاتنا الحاضرة. ولقد كان أول ملوك الأشوريين، الذين سبوا الأسباط تجلات بيلاصر (تغلث فلناسر). ونقرأ عنه فى سفر أخبار الأيام الأول (٥: ٢٦) أنه سبى الرأوبينيين، والجاديين، ونصف سبط منسى إلى حلح وخابور.. وإلى نهر جوزان إلى هذا اليوم «ثم أتى دور شلمناصر ليسبى البقية ويسكنها فى نفس «حلح، وخابور، وبجوار نهر جوزان وفى مدن مادى» (٢ ملوك ١٨: ١١).

أما خابور فما زال حتى اليوم الاسم الذى يُطلق على النهر الذى ينبع فى وسط مرتفعات أشور...

أما جوزان، فما زال النساطرة حتى اليوم - يطلقون لقب «زوزان» على المرتفعات المكسوة بالعشب والتى تقدم المرعى لقطعانهم.

ومنذ أوقات سحيقة عاش النساطرة، فى عزلة عن العالم المحيط بهم، لا يزاوجون، ولا يتزوجون، ولا يختلطون بمن حولهم.. وفى ديانتهم وفى نظامهم القبلى، كما فى لغتهم، وعاداتهم، نستطيع أن نكتشف كافة اللمسات اليهودية.

ولكن لعل معترض يقول: أليس من الممكن أن الأسباط اليهودية قد ابتلعت وسط الأمم، قبل ميلاد المسيح بمئات السنين؟ وكيف تثبت لنا أنه كان لهم أدنى ذكر فى العصر الرسولى؟ وهل كان يهود أورشليم، والمسيحيون الأولون يعرفون أن لهم إخوة هناك فى أديبنه؟

نجيب أننا لو رجعنا إلى التقرير الذى كتبه لوقا الطبيب فى سفر الأعمال، عن المجتمعين فى يوم الخمسين، لوجدناه يذكر «يهوداً أتقياء من كل أمة على وجه الأرض، ومن ضمنهم يذكر «الماديون والعيلاميون، والساكنون ما بين النهرين». هؤلاء كانوا فى العيد فى أورشليم. وأتيح لهم أن يشاهدوا المعجزات التى اقترنت بحلول الروح القدس على التلاميذ فى يوم الخمسين، فإذا بهم يسمعونهم ينادون ببشارة الإنجيل، بنفس اللغة التى ولدوا فيها. وكذلك لو رجعنا إلى نفس السفر، إلى الأصحاح السادس والعشرين، واستمعنا إلى الخطاب الذى ألقاه بولس أمام الملك أغريباس، فإننا نجده يذكر أنه واقف فى موضع الاتهام، ليحاكم، على رجاء الوعد الذى صار من الله لآبائنا. الذى أسباطنا الإثنا عشر يرجون نواله، ولو كان أغريباس يشك فى هذه الحقيقة، لما ترك هذه الملاحظة تمر بدون اعتراض ولكنه كان موقناً بحقيقة وجود الأسباط..

ولعل أوضح دليل غير هذا وذاك، نجده ضمن كتابات يوسيفوس المؤرخ اليهودى، وفيها يذكر شيئاً عن الملك أغريباس نفسه.. فبعد مرور سنوات أربع على محاكمة بولس أمامه، نقرأ عنه هناك، أنه فى خطاب تقدم به إلى اليهود، محاولاً تسكين ثائرتهم ضد الرومان، يقول لهم «وهل تعتقدون أن إخوتكم

الساكنين عبر الفرات فى أدبينه سوف يهبون لمعونتكم؟ هذا مع العلم أنه قد مر على سبى الأسباط العشرة إلى أرض أشور حتى ذلك الحين، ما يزيد على سبعة قرون كاملة. ومع ذلك نرى الملك يتحدث عن وجودهم كحقيقة واقعة، وكشعب له قوته وكيانه.... فى القرن الأول المسيحى.

ولو رجعنا أيضاً إلى رسالة يعقوب فإننا نجده بكل وضوح يوجهها إلى «الاثنى عشر سبطاً الذين فى الشتات» وغنى عن القول، أن أولئك هم غير اليهود الدخلاء، أو الأمم المتهودين.... وأنهم جنس واضح متميز، وإلا لما كان قد وجه الرسول إليهم مثل هذه الرسالة....

أما فى كتابات الآباء، فإننا لا نعدم أكثر من إشارة إلى وجود الأسباط كحقيقة واقعة.... وإننا لنجد القديس جيروم يذكر الأسباط العشرة كمن يعيشون حتى ذلك الحين، أى فى أوائل القرن الخامس، هناك فى أرض السبى. وفى شروحاته وتعليقاته على كتابات الأنبياء، نجده يشير إلى الأسباط العشرة أكثر من مرة، مؤكداً وجودهم الفعلى وفى ملاحظاته التى كتبها عن نبوات هوشع يقول «إن الأسباط العشرة، يعيشون حتى يومنا الحاضر خاضعين لسلطان ملوك فارس، حتى أن سبيهم لم ينقطع بعد. ومازالوا يسكنون المدن والمناطق الجبلية فى أرض الماديين».

إن الحقيقة التى يؤيدها الواقع والتاريخ، وما يجرى حتى فى أيامنا الحاضرة فى الوقت الذى تفتح فيه إسرائيل أحضانها فى محاولة أن تبتلع كل اليهود بين الأمم، هو أن قلة هم الذين يستجيبون لذلك، بينما الغالبية منهم تتأقلم وتكيف ظروفها المعيشية فى وسط البلاد التى تحيا فيها. وهكذا كان الحال فى القديم فى أوقات الرجوع من السبى. ففى فترة الرجوع مع زربابل نقرأ أن الخمسين ألفاً، الذين عادوا معه من بابل، هم أولئك الذين سباهم نبوخذ نصر إلى بابل.

وحين عاد عزرا إلى أورشليم اصطحب معه ألفين من الرجال. فهل كان أولئك هم مجموع العدد الذى سبى؟ يجيب على هذا السؤال المؤرخ يوسيفوس قائلاً.. «بعد أن أخذ عزرا القرارات من الملك بالرجوع قرأها على اليهود الذين فى أورشليم. كما أرسل منها نسخاً لكل بقية الشعب الذى كان فى أرض سيديا وحينما عرف اليهود تقوى ذلك الملك نحو الله، ولطفه وإحسانه لعزرا، فاضت قلوبهم بالسرور. بل إن كثيرين منهم رجعوا إلى بابل تمهيداً لعودتهم إلى أورشليم. ولكن غالبية أمة إسرائيل بقيت هناك فى أرض الماديين، أى دولة ميديا».

ودولة ميديا تكونت من اتحاد مملكة أشور بمملكة مادى... وهناك بقى يهود الشتات مئات السنين قبل ظهور المسيحية... بل إن وضعهم وتفتحهم، والظروف التى أحاطت بهم، قد أعطتهم الفرصة لقبول رسالة المسيحية بأكثر سماحة من إخوتهم الذين كانوا فى اليهودية فى فلسطين.. علينا أن نفرق بين يهود، ويهود. فيهود اليهودية، أو سلالة السبطين اللذين استقر بهما المقام فى فلسطين كانوا أكثر تزمتاً، وتعصباً، من بقية الأسباط العشرة فى الشتات، الذين تكونت من سلالتهم الكنيسة النسطورية.... وحتى يومنا الحاضر،يؤكد المرسلون بين العبرانيين، أن يهود الأمم لهم من التفتح، والسماحة، ما يجعلهم يقبلون رسالة الحق. أو على الأقل يناقشون نبوات العهد القديم ويتفهمون مضمونها على أيدى أولئك المرسلين... ومن واقع الأمر نرى أن يهود الشتات قبلوا بكل سرور رسالة المسيح، فقد كانوا، كما أسلفنا، فى وضع يختلف فكرياً وثقافياً، واجتماعياً عن إخوتهم فى اليهودية وعلى الأقل لم يشترك هؤلاء فى جريمة صلب المسيح، ولم يهتفوا مع الصارخين: دمه علينا وعلى أولادنا. كما أن وضعهم الجديد قد جعلهم يتفهمون رسالة مصلح عظيم نظير زرادشت، حتى لقد وصل البعض من المتحمسين منهم إلى القول، بأن نبى الزرادشتية كان تلميذاً للنبى إرميا. ولعل ذلك لأنه كان

معاصراً له.... وهناك إشارات فى الزند آفستا تتنبأ بمجىء المسيا، ويدعو فيها زرادشت أتباعه بأن يسرعوا ولا يتباطأوا عند ظهور «نجمه» ليقدموا تعبدهم الخالص لذلك «الطفل السرى العجيب» بل إنه يضيف القول بأنه «الكلمة الجبار الذى به خُلقت السموات».

هل نستغرب إذاً أن يوجه يعقوب الرسول، رأس كنيسة أورشليم، وأقوى الشخصيات المتميزة بين يهود المسيحية، رسالته إلى إخوته الذين يسكنون هناك بين النهرين، والذين تكونت منهم، على حد تعبير بعض المؤرخين «أقدم وأعرق الكنائس المسيحية على الإطلاق؟»

لكننا لن نتوقف عند مجرد الاستنتاج المبنى على ما ورد فى الكتاب المقدس، ذلك لأن صفحات التاريخ الكنسى لا تتركنا فى حيرة من جهة هذا الأمر. بل تقدم لنا بالتفصيل، كل ما يتعلق بالتبشير بين هذه القبائل، واكتسابها للمسيحية، الأمر الذى سنفرد له فصلاً قادماً.....

على أن هناك جوانب أخرى ينبغى أن نعرض لها فى استكمال الصورة فى هذا الفصل. ولعل أهمها اللغة التى يكتب ويتحدث بها النساطرة والتى تشير إلى صلتهم القوية بالشعب القديم.

فلقد اكتشفت لوحة قديمة فى مجال الحفريات الأثرية فى بلاد الصين وقد كان للنساطرة نشاطهم التبشيرى فى القديم فى تلك البلاد وقد سطرت عليها أسماء الكثيرين من المبشرين الذين قاموا بالعمل المرسلى هناك، مع انجازات كل واحد منهم.... الأمر المهم ليس فى هذه الأسماء فى ذاتها، بل فى اللغة الغريبة التى كتبت بها هذه اللوحة.. فهى مكتوبة بالأرامية السريانية Aramaic Syriac اللغة التى يتحدث بها النساطرة واليهود القاطنين فى بلاد فارس، فى أيامنا الحاضرة (وهى تختلف عن السريانية القديمة التى هى الآن لغة بائدة) وفى هذا نرى الصلة

بين النساطرة، ويهود الأيام الحاضرة من جانب، وبين عشرة أسباط إسرائيل التى كانت تقطن السامرة قبل مجىء الأشوريين، وحدوث السبى قديماً.....

ولقد كانت الأرامية السريانية هى لغة اليهود المتداولة فى عصر المسيح. وهى الآن لغة النساطرة، ويهود فارس اليوم... ولو رجعنا إلى بشائر الإنجيل لوجدناها تحتفظ لنا بعينات من هذه اللغة. فالجملة التى نادى المسيح بها ابنة يايرس، وهى مسجاة على فراش الموت، «طاليثا قومى» هى نفس الجملة التى يرددها النساطرة اليوم حينما ينادون على فتاة نائمة لتقوم من نومها. وكلمة المسيح على الصليب تعنى «إلهى إلهى لماذا تركتنى؟» يرددها أولئك بالقول «إيلى إيلى لم شبقتنى» وهى نفس العبارة التى نطق بها يسوع. وحتى كلمة انفتح والتى تُقال لشىء مغلق، يرددونها «إفَّثا»... ويذكر لنا هـ. ف. مورتون فى كتابه المعروف «فى خطوات السيد المسيح» وهو كتاب صدر بُعيد الحرب العالمية الأولى، أنه كانت هناك بين الكتائب المنضمة إلى الإنجليز من جيش العراق، كتيبة كاملة تتحدث باللغة السريانية الأرامية. ولكنه لم يشر إلى أن أولئك كانوا من النساطرة المسيحيين... ومع أن السريانية الأرامية، لم تعد بعد اللغة التى يتحدث بها يهود فلسطين، إلا أن العناية الإلهية، قد حفظت هذه الجماعات الضئيلة عبر القرون، لتكون شاهدة بحق المسيح، لإخوتهم الذين ما زالوا فى حالة العناد والإنكار...

وليس من العسير علينا أن نستنتج أن السريانية الأرامية كانت لغة اليهود قبيل السبى. فلمدة طويلة كانوا خاضعين لملوك سوريا. بل إننا نعرف أنه لمدة قرنين ونصف قرن من الزمان، كان ملوك إسرائيل، وشعبهم فى اتفاق وانسجام مع السريان، فى أمورهم الاجتماعية والدينية، حتى أنهم تشبعوا بعباداتهم الوثنية. بل إن ملوك إسرائيل، فى محاولاتهم الانسلاخ عن سبطى بنيامين، ويهوذا، اللذين كانا يكونان مملكة الجنوب قد بذلوا قصارى جهدهم فى إدخال العبادات الصنمية

والمراسيم الوثنية إلى السامرة عاصمة ملكهم. وبديهى أنهم ما كانوا يستطيعون ذلك ما لم تكن لهم الدراية الكافية بلغة السريان. أما أولئك فما كانوا ملزمين بالتأثر بلغة الشعب الخاضع لهم، حتى يدرسوا العبرانية، أو يتعاملوا بها..

زيادة على ذلك هناك أصدق شاهد على استخدام السريانية، يتمثل فى أسفار موسى الخمسة السامرية، وهى التى يجلها السامريون، ويعترفون بها دون سواها من أسفار العهد القديم. وقد كُتبت هذه بالسريانية. ويؤكد كافة اليهود قدمها، وأنها ترجع إلى ما قبل انقسام المملكة إلى مملكة الشمال، ومملكة الجنوب. أى مملكة إسرائيل ومملكة يهوذا.....

رأينا حتى الآن أن النساطرة، ومن حولهم من اليهود، يتكلمون لغة لا يوجد من يتكلم بها الآن فى العالم، عدا بعض القرى اللبنانية، مما يدل على أنهم سلالة شعب قديم واحد. وأن لهم تقاليدهم المشتركة مع سواهم من اليهود. وأن اللغة التى يتحدثون بها كانت سائدة بين الأسباط العشرة فى مملكة السامرة، قبل سبى شعبها بزمن طويل.... الأمر الذى ينبغى ألا يغيب عن أذهاننا، إن النساطرة والقبائل اليهودية المتاخمة لهم، استقت اللغة التى يتكلمون بها، أى السريانية الأرامية، من الشعوب التى حولها، أو التى سبيت إليها. وأنها تسلسلت معهم خلال الأجيال، لتكون صورة مميزة، وشاهداً قوياً على أنهم بالحقيقة من سلالة العبرانيين...

وسنتابع بحثنا خلال الفصل القادم أيضاً، لتزيد هذه الحقيقة وضوحاً وتأكيداً. ولعل من الطريف أن نختم هذه السطور، بكلمات ترنيمة يرنمها النساطرة بلغتهم السريانية الأرامية وحيثما تتردد فى الترنيمة كلمة ايشو ومعناها يسوع....

«خد يومين ايشو بورقيليه (٣)

حقر قاتو هليلوياه ايشو بورقيليه

(أنا سعيد يسوع خلصنى)

(مجدوه هللويا يسوع خلصنى)

«خد يومين ايشو حمد يليه (٣)

«حقر قاتو هليلوياه ايشو حمد يليه

(أنا سعيد يسوع عمدنى)

(مجدوه هللويا يسوع عمدنى).

الفصل الثانى عشر

طقوس، وفرائض، وعادات اجتماعية

ومع أن الكثير من العادات الاجتماعية السائدة هناك، نستطيع أن نرى فيها صورة للعادات السائدة فى الشرق وعلى الأخص فى المناطق الريفية التى لم تتأثر بالحضارة الغربية، إلا أننا لو رجعنا إلى مثل هذه العادات بالبحث لوجدناها تنبع فى الأصل من مصادر عبرانية....

وهذا يتضح على الأكثر فى تقاليد الزواج والأسرة... فبين العائلات العبرانية المحافظة على تقاليدها لا يمكن للشاب أن يقوم بنفسه بخطبة الفتاة التى تروق فى عينيه. إنه يطلب من والده أن يخطبها له من أبيها، وهكذا الأمر حتى الآن فى المجتمعات النسطورية. فالوالد هو الذى يختار زوجات لبنيه ويرتب أزواجاً لبناته.فإذا خلا مكانه بالموت، حل الابن الأكبر مكان أبيه فى هذا المجال. وحينما تكون العروس فى مكان بعيد عن المكان الذى يقطنه العريس المرجو،فإنه من الممكن لواحد من الأقارب الموثوق بهم، أو الخدم، أن يقوم بمهمة خطبة العروس. تماماً كما كان الحال بالنسبة لإسحق قديماً، حينما ذهب وكيل إبراهيم، أو خادمه اليعازر الدمشقى ليخطب رفقة عروساً له. حتى أننا نرى نفس فصول القصة التى حدثت قديماً منذ آلاف السنين، وسجلها كاتب سفر التكوين فى الأصحاح الرابع والعشرين تتكرر بحذافيرها... وتحضر العروس إلى بيت عريسها فى موكب بهيج.

أما طريقة الخطبة، فهى أنه حينما يتم التوافق بين الأسرتين، ويتفق على المهر أو البائنة التى تدفع للعروس، وتتم مراسيم الخطبة، فإن الخطيبين يصبحان بحكم القانون، فى عرف زوج وزوجة، حتى ولو كانت الظروف لا تتيح الزواج إلا بعد سنين طويلة ولا يمكن للخطيب فى حالة عدم التوافق مع خطيبته، أن ينفصل عنها

إلا بوثيقة فسخ الخطبة، أو طلاق. أما حفل الخطوبة، فيتم فى بيت الخطيبة بكافة المراسيم الدينية. ويكرس الكاهن الخاتم الذى يقدم لها عن طريق وكيل أمين، يتمتع بثقة الجميع. وحينما تقبل العروس الخاتم فمعنى ذلك قبولها للعريس. ويعطى الخطيب لأهل خطيبته مبلغاً من المال مع كمية من الغلال، وهذه الهدية الأولى هى غير الذى يوهب بعد إتمام الزواج وفى فترة الخطبة يوالى الخطيب خطيبته، بالهدايا، والعطايا....

أما حفل الزواج فيستغرق أسبوعاً كاملاً، ويذكرنا بالمراسيم التى تحدث عنها النبى هوشع فى الأصحاح الثالث من سفره، وكذلك بما ورد فى سفر القضاة (١٤: ١٧ و١٨) أما أصدقاء العريس، فيكونون موكباً يُذكرنا بما أشار إليه المسيح فى مثله. وفى النهاية يتجه موكب العروس إلى بيت الزوجية، وسط الهتاف والزغاريد، حيث تستقبلها قريباتها على الباب، وينثرن عليها القمح، وحبات الزبيب، وأحياناً قطع النقد الصغيرة، تفاؤلاً منهن لتكون مثمرة، وسعيدة وناجحة فى حياتها. ونفس العادات تسرى بين عائلات اليهود....

أما العنس أو عدم الزواج فعار، وكذلك العقم. أما الحفاظ على العهود الزوجية، فهو واجب يعطى له الأولوية فى الأسرة النسطورية. وطريقة معاملة الطفل حينما يولد تذكرنا بما ورد فى حزقيال (١٦: ٤). (لم تقطع سرتك ولم تُغسلى بالماء للتنظيف ولم تُملحى تمليحاً ولم تقمطى تقميطاً) نفس العادات التى ما زالت سارية بين اليهود حتى يومنا الحاضر.. وفى أحوالهم المعيشية يذكرنا النساطرة أيضاً بجو التوراة القديم. فهم يزرعون أراضيهم، ويحصدون محاصيلهم ويجهزونها للخزين، بنفس الأدوات، والطرق التى كانت متبعة قديماً. وهم يرعون ماشيتهم ويتعهدونها كما كانت أمة الرعاة فى القديم....

وليست الأسماء السائدة بينهم أقل دلالة فكل الأسماء الكتابية من الآباء إلى

الأبناء، تسود هناك. أما الاسم المتسلسل لبطريرك النساطرة، فهو على الدوام، ابراهيم. وبين أقاربه، وأصدقائه، والأساقفة والكهنة، نجد أسماء صادوق، وأبشالوم، وناثان، ونفتالى، وأليعازار، وملكى صادق، ويوناداب، وحزقيال. وبين السيدات تنتشر أسماء، مريم، وسارة، ورفقة، وسوزانة، وهاجر، وثامار، وراحيل. أما ملامح الوجه، فهى دليل آخر، بحيث أن الناظر لا يستطيع أن يفرق بين اليهود، وبين النساطرة المسيحيين. كثيرون من السائحين الأجانب، حينما يتحدثون عنهم يقولون بأن ملامحهم يهودية مائة فى المائة. ولو كانت الإمكانات متاحة، لأرفقنا مع هذه الصفحات عينات من الصور لرجال ونساء منهم، وأطفال من ملجأ اليتامى بأورومیا ليتأكد القارىء من صدق هذه الحقيقة...

أما مجتمعهم القبلى، أو العشيرى، فهو يشبه مجتمع الأسباط أو العشائر اليهودية، ويرأس هذا المجتمع البطريرك وسلطته تشبه سلطة رئيس الكهنة بين اليهود قديماً، أى أنه يمسك فى يديه السلطة المدنية، والدينية في وقت واحد. فهو الرئيس الروحى والذى يعين الأساقفة والكهنة، وله المرجع فى كل الشئون الدينية. وهو أيضاً الرئيس الأعلى لكل العشائر، الذى يترأس مجلس شيوخ القبائل وله السلطان ليحكم بالحرم، والعقاب، والطرد من الكنيسة، كما من المجتمع. إن سلطانه هو من سلطان الله، وحكمه نافذ لا نقض فيه.

أما الناموس اليهودى للانتقام من مرتكب الجريمة الذى يقوم به من يسمى فى التوراة بولى الدم، فينفذونه بحذافيره حتى أن عاراً لا يمحى يلحق بأسرة القتيل، إذا لم تقم بأخذ الثأر. ولم تفلح تعاليم الإنجيل، فى محو هذه العادة اليهودية...

والأمر الطريف أن نظام مدن الملجأ مازال قائماً هناك. فقط استبدلت الكنائس بتلك المدن. ويستطيع القائل خطأ، أن يلجأ إلى الكنيسة، ويبقى هناك دون أن يمسه ولى الدم بالأذى، حتى يجتمع الشيوخ ويفحصوا جريمته. فإذا ثبت سوء نيته،

يسلم إلى ولى الدم، ويعدم فى الحال. أما إذا أثبت التحقيق براءته، فإن دية تحدد بواسطة القضاة، حسبما يتراءى لولى الدم.

إن القانون المدنى للنساطرة، مستمد، فى معظم بنوده من الناموس الموسوى، وهو يقدم لنا أقوى دليل على أصلهم الإسرائيلى. على أن طقوسهم الدينية تثير أكثر من تساؤل، حتى أننا نكاد نرى فيها امتداداً لليهودية المسيحية التى لم تستمر أكثر من القرون الخمسة الأولى من تاريخ الكنيسة... فهو يحتفظون، إلى جوار ممارساتهم الكنسية، بكافة التقاليد، والأعياد الموسوية، والعديد من الأصوام ولعل أغربها ممارسة الذبائح...

ولكن قبل أن نفسر ذلك، علينا أن نعرف طبيعة الذبائح التى تمارسها الكنيسة النسطورية...

أما ذبيحة الخطية فلا وجود لها على الإطلاق فى ممارساتهم فإيمانهم الوطيد بكفاية ذبيحة المسيح الكفارية، وأن «دم يسوع المسيح يطهر من كل خطية» لا يدع مجالاً للتفكير فى مثل هذه الذبيحة....

لكن هناك ذبائح أخرى، مثل ذبائح السلامة، التى كان اليهود يقدمونها شكراً لله على إحساناته، أو مقرونة بطلبة خاصة، أو تعبداً لله. وفى هذه الذبائح لا توجد شروط لسن الذبيحة أو نوعها، كما فى محرقة الخطية. كل ما يطلب أن تكون بلا عيب. ويأتى مقدم الذبيحة بها إلى الباب، فتُذبح، ويكون من نصيب الكاهن الصدر والكتف اليمنى. وبقية الذبيحة يأخذها صاحبها ليأكلها هو وأصدقاؤه. هذه هى مراسيم ذبائح السلامة، كما كان يمارسها اليهود قديماً (لاويين ٧: ١١ - ٣١)، وهى نفس المراسيم التى ما يزال النساطرة يتبعونها حتى يومنا الحاضر. فيتقدم الواحد منهم بذبيحته إلى الكاهن، إتماماً لنذر، أو عرفاناً وتقدمة شكر. فيذبحها الكاهن على باب الكنيسة ويرش الدم على العتبة. ويكون نصيبه

نفس النصيب الذى كان يُعطى للكاهن اليهودى قديماً....

وفى بعض الحالات تُذبح ذبيحة النذر علي باب بيت صاحبها ويوزع لحمها على كل بيت فى القرية. وهى تعتبر تقدمة لله ويشترك فيها أيضاً صاحبها وأصدقاؤه، ولا ينبغى أن يبقى منها شىء حتى اليوم التالى... زيادة على ذبائح السلامة، هناك تقدمة بواكير المحاصيل وثمار الأرض. فبواكير الكروم، والفاكهة وحصاد الحقول، ينبغى أن تأتى أولاً إلى بيت الله. وبما أنهم يعيشون على رعى الماشية، لذلك فبواكير كل منتجاتها من نسلها، كما من ألبانها، ينبغى أن تقدم للرب، ولطعام الفقير.

وتقديم البواكير للرب، لا يقتصر فقط على ثمار الأرض، وثمار النسل من الماشية والأغنام، وباكورة منتجاتها من ألبانها وغير ذلك، بل قد يتعداه إلى ثمرة البطن للمرأة وكما رأينا فى القديم حنه التقية، تنذر ابنها قبل أن يولد، لخدمة الرب فى الهيكل طيلة أيام حياته، هكذا شأن المرأة النسطورية، وعلى الأخص إذا كانت عقيماً، تتمنى أن ترى نسلاً لها. فتكرس الطفل الذى يأتى إذا كان ذكراً، لخدمة الرب فى هيكل قدسه. أما إذا كانت بنتاً، فتنذر كل مهر زواجها لبيت الرب. أو فى حالات نادرة تنذرها لتكون راهبة... فإذا لم توافق الابنة، حينما تكبر على الوفاء بهذا النذر،يمكنها أن تفتدى نفسها، بأن تهب للكنيسة كل مهر زواجها، فتتحلل من نذر الرهبنة.

أما حفظ السبت، ونعنى بالسبت الأحد المسيحى، فهو أيضاً صورة قوية مميزة، يتفردون بها من كافة المجتمعات والطوائف المسيحية. إنهم يمارسون بكل تدقيق فرائض «الاستعداد للأحد» ثلاث ساعات قبل أن تغرب شمس يوم السبت حيث يتوقف كل عمل، وتبدأ راحة السبت، عدا الأعمال الضرورية جداً. ويؤكد النساطرة سواء منهم الذين يقطنون الوديان أم الجبال، أن الناموس الموسوى بإصدار

حكم الإعدام رجماً على من يكتشف وهو يكسر يوم السبت بالعمل، أو لسفر كان سارياً فيما بينهم لمدة قرون طويلة، وأنه لم يوقف إلا باختلاطهم بالشعوب المسيحية الأخرى، وتفهمهم للمعنى الروحى للسبت، لمجد الله، ولراحة الإنسان. وهناك البعض يؤكدون أنهم يقدسون السبت اليهودى أيضاً....... وبنايات الكنائس عندهم، وتقديس دور العبادة أمور تدعو أيضاً للتأمل - البعض من الكنائس يرجع تاريخه، كما يؤكدون إلى أكثر من أربعة عشر قرناً وجميعها مبنية من الأحجار المنحوتة، وذات سقوف مقوسة، أما مداخلها فهى منخفضة، حتى أنها لن تسمح بدخول الإنسان إليها، إلا وهو منحن. ويقول بعضهم تفسيراً لذلك، إن المقصود بذلك الدخول بروح الاحترام، وتذكيرهم بقول المسيح «ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة». ولكن البعض الآخر يؤكد أن الأبواب أقيمت على هذه الصورة، حتى لا تسمح بدخول الكفار وهم راكبون دوابهم، شاهرين سيوفهم لذبح المصلين، ولا تسمح أيضاً بما كان يجرى قديماً، حينما تستخدم جيوش الكفار الكنائس حظائر لبغالهم، ودوابهم. ونادراً ما كان يحدث ذلك بالنسبة لكنائس النساطرة.

أما قدس الكنيسة. كما كان القدس فى الهيكل اليهودى قديماً، فهو أقدس أجزائها. وهو يحتل نصف مساحة الكنيسة والباقى مخصص للعابدين. ولا يمكن أن يدخل القدس، إلا الكهنة المكرسين للخدمة الدينية. وعليهم قبل ذلك، أن يتطهروا من كل النجاسات الطقسية التى ذُكرت فى سفر الخروج (١٩: ١٥)، حتى الطعام والشراب يمتنعون عنه. ويُروى عن أحد خدام الدين فى الغرب، ويدعى عالى سميث، أنه فى زيارة له لكنيسة للنساطرة، أراد دخول قدس الكنيسة. فما كان من الأسقف إلا أن منعه بلهجة آمرة. فلما قيل له إنه قسيس ورجل دين، قال إنه ينبغى ألا يطأ الموضع المقدس، إلا بعد الصلاة، وفترة من الصوم - إن النساطرة يحترمون كنائسهم ويقدسونها، تماماً كما كان اليهود يقدسون هيكلهم.

وفى أثناء زيارة الغرباء يقطعون الأحاديث ليظهروا إكرامهم للكنائس. وحينما سئلوا فى إحدى المرات كيف استطاعوا أن يحافظوا على كنائسهم وسط الأعداء من كل جانب؟ فكان جوابهم «إننا لا نحفظ كنائسنا ولكن كنائسنا هى التى تحفظنا» وهذا ليس بروح عبادة الأحجار، ولكن بروح سليمان فى تدشينه للهيكل: «لتكون عيناك مفتوحتين على هذا البيت ليلاً ونهاراً على الموضع الذى قلت إن اسمى يكون فيه، لتسمع الصلاة التى يصليها عبدك فى هذا الموضع» (ملوك الأول ٨: ٢٩). وهناك حقيقة ليست بحاجة إلى أقل تدليل، أنه لا يمكن لأى إنسان لحقت به نجاسة طقسية حسبما هو مكتوب فى الناموس الموسوى، أن يطأ بقدمه أى مكان فى الكنيسة، فكم بالحرى القدس. وفى سفر العدد نقرأ «كل من مس ميتة إنسان قد مات، ولم يتطهر ينجس مسكن الرب» (عدد ١٩: ١٣) لأن ماء النجاسة لم يرش عليه، فإن نجاسته لم تزل فيه.. وهذا ما يؤمن به النساطرة فى صورة متطورة بعقيدتهم المسيحية. فقد تحول ماء التطهير من النجاسة إلى ماء المعمودية. وأصبح من اعتمد طاهراً لا يتأثر حتى ولو مس ميتاً... ولكنه إذا لمس جسد ميت من اليهود أو من الكفار، يظل نجساً حتى يتطهر بالماء.

وأما شريعة النجاسة عند المرأة، فإنها عند ولادتها لطفل ذكر تظل نجسة أربعين يوماً. فإذا كان المولود أنثى، تمتد هذه الفترة إلى ستين يوماً. وتظل كذلك حتى تنتهى أيام تطهيرها وفى الأيام السبعة الأولى، تظل نجسة لا تلمس شيئاً من أدوات البيت، إلا المخصصة لها. وفى اليوم الثامن يعمد الطفل، وهى فريضة بديلة للختان عند النساطرة. إن قداسة الكنيسة لها هذا المقام لديهم. حتى أنه إذا اكتشف أن أقداماً نجسة قد دنستها فى غياب العابدين يستدعى الأسقف لتكريسها من جديد...

وعلاوة على القدس، هناك قدس الأقداس وهو شق أو حفرة غائرة فى الجدار،

عليها رسم الصليب. ولا يدخل إلى هذا المكان أحد لأن هذا رمز للحقيقة أن المسيح قد دخل بدم نفسه، مرة وللأبد، إلى قدس الأقداس فوجد فداء أبدياً... وهناك الأجزاء الأخرى فى الكنيسة التى يُطلق عليها الأسماء الموجودة فى الهيكل اليهودى قديماً... الأمر الذى لا يوجد له نظير فى أى مجتمع مسيحى آخر حتى أننا نستطيع أن نقول إنهم استقوا ذلك من أجدادهم العبرانيين فى فلسطين.

أما تمسكهم بالحيوانات الطاهرة، والنجسة، فهو أيضاً أمر يسترعى الالتفات. فهم لا يمكن أن يلمسوا لحوم الخنازير، أو غيرها من الحيوانات التى حرمها الناموس. ونحن حينما نقرر هذه الحقيقة، فإننا نشير إلى المجتمع النسطورى الأصيل. أما إن كان البعض من النساطرة قد تأثرت أفكارهم بحضارة الغرب، وأصبحوا الآن أكثر تحللاً من الناموس الذى كان يتمسك به أجدادهم، فلا يعنى هذا نقضاً للمبدأ.... وهم يتهمون المجتمعات المسيحية الأخرى، بأنهم يأكلون لحوماً ممنوعة، ولا يفرقون بين الطاهر والنجس.

أما فى الأصوام، والأعياد، فإنهم يعودون بنا إلى أمجاد وعادات المجمع اليهودى القديم. فهم يصومون مرتين فى الأسبوع يومى الأربعاء، والجمعة مثل الفريسيين، ويمارسون ذلك ليس تقليداً بل كممارسة دينية هامة لها قيمتها لديهم ويقال إن أحد الأمريكيين، الذين كانت لهم فرصة الحضور فى كنيسة من كنائسهم سمع الكاهن يقول، مبيناً الفارق بين مسيحية النساطرة، ومسيحية الغرب...

«إن تاريخنا نحن يمتد إلى العصور المسيحية الأولى، فنحن من أبناء إسرائيل، ولذلك نتمسك بكل الفروض والطقوس التى كان يتمسك بها أجدادنا قديماً... أما أنتم يا أبناء الغرب، فلا تجدون أنفسكم ملتزمين بالتمسك بتقاليدنا والسير فى ركابنا...»

وأكبر أعيادهم الدينية البسخة أو عيد تذكار آلام المسيح. وبالطبع لقد أستبدل

حمل الفصح، بالخبز والخمر، إشارة للجسد، والدم. أما جميع تفاصيل ممارسة البسخة فهى مأخوذة حرفاً بحرف عن ممارسات عيد الفصح اليهودى القديم....

لقد سُئل أحد أحبار اليهود المنتشرين حول جبال أديبنة (والعهدة فى صدق هذه الرواية على هنرى هول، الذى كان يرأس فى وقت ما الإرسالية الإنجليزية إلى النساطرة فى بلاد فارس) عن رأيه فى النساطرة فكان جوابه....

«إنهم إخوتنا، أبناء جنسنا، لكننا لا نريد الاعتراف بهم، لانحرافهم عن الحق الموسوى منذ عصور سحيقة فى القدم....».

وبالطبع يشير بهذا إلى اعتناقهم الجماعى للمسيحية...... وفى الفصل القادم سوف نقرأ سطوراً عن قصة المسيحية مع النساطرة....

الفصل الثالث عشر

فى موكب المسيحية

ترى كيف دخلت المسيحية إلى تلك البلاد ؟

هناك دائرتان نستقى منهما معرفتنا فى هذا المجال، دائرة التقاليد ودائرة التاريخ. وحيثما يخفق التاريخ فى أن يتحدث إلينا بسبب غموض القدم، تتقدم التقاليد لسد الفراغ..

والتقاليد ملذة للغاية لمن يحاول أن يتتبعها فى مصادرها. وهى تقرن المسيحية السريانية بالعصر الرسولى. بل إن البعض منها يؤكد أن تقديم البشارة لأديسا قد حدث أثناء حياة المسيح. وهى تقدم لنا ، لتأكيد هذه الغاية قصصاً ثلاث.

القصة الأولى تدور حول زيارة المجوس الثلاثة للطفل يسوع...... والثانية تتجه إلى قصة الملك الأبجر ملك أديسا.......... والثالثة مستقاة من سفر أبو كريفى قديم يعرف «بأعمال القديس توما».......... أما عن المجوس، فيؤكد النساطرة، أنهم ما داموا قد عرفوا اللغة السريانية الأرامية، وتخاطبوا بها مع يهود أورشليم، فلابد وأنهم أتوا من مملكة أورى أو مملكة أديسا نفسها، وهى التى احتفظت وحدها بالسريانية كلغة رسمية لها وسط عديد من اللغات سيطرت على الدول بين إمبراطورية البارثيين فى الشرق، وإمبراطورية الرومان فى الغرب. بل لقد قيل أيضاً إن قصة المسيحية تجد جذورها هناك قبل ولادة المسيح بسبعة قرون كاملة، حين أشرقت على زرادشت فى الكهف الذى اعتزل فيه، تلك النواميس والمبادىء الأخلاقية التى وجدت كمالها فى المسيحية، وهناك أيضاً أعلنت له الرؤيا والنبوات عن ذلك «الطفل السرى العجيب» «الكلمة الذى به خلقت السموات» وبهذه النبوة تحدث إلى أتباعه طالباً منهم أن «يتبعوا نجمه»

واستناداً على ذلك ظلت هواية المجوس مراقبة النجوم، وحسابها خلال الأجيال الطويلة، حتى عثروا أخيراً على نجمه واتجهوا لتقديم التعبد له. أما يهود السبى هناك، فقد فسروا رؤيا زرادشت على أن ذلك الطفل الذى سوف يولد، والذى سيظهر نجمه فى المشرق، لابد وأن يكون المسيا المنتظر ملك اليهود، الذى تحدث به أنبياؤهم فى القديم والذى ينتظرون ظهوره ليرد الملك إلى إسرائيل... وحسب التقاليد الأشورية، يقال إن عدد المجوس ليسوا ثلاث فحسب، ولكن ثلاثة أرابع: أربعة يحملون الذهب ويلقبونهم أرفانديد، وهورموسند وكوزناساب، وأرشاق، وأربعة يحملون المر، وهم زراندر، وأكريهو، وأرباكشست، وأشتون كاكودن، وأربعة يحملون البخور وهم محروس، وأخشروش، وسادلاك، وميروداك...

أما التقليد الثانى، فيدور حول قصة الملك الأبجر الخامس ملك أديسا الأسود، الذى يقال إنه تبادل رسائل مع السيد المسيح. ومع أن القصة لا تستند إلى دليل تاريخى قاطع، إلا أنها وجدت طريقها إلى الأدب المسيحى السحيق فى القدم، واحتلت مكانتها على صفحاته.... وتقول القصة إن الأبجر الخامس، أرسل سفارة إلى سابينوس الحاكم الرومانى فى البيوتيروبوليس فى فلسطين، بسبب بعض الأمور السياسية. وكانت السفارة مكونة من المدعو مارياب. وشمشجرام، مع كاتب يدعى حنان الكاتب. وفى طريق عودتها، مرت تلك البعثة بمدينة أورشليم، وعلمت أن نبياً جديداً قد ظهر، وعلى يديه نال العديدون من المرضى الشفاء من أمراضهم المتعددة.... أما الأبجر فقد كان مصاباً بداء البرص. وهكذا نقل إليه وزراؤه البشارة الطيبة. ولقد كان ممكناً أن يذهب الملك بنفسه إلى المسيح لينال على يديه الشفاء، لولا أنه ما كان يستطيع أن يخترق الحدود الرومانية الكائنة بين أورشليم وأديسا. وهكذا أرسل بيد الكاتب حنان رسالة إلى يسوع، يدعوه فيها بالحضور إلى بلاده، لشفائه، والمناداة بالدين الجديد بين شعبه...

أما تلك الرسالة، ورد المسيح عليها، فقد أثبتها يوسابيوس القيصرى فى تاريخه الكنسى باللغة اليونانية، وهو أسقف قيصرية الذى عاش فى القرن الرابع الميلادى.. ووردت أيضاً بالسريانية فى مؤلف لكاتب غير معروف بعنوان «عقائد عداى»، عاش فى أواخر القرن الرابع الميلادى. واشتهرت تلك الرسالة مع رد المسيح عليها فى القرون المسيحية الأولى، حتى أننا نجد لها ترجمات إلى اللاتينية والأرمنية، وكذلك العربية التى نجدها ضمن المخطوطات التاريخية التى اكتشفت فى دير سانت كاترين. وكلها مطابقة لما أورده يوسابيوس تقول رسالة الأبجر...

«من الأبجر أو كهاما الملك إلى يسوع المخلص الصالح الذى ظهر فى نواحى أورشليم.... تحياتى.

«لقد سمعت عنك، وعن معجزات الشفاء التى تصنعها. ،كيف أنك تقوم بها دون ما استعانة بالعقاقير أو الأعشاب، لأنه، كما سمعت عنك، أنك تجعل الأعمى ينال البصر، والأعرج يمشى مستقيماً، والأبرص ينال التطهير، أما الأرواح النجسة، والشياطين، فلك السلطان عليها حتى أنك تستطيع أن تأمرها، فتخرج. ولقد سمعت أيضاً أنك تبرىء من الأمراض المستعصية، بل وتقيم الموتى أيضاً وحينما عرفت عنك كل هذه الأمور، قررت فى نفسى أحد أمرين: إما أنك الله نزل من السماء ليقوم بهذه المعجزات، أو أنك ابن الله، وهذه المعجزات تؤيد بنويتك.... ولذلك فإننى أتوسل إليك أن تسرع بالمجىء إلىَّ لشفائى من مرضى العضال.. بل لقد عرفت أيضاً أن اليهود يسخرون منك، ويدبرون ضدك المؤامرات. وإنى أقول لك إن بلدى رغم صغره ووضاعته، سوف يكون المكان اللائق بنا كلينا...».

وهذا هو جواب يسوع إلى الأبجر الملك، مرسلاً بيد رجل البلاط حنانيا....

«طوباك أنت، يامن آمنت بى، دون أن ترانى. لأنه مكتوب عنى، أن كثيرين

يرونني، ولا يؤمنون بي، وكثيرون لا يرونني، ويؤمنون بي وينالون الحياة. أما بخصوص مجيئىء إليك، فإنى أقول لك إننى ينبغى أن أتمم أولاً الغرض الذى أرسلت من أجله. وبعد أن أتممه أعود للآب الذى أرسلنى. وحينما أصعد للآب، سوف أرسل لك واحداً من تلاميذى لتنال الشفاء على يديه، من كل أوصابك. ويهبك الحياة أنت ومن معك».

ويزيد كتاب «عقائد عداى»[1] على هذا، بأن حنان فى أثناء إقامته فى أورشليم، رسم صورة ليسوع، بقوة معجزية، حملها معه إلى ملكه، الذى جعلها فى مكان الإكرام والصدارة فى قصره. ويقال إن الصورة بقيت فى قصر الملك حتى الغزو الإسلامى، حينما استولى عليها المسلمون، واحتفظوا بها رهينة، نالوا عنها فدية كبيرة من المال. مع إطلاق سراح المأسورين على يدى إمبراطور بيزنطة... وظلت الصورة هناك حتى فُقدت بعد الحرب الصليبية الرابعة... وبعد صلب المسيح، وقيامته وصعوده، أتم الرب وعده فأرسل من التلاميذ واحداً من الاثنين والسبعين الذين أرسلهم الرب سابقاً، ويدعى تداوس أو عداى، إلى أديسا. وهناك استقر به المقام لدى واحد من أهل جنسه، يدعى طوبيا بن طوبيا، قبل أن يذهب للملك ويتراءى له ويشفيه من برصه. وبعد ذلك اعتنق الملك المسيحية، واعتمد هو وكل شعبه. وقد اكتشف عداى فى صائغ يقال له حجاى من يكون خليفة له. إلا أنه بعد موت الأبجر الأسود، جلس على كرسى العرش، من يدعى الملك مانو الذى انحرف إلى الوثنية، وشن حرباً على المسيحية فاستشهد فيها أسقف أديسا الثانى، فخلا كرسى الأسقفية حتى عين أسقف أنطاكية من يدعى بالوت أسقفاً ثالثاً لأديسا. ويقال إن سيرابيون أسقف أنطاكية هذا، قد نال رسامته من زفرينوس الجالس على كرسى روما، الذى عينه بطرس الرسول نفسه...

---

(١) أو تداوس.

وهذه القصة تدعو إلى الشك، بسبب بعض الأدلة، والمتناقضات التاريخية أما أولها فهو أن سيرابيون أسقف أنطاكية قد جلس على كرسى الأسقفية ما بين (١٩٠ - ٢١١) لذلك لا يمكن أن يكون قد رسم على يد زفرينوس الذى كان أسقفاً لروما ما بين (٢٠٢ - ٢١٨). أما القول بأن زفرينوس قد رسمه بطرس فواضح أنه تقليد باطل. ومن لغة الرسالة التى رد بها يسوع، نستطيع أن نكتشف أنها لا تشبه لغة الأناجيل، بل هى أقرب ما تكون إلى لغة الدياطسرون أو الرباعى الذى صنفه ططيانوس فى منتصف القرن الثانى....

لذلك فمن المرجح أن تاريخ كتابة هذه الرسائل يرجع إلى القرن الثالث، ولا يمكن أن يكون قبل هذا. ومع ذلك فإن النساطرة حتى الآن يتمسكون بها ويؤكدون صحتها. ويقتبسون من كلمات رسالة المسيح فى صلواتهم، وخدماتهم. ويؤكد أحد الكتاب الإنجليز، أنه حتى القرن التاسع عشر، كانت نسخ من تلك الرسالة تعلق فى البيوت الإنجليزية كطلسم للوقاية من الأمراض...... أما التقليد الثالث، فمصدره ما يدعى «بأعمال القديس توما» وهو عمل أبو كريفى سنعرض له فى حديثنا عن كنيسة القديس توما فى الهند الجنوبية. يكفى أن نقول هنا إن النساطرة يعتقدون أنه بعد استشهاد الرسول نقلت عظامه إلى أشور، لتستقر فى تربتها هناك....

ومهما كانت قيمة هذه التقاليد التاريخية، فإنها تشير على الأقل إلى أن جذور الأشورية المسيحية تمتد إلى سحيق القدم. ومع أن قصة الأبجر الأسود قد تفتقر إلى سند تاريخى، إلا أنه من المؤكد الثابت تاريخياً، أن الأبجر الثامن (١٧٦ - ٢١٣ م) كان مسيحياً وذلك بشهادة سكستوس أفريكانوس، الذى زار بلاط قصره. أما فتح الرومان لأديسا عام (٢١٦) فقد أنهى حكم الأبجر التاسع، وفتح المجال للاتصال بين المسيحية الأورشليمية، أو الكنيسة اليهودية الأم، وبين

المسيحية الأشورية. والأساس واحد بين الكنيستين هناك كما أثبتنا: وحدة اللغة، فلقد كانت اللغة السريانية هي السائدة بين أولئك وهؤلاء. وهناك أيضاً وحدة الجنس، فهما ينتميان إلى أصل عبراني. وهناك وحدة العادات والطباع والتقاليد، وها هم قد انضووا تحت لواء الدين الجديد...

زد على ذلك أن النساطرة في وجودهم في أرض السبي، قد صارت لهم بعض المعرفة بأسرار الديانات الشرقية، مثل الزرادشتية التي اقترنت في القرن الأول قبل ميلاد المسيح، بأسرار مثرا، التي تتشابه إلى حد كبير مع أسرار وأساس العقيدة المسيحية. فإله مثرا الذي سحق الشر، وصعد إلى السموات، شأنه شأن الإله البابلي مردوخ الذي قُتل ظلماً وقام من الموت ظافراً، يرمزان إلى موت المسيح، وقيامته من الموت، وانتصاره على قوات الظلمة. أما ميلاد المسيح المعجزي من عذراء فله ما يشبهه في أقاصيصهم، ومعتقداتهم. والمعمودية والتطهير كان يقوم بهما كهنة مثرا، وما يشبه العشاء السري، من خبز وخمر يكرسان للأمناء. أما الناموس الأخلاقي السامي للمثرائية، ففيه أنوار من تعليم المسيح.

لقد كانت المشابهات قوية بين الديانتين، حتى أن شخصية عظيمة من الآباء نظير ترتليانوس لم يجد بداً من أن ينادي بأن المثرائية تقليد وتمثيل شيطاني للمسيحية، قصد به عدو الخير تضليل القلوب والأذهان، فإذا أخذنا في الحسبان علاوة على ذلك خلفية المظالم، والعبودية في المجتمع الروماني، بالقياس إلى الحرية والكرامة التي يتمتع بها المسيحي في شخص المسيح، ورسالة الرجاء وأبوة الله للنفوس التي اقتنصها اليأس، نستطيع أن نعرف السبب الذي من أجله وجدت المسيحية ذلك الانتشار والقبول الجماعي، بين سلالة الأسباط العشرة المسبيين في منطقة أديسا....

وحديثنا أيضاً عن الجانب التاريخي للكنيسة النسطورية ملذ وهام شأن الحديث عن التقاليد التي تدور حولها وبين ططيانوس، ورابولا[1]. هناك متحف زاخر بصور البطولات، والأساقفة، والقديسين في أديسا طبع طابعه القوي على الأدب المسيحي، بل والمجتمع المسيحي بأكمله، وبين الدياطسرون والبيشيتا نرى تطور الكتاب المقدس السرياني لكل العصور. وفي مدرسة نصيبين وأديسا، تخرج أبطال وقديسون قدر لهم نشر المسيحية حتى في ربوع فارس. وبينما كان الغرب مشغولاً بخلافاته العقائدية، ومجامعه المسكونية، ومضيعاً دعوته بين هذه العقيدة وتلك. كان الآباء السريان، بين شقي الرحى، وفي ميادين الانتصار. ولكن الانشقاق لم يكن قد حدث بعد بين الشرق والغرب، قبل مجمع أفسس في عام (٤٣١). هنا في ذلك المجمع وضع الخط الفاصل بين السامية والبيزنطية... بين النساطرة والأرثوذكس. أما قبل ذلك، خلال الأربعة قرون الأولى للمسيحية، فلم يكن هناك الانقسام بين السريانية الشرقية، والسريانية الغربية، أو النساطرة واليعقوبيين...

وقبل المجمع النيقوي، لمعت أسماء لعل أعظمها برديسان وططيانوس. أما الأول فقد ولد عام ١٥٤ من أبوين نبيلين، وتلقى دراسته مع الملك الأبجر الثامن، وأصبح فيما بعد، نجماً لامعاً في سماء الأدب والفلسفة السريانية، ورسم شماساً على يدي أسقف أديسا (١٧٩ م). ولكنه حينما انحرف إلى دراسة التنجيم،وما فوق الطبيعيات صدر عليه قرار الحرمان، واضطر إلى الهروب إلى أرمينيا حيث انضم أخيراً إلى الأغنسطيين. أما مقدرته على نظم الترانيم، فقد كسبت له شهرة واسعة، ولو أن ترانيمه مشبعة بعقائده، إلا أنه يمكن أن يقال عنه إنه أبي الترانيم السريانية. كما يؤكد البعض أن المؤلف الأبوكريفي «أعمال القديس توما» قد كُتب بإرشاده.

---

(١) القرن الثاني، والقرن الخامس.

ولقد انتهت أيامه (٢٢٢ م) تاركاً خلفه مدرسة لإحياء الأدب، والفلسفة السريانية..

أما ططيانوس الذى كان معاصراً لبرديسان، والذى أسهم بمجهوده الأدبى فى بناء صرح الفلسفة السريانية، وآدابها ،فقد اتهم نظيره أيضاً بالهرطقة. ولقد أصبح مسيحياً على يدى يوستنيوس الشهيد فى روما. انحاز ططيانوس إلى الأغنسطية، وكان رائد هيئة جديدة منها عُرفت باسم الممتنعين وأساسها رفض الزواج، واللحوم، والخمر، كخطيئة حتى أنهم كانوا يستخدمون الماء، بدلاً من مختمر عصير العنب، فى ممارسة التناول. وبسبب هذا صدر قرار حرمانه فى روما، فاضطر إلى الهروب إلى أديسا حيث رحب به إخوته كاحدى العقليات السريانية الجبارة.....

وقد كتب ططيانوس مؤلفات عديدة، لعل أشهرها.. توافق البشائر، أو الدياطسرون. وحتى ذلك الحين لم يكن للنساطرة كتاب العهد الجديد، فاستخدموه فى كنائسهم حتى إذا أهلّ القرن الخامس، قام الأسقف رابلا بتصنيف البشيتا، أو الفولجاتا السريانية، (وكلمة بشيتا هى نفس الكلمة فى العربية: بسيطة، فالأرامية السريانية شبيهة باللغة العربية) وهى تتكون من البشائر حسب التقليد الأنطاكى، مع الرسائل الجامعة، وكذلك رسائل بولس وسفر الأعمال عدا رسالة يهوذا، وسفر الرؤيا... ويعتبر رابلا الحاجز القوى لكثير من البدع التى تسللت للكنيسة، مقدماً الإيمان القويم، مؤيداً بالفلسفة اليونانية، حتى أننا نقول إنه بهذا قدم أصدق صورة للكنيسة الأشورية فى القرن الخامس.

نقول إن أديسا فى ذلك الحين كانت ملاذاً لأكثر من واحد من رواد الفكر المسيحى. حتى إننا نجد أنه بسقوط نصيبين فى أيدى الفرس عام (٣٦٣) لم يجد جهابذة الفكر هناك من سبيل إلا الهروب إلى أديسا. ويكفى أن يكون على رأسهم أفرايم السريانى، قمة الأدب السريانى، الذى تعتبر كتاباته من أقوى ما عرف فى

مجال التفسير، وكتابة الترانيم، والزهد، وقد ترجمت كتاباته إلى اليونانية، والأرمينية، فى تلك العصور السحيقة، وأيضاً إلى العربية.

وعلى ذلك ففى الوقت الذى كانت فيه أنطاكية تزداد أممية، وتتأقلم بمن حولها، كانت أديسا تزداد قوة فى الحفاظ على الأدب السريانى حتى جاء الوقت الذى حدث فيه الانشقاق بين السريانية الشرقية (أى مسيحية الأشوريين)، وبين السريانية الغربية (أى مسيحية أنطاكية)، وذلك عام (٤٣١) بظهور نسطور[١] وتطورت الأحداث بعد مجمع أفسس الأول واختارت الكنيسة الأشورية العقيدة القائلة بالطبيعتين والمشيئتين فى شخصية المسيح. وقد تبلورت عقيدة النساطرة فى عهد مار باباى الذى كان رئيس دير جبل إيزالا (٥٦٩ - ٦٢٨)، وتتلخص فيما يلى:

«أن المسيح هو ابن الله. الواحد، المعبود من الجميع فى طبيعتيه. فهو فى طبيعته الإلهية، مولود من الآب قبل كل الدهور، منذ الأزل. وهو فى طبيعته الإنسانية مولود من مريم العذراء فى ملء الزمان، فى جسد متحد †unitedوليس لاهوته من طبيعة مريم، ولا ناسوته من طبيعة الآب. والطبيعتان فى الأقنوم الواحد، فى شخص واحد، وبنوة واحدة».

ولا يطلق النسطوريون على العذراء لقب «أم الله» (يالدات إلاها) إنما يلقبونها فقط «أم المسيح» (يالدات بشيكاه).

وهذا العصر، بعد أجيال من الارتباك العقائدى الذى دخلت فيه البدع فى قلب السريانية الشرقية، بدأ جو جديد من الاستقرار والازدهار تبلور فى نهضة إرسالية عارمة إلى بلاد الشرق الأقصى وجزيرة العرب، لم يوجد لها نظير فى تاريخ المسيحية بكافة طوائفها، على ما اجتازت فيه الكنيسة النسطورية، من بحار من

---

(١) نضرب صفحاً عن الخوض فى الضلالة النسطورية وملابساتها ومجمع أفسس، وما انتهى إليه نسطور، لضيق المقام..

الاضطهاد، والدماء...

بدأت الكنيسة، بعد أن رسخت عقيدتها، وتأسست لها خلافتها الرسولية وبطريركيتها فى ربوع فارس، تتطلع إلى الامتداد والاتساع. وهذا أصبح ممكناً بتمهيد ظروف داخلية، وخارجية، ساعدت على تطور الشعب والكنيسة.

قبل كل شىء، لقد كان لقيام قلعة النسطورية فى بلاد فارس، أثره فى عزلها عن كافة التيارات القادمة من أنطاكية، ومن القسطنطينية، أى من السريانية اليعقوبية، ومن المسيحية البيزنطية.وكذلك لم يكن لها مجال فى الصراعات، والمجادلات القائمة بين القائلين بالطبيعة الواحدة مثل بطاركة الإسكندرية، وكنيسة أنطاكية من جانب، والكنيسة الملكية الشرقية من الجانب الآخر، التى فضلت، بعد مجمع خلقدونية، أن تسير فى ركاب القسطنطينية وروما. وحتى فى أوقات الاضطهاد، كانت الاضطهادات منصبة عليهم، ليس على أساس خلافات عقائدية، من إخوتهم المسيحيين، ولكن من أتباع دين آخر، يود أن يستأصل شأفة المشركين، بل إن الاضطهاد كان يقع عليهم فى أوقات أخرى من ديكتاتور مستبد، ما كان يفرق بينهم وبين سواهم.

زد على ذلك أن تطلعات الفرس لفتح جبهات جديدة لهم للتوسع، وجلها إلى الشرق، قد أفسح المجال أمامهم لحقول جديدة للكرازة،ومجالات جديدة للتبشير... أما الشبكة التجارية القائمة بين بلاد العرب وآسيا والهند والصين فقد كان لها إسهامها أيضاً. هنا أصبح المجال مفتوحاً أمامهم للالتقاء بشعوب وأجناس وأمم وللمناداة لهم بحق الإنجيل. أما العوامل الداخلية فقد كان لها نصيبها أيضاً. فعلاوة على غيرتهم وحماسهم، كان لهم الظهير القوى من رئاسة كنسية سريعة للعمل، ونظام رهبانى سباق للتضحية والخدمة الروحية، وليس للانزواء فى الصحارى. أما طريقتهم المرسلية فقد كانت طريقة عصرية إلى أبعد الحدود.

فحيثما أقيمت أسقفية ألحق بها مكتبة، ومدرسة، ومستشفى. ولقد كان النساطرة جهابذة فى العلوم، وفى الطب، حتى أثمرت مجهوداتهم ثمرات يانعة، أذهلت عقول المؤرخين، والباحثين. ولو كان المجال يتسع لأوردنا بالتفصيل ثمار المجهودات المرسلية التى قام بها النساطرة فى كل ميدان على حدة.

ولكن لعل القارىء العربى يهتم بمعرفة مجهوداتهم فى نشر رسالة المسيح فى شبه الجزيرة العربية. وربما نكتفى بهذا القدر كعينة لمجهوداتهم الكرازية.

أما عن الجزيرة العربية فإننا نقول إنها عرفت المسيحية قبل مجىء الإرساليات الأشورية بوقت طويل. ففى عام (٢٢٥ م) كانت هناك أسقفية مسيحية فى «بيت قطريه» فى جنوب شرقى الجزيرة، مقابل جزر البحرين، وهى التى تعرف الآن بإمارة قطر. أما قصة المسيحية مع قبائل حمير، وتغلب، وغسان، وطنوخ، وطى، وقضاعة، قبل ظهور الإسلام بحقب طويلة، فهى معروفة للقارىء اللبيب. وهناك قصة، لسنا ندرى مدى صحة تاريخيتها تؤكد أنه جلست على عرش الملك فى الجزيرة العربية فى حقبة ما، سيدة تدعى ماريا، وأنها أرسلت الدعوة إلى أسقف مسيحى يدعى موسى، ليقوم بالبشارة بين شعبها، ويستقر فى بلادها. ومنذ عام (٣٨٠ م) كانت هناك جماعات من المسيحيين لا يستهان بها بين قبائل الحيرة والكوفة.........

ولقد كان عرب الجزيرة بطبيعتهم البدوية السمحة المضيافة أول من فتح أذرع الترحيب، للنساطرة، الذين هربوا من بلادهم بسبب اضطهاد دولة الساسانيين فى فارس للمسيحيين، وعلى الأخص فى فترة حكم شابور الثانى (٣١٠ - ٣٧٩ م). وهناك بطبيعة الحال، ينطبق عليهم القول «والذين تشتتوا من جراء الضيق جالوا مبشرين بالكلمة». أما نشاطهم التبشيرى فى وسط، وجنوبى بلاد العرب، فقد سطر عنه الكثير فى «كتاب الحميريين» الذى كتب عام (٩٣٢ م)، والذى نجد فيه

إشارات ذات قدر عظيم من الأهمية، لنشاط أولئك فى القرن السادس عشر.

ويذكر ذلك الكتاب، ضمن ما يذكر، الاضطهاد القاسى، وبصفة خاصة المذبحة الساحقة التى تعرض لها المسيحيون العرب عام (٥٢٣ م)، فى نجران، وفى قبيلة حمير على يدى ملك عربى يهودى يدعى مسروق، وكيف هبت الحبشة بجيوشها، لإنقاذهم، وانتهى الأمر، عام (٥٢٥ م) بهزيمة مسروق،وانتحاره بإغراق نفسه فى مياه البحر الأحمر.

أما فى تلك الأثناء، فقد كان هناك ستة أساقفة فى الجزيرة. وكان هناك العديد من الكنائس فى صنعاء وعدن، وظفر، كما كانت هناك مدارس وأديرة فى ماروثا ويمانة. وفى منتصف القرن السادس، اعتلى كرسى العرش فى اليمن، ملك مسيحى يدعى «أرراها الأشرم»، فانتعش المسيحيون العرب فى عهده، وأقام كاتدرائية كبرى فى صنعاء. وعند ظهور الإسلام، نجد ثمة علاقة طيبة بين المسلمين والمسيحيين. «ولكن من واقع الحال نجد أنه بانتشار الإسلام فى القرن السابع، محقت المسيحية واليهودية على السواء من جزيرة العرب. ويقال إن آخر القبائل التى تمسكت بالمسيحية من العرب، جماعات من البدو الرحل، تعرف باسم بنى صالح (حتى عام ٧٧٩ م).

وقد انتهى أمرهم على يدى الخليفة المأمون، والخليفة المهدى الذى سبقه عام (٧٣٢ م). أما مجهودات النساطرة فى وسط آسيا وفى الصين فتضيق الصفحات عن استيعابها وإذا كان قد قدر للتائد المتعصب تيمورلنك، أن يذبح الألوف المؤلفة من المسيحيين،[1] فإننا نقول إنه لم يستطع أن يمحق المسيحية تماماً من هناك.وما زال فى تلك المناطق أكثر من شاهد على ذلك. حتى فى التبت نجد فى ممارسات اللامية ما يشير إلى أثر المسيحية الأشورية، فى استخدام للماء المقدس، والبخور،

(١) يقال إنه صنع هرماً فى أصفهان من جماجم ٧٠,٠٠٠ قتيلاً، وبين خرائب بغداد.

وثياب الكهنوت، وغير هذه، حتى أن بعض النقاد المغرضين اختلط عليهم الأمر، فقالوا بأن المسيح ذهب إلى وسط آسيا، واستقى تعاليم المسيحية وممارساتها من البوذية! ويكفى أن نقول إن البوذية لم تدخل التبت قبل عام (٦٤٠ م) على أن أبقى الآثار لمجهودات النساطرة، كان فى تبشيرهم بالإنجيل فى منطقة الهند الجنوبية، حيث مازالت كنيسة القديس توما، ذات تأثير وفعالية وكيان. ومع أن تلك الكنيسة قد تغيرت طقوسها، وسادها الانقسام إلا أنه لا محيص من اقتران نشأتها بمجهودات الكنيسة الأشورية وتقاليدها.

وتحت حكم الخلفاء المسلمين انتعش النساطرة، حيث احتلوا مراكز رئيسية فى البلاد بسبب ثقافتهم، وتقدمهم فى العلوم وكانت النتيجة ازدهار الكرازة حتى وصلت، علاوة على رقعة آسيا، إلى مناطق غامضة سحيقة مثل جزيرة سوكوترا فى المحيط الهندى، حيث اكتشف أحد الرحالة مسيحيين فى القرن السادس. ولا يذكر التاريخ اضطهاداً على النساطرة وقع أكثر مما فى حكم الخليفة المهدى[1] (٧٧٥ - ٧٨٥). أما ما يروى عن هارون الرشيد، كيف أنه أمر بهدم الكنائس فى البصرة، فمرده إلى أن أحد الحاقدين وشى إليه بأن المسيحيين يضمون فى كنائسهم عظام الموتى ويعبدونها. فلما عرف الخليفة بعد ذلك بحقيقة الأمر، أصدر أوامره بإعادة بناء ما هدم. أما غير ذلك فلا يزيد عن حوادث فردية، نتيجة وشايات، فى معظم الأحوال، من المسيحيين بعضهم ضد البعض الآخر... ومادام، المسيحى لا يتعرض للمسلم بالقدح فى دينه، ولا يحاول كسبه إلى صفه بالتبشير،ويؤدى ما عليه من خراج ويقوم بكافة واجباته فى هدوء، ويرتدى زيه المميز، ولا يرتفع ببناياته فوق البنايات. ولا يسبب إزعاجاً بأجراس الكنائس، ولا يركب الخيل، فلن يتعرض للعقاب. ويكفى أن نقول إن حنين بن إسحق مفخرة

---

[1]) صنع هرماً أكبر من جماجم ٩٠,٠٠٠ قتيلاً.

عصره، ورئيس «دار الحكمة» كان نسطورياً. عدا ذلك فهناك نساطرة أطباء شقوا طريقهم إلى قصور الخلفاء، مثل بن بختيشوع الذى كان طبيب الخليفة المنصور، والذى ذاع صيته فى بلاط هرون الرشيد، والذى استمرت مدرسته الطبية ستة أجيال تالية، يتناقل أبناؤها أسرار الطب، عن آبائهم، وأجدادهم.

ولقد كانت هذه العصور حتى القرن العاشر، العصر الذهبى للنساطرة، ثم بدأ عصر تدهور الكنيسة بعد ذلك، حينما بدأ الصراع على كرسى البطريركية فى الداخل، كما كانت هناك عوامل خارجية، أهمها استخدام الخلفاء للأتراك ضمن حراسهم من الجند، وأولئك سعوا إلى التعالى والنفوذ وسلب السلطات من الخليفة. ثم كان هناك الأكراد وقوة نفوذهم وحروبهم المستمرة ضد النساطرة. ثم جاء دور الخانات أو ملوك فارس، حيث كان أقسى اضطهاد وقع على المسيحيين هناك فى أوائل القرن الرابع عشر. فى عهد المدعو «أبو زيد خان» حيث ذبح وسبى أكثر من اثنى عشر ألفاً من المسيحيين. أما البطريرك الأسقف مارغريغوريوس فقد استشهد بالضرب حتى الموت.

وأخيراً جاء دور تيمورلنك (١٣٩٦ - ١٤٠٥ م) ومحاولته سحق المسيحية، فى ربوع آسيا، وبلاد فارس، والعراق. ثم الهند. وكيف كان للنساطرة النصيب الأكبر من الاضطهاد والاستشهاد وانكمشوا أخيراً إلى قبائل فقيرة يسودها الجهل وتسكن الجبال..

إلى أن تم اكتشافهم أخيراً على أيدى الإرساليات الغربية. ويبدو أن إرساليات الكنيسة المشيخية قد نجحت فى العمل فى وسطهم، على النقيض من المرسلين الكاثوليك، الذين يقابلون بكل ضيق صدر، بسبب الاعتقاد السائد بين النساطرة أنهم يتعبدون للصور والتماثيل.... وقد أحسن المرسلون صنعاً، فى الحفاظ على الكتاب المقدس، كما يقرأ فى لغته السريانية، فقاموا بطبعه وتوزيعه هناك.

والكنيسة النسطورية الكلدانية، تضم ثماني رتب كنسية: البطريرك، وهو أعلى سلطة هناك، ويجمع فى يديه السلطة الدينية، والمدنية على السواء، ويدعى الكاثوليكوس، وتحت الحكم التركى أعطى البطريرك كل هذه السلطات المستقلة ويدعى البطريرك أيضاً بين الشعب باسم الريس. وعلى رأس كل قبيلة يعين رئيساً مسئولاً من قبله، ويدعى الملك وقد ساعد فى هذا الوضع المستقل، معيشة معظم الشعب بين الجبال...

ويطلق أيضاً على البطريرك لقب «مارشمعون» وهو اسم متوارث مستمر بين كافة البطاركة، ويتميز به النساطرة تماماً، كما يلقب بطريرك اليعاقبة باسم مارأغناطيوس والرتبة البطريركية بالوراثة. وقد يحدث عند موت أحد البطاركة، أن يتولى الكرسى، صبى، أو طفل تشرف على أموره شقيقته فتكون النتيجة وبالاً على المجتمع النسطورى بأكمله، فإذا انتهى الوريث من فرع من الأسرة، أقيم الانتخاب الحر لانتخاب بطريرك جديد.

ثم يأتى دور المتروبوليت أى المطران. وهو يطلق عليه اللقب السريانى «مار حنانيشو» أى حنان يسوع. ويسرى عليه نفس نظام الوراثة أيضاً.

ثم الأبسكوبا، أى الأساقفة، والأرشيدياكون، أو رؤساء الشمامسة،والقشيشة أى القساوسة، والشماسة أى الشمامسة، والأبودياكون أى مساعدو الشمامسة، والقاروبا، وهم القراءون للأناجيل....

وتوافق سياسة الكنيسة هناك على زواج الإكليروس، عدا الرتب العليا. بل إن الكنيسة النسطورية تزيد على كافة كنائس المشرق، بأنه فى حالة وفاة الزوجة فللكاهن الحق فى الزواج أكثر من مرة.

والنساطرة أكثر كنائس الشرق حفاظاً على الإيمان. وهم يتبعون قانون الإيمان

النيقوى. إلا أنه كما أسلفنا،فى أوائل القرن الخامس حينما ثارت بدعة نسطوريوس (٤٣١ م) تمسكوا بعقيدة الطبيعتين. أما عن الروح القدس فيعتقدون شأنهم شأن الأقباط الأرثوذكس أنه ينبثق من الآب، كما من الابن.

أما رفضهم للصور والتماثيل، فقد دفع ببعض النقاد خطأ إلى المناداة بأن النساطرة هم بروتستانت الشرق.وهى أسطورة ينفيها تمسكهم بالليتورجية الخاصة بهم، والتى تبلورت في حياتهم الأولى فى أديسا ، ثم فى نزوحهم بعد ذلك إلى ربوع فارس، مع إضافة شىء من الملامح الأنطاكية لها.وهى تستحق منا الدراسة والاهتمام،لأنها تمثل المسيحية الأولى البدائية، التى لم تتأثر بفلسفات التعاليم الأخرى. ولا باللوترجيات اليونانية أو اللاتينية، أى أنها تمثل الفكر المسيحى فى أقدم ممارسة كنسية فى العالم، على حد تعبير بعض النقاد. ولكل مناسبة قداسها الخاص. وهم يقدسون ممارسة التناول، فيصومون الليلة السابقة لها ، وطول اليوم التالى. ومع ذلك فلا يهتمون بأن يسبقوها بالاعتراف على يدى الكاهن. أما القربان المقدس، فهم يعتبرونه واحداً من أسرار الكنيسة السبعة، ويعتقدون أنه بالفعل استمرار لنفس الخبز الذى تناوله المسيح فى ليلة الصلب وكسره بيديه.

أما أسرار الكنيسة النسطورية فهى، المعمودية، والزيجة، والعشاء الربانى، وسر التثبيت. والثلاثة الباقية يدور حولها أكثر من جدل، وهى بركة الرهبان، والصلاة على الموتى، وزيت المسحة، والحل، والقربان المقدس، ورشم الصليب، وغير ذلك من الممارسات.

أما المعمودية فهى سر هام عند النساطرة، وتمارس على مراحل. فعند ولادة الطفل يُغسل بالماء المقدس، ويباركه الكاهن بالصلاة. وفى وقت الأعياد يقوم الكاهن أيضاً بممارسة عماد جماعية فى خدمة خاصة لكافة الأطفال، والمعمودية تتم بالتغطيس ثلاث مرات، تجاه الشرق. وبعدها يمسح الطفل بزيت المسحة.

أما منشأ الرهبنة فإنه يرتبط هناك، بصياد لاجىء فى البحر الأحمر فى مدينة كليزما فى القرن الرابع. ويقال إنه تنقل فى أديرة طيبة، ثم فى صحراء سيتى فى وادى النطرون. وربما تتلمذ على يدى باخوميوس، منظم الأديرة المصرية، وبعد ذلك، انضم إليه سبعون من رفاقه، حيث استقر بهم المقام فى وديان العراق شمالى نصيبين. وتزايد عددهم بعد ذلك. ويقال إن ذلك الراهب، ويدعى مارأوغين، قد اعتزل عن الجميع فى جبل إيزالا، وتفرق أيضاً تلاميذه، كل فى مكان منعزل - من هنا كان منشأ الرهبنة النسطورية، والسريانية معاً، لأنه لم يكن قد حدث الانشقاق بعد.

والرهبنة بعد ذلك تذخر بالكثير من الشحطات. ولعل أقواها فئة أطلق عليها لقب المصلين، وهم جماعة صوفية من الرهبان الشحاذين المتجولين، لا ينتسبون لأى دير، ظهروا منذ القرن الرابع، وكانوا سبب متاعب للكنيسة، واستمروا حتى بعد القرن العاشر، وقد كانوا يعتقدون أن الشيطان كامن فى قلب الإنسان، ولن يخرجه إلا الصلوات الكثيرة المتكررة. ومتى خرج، يحل الروح القدس فى مكانه واهباً للنفس الرؤى الطوباوية، والقوى المعجزية. فإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى تحرر من كل ناموس، حتى ناموس الكنيسة وأصبح ناموساً لنفسه، وتحت ستار الدين، اندفع كثيرون منهم فى مخازى أخلاقية، وقد حرمتهم الكنيسة فى الشرق كما بين النساطرة.

والنساطرة الآن قطيع، يحاول أن يسيطر عليه أكثر من هيئة فى الشرق والغرب. ولقد حاولت الكنيسة الكاثوليكية ذلك، فلم يقدر لها النجاح. ودخل الأسقفيون بعدهم عن طريق القس يوسف ولف (١٨٢٧) وقاموا بطبع الكتاب المقدس بالسريانية، وتوزيعه فى الكنائس. وكان للمعمدانيين، وغيرهم مجالهم أيضاً. وهناك فئة منذ القرن الثامن عشر، فضلت الانضمام إلى الكنيسة الروسية

الأرثوذكسية، واستقر بها المقام عبر حدود روسيا القيصرية.... وتحت الحكم العثمانى القاسى، تعالت الأصوات طالبة منها حماية الشعب المسيحى. ولقد كان للروس مجال خدمتهم. وقسموا الشعب إلى أبروشيات وبنوا كنيسة كبرى فى أورميا. ويقال إن عدد من ينتمون إلى الكنيسة الروسية وصل إلى عشرين ألفاً من النساطرة.

على أن أقوى الأثر كان للكنيسة المشيخية الأمريكية التى أقامت المدارس، والمستشفيات، إلى جوار الكنائس، وكان لها اهتمامها برفع مستوى الشعب روحياً واجتماعياً.....

ومع ذلك تبقى الكنيسة الأثرية القديمة، كنيسة النساطرة كأقوى شاهد على عمل المسيحية، عبر العصور والأجيال.

الفصل الرابع عشر

افول الادب السريانى

أشرنا فى فصل سابق، إلى مجهودات السريان فى ترجمة الكتاب المقدس، كما فى تقدم العلوم اللاهوتية، تلك المجهودات التى تضم الكنيسة السريانية جنباً إلى جنب مع إخوتها اليونانيين، والأقباط، وعلماء اللاتين. وقد رأينا، أنه قبل القرن الخامس وقبل أن تحتدم المناقشات بين السريان الغربيين (المنوفزيتين)، والسريان الشرقيين (الديوفيزيتيين)، ويحدث الصدع فى كيان الكنيسة السريانية وتنقسم إلى يعاقبة ونساطرة، كان الأدب السريانى موحداً. وكان فى صورته العامة عدا الاتجاه إلى نقل العلوم اليونانية إلى السريانية كتابياً فى طبيعته، لاهوتياً فى صبغته، يتجه أكثر ما يتجه إلى شرح العقيدة المسيحية، والدفاع عنها، وتفنيد ادعاءات المقاومين لها. وإنا لنجد أسماء لامعة تنتسب إلى العصر السريانى الأول. نذكر منها أفراتس وأفرايم السريانى الأول. ونذكر منها رابولا. بل إن الأسماء الظاهرة فى تاريخ الأدب السريانى تنتسب إلى تلك الفترة. والآن، فى دراستنا لتاريخ النساطرة، يلزمنا أن نتتبع الأسباب التى أدت إلى انهيار الأدب السريانى. ومنذ الانفصال الذى حدث بين السريان، فانشقوا إلى شرقيين نساطرة، وغربيين يعاقبة، بدأ انفصال النساطرة عن الأدب السريانى بالظروف الجديدة التى عاصروها فى هجرتهم إلى بلاد فارس، ومعيشتهم هناك، ثم فى رحلاتهم التبشيرية وحملاتهم فى آسيا والشرق الأقصى. وبعد ذلك جاء دور العرب. فإذا بالنساطرة يلقون بقرعتهم وسطهم، مجتهدين أن يصطبغوا بالصبغة العربية، وتصبح مهمة ترجمة الأدب اليونانى إلى السريانية، شيئاً أثرياً، أو وقفاً على العلماء النساطرة فحسب. وليس معنى هذا أن حقل السريانية قد أصبح عقيماً تحت هذه الظروف. فإننا نسمع فى عهد الخليفة عمر، عن واحد يدعى يوسف حزايا نسطورى من أصل

فارسى، اختطفه جنود الخليفة، وباعوه عبداً رقيقاً. ولكنه استرد حريته فى كردستان. وهناك أسس ديراً وبرز فى العلوم اللاهوتية السريانية. ويقول عبد ايشو عنه إن مؤلفاته فى السريانية وصلت إلى ألف وتسعمائة مؤلف معظمها قد فقد.

ولكن هذه تعتبر حالات فردية. فمع أن السريانية قد بقيت بين النساطرة لغة التخاطب، إلا أنها لم تعد بعد لغة الأدب، وخاصة تحت حكم العرب. وقد نقرأ عن علماء كبار فى أيام الخلفاء الأولين، أمثال حنين بن اسحق ومدرسته. ولكن هذا العالم وأمثاله، آثروا أن يكتبوا جل مؤلفاتهم بالعربية. على الرغم من أنهم كانوا يجيدون السريانية أيضاً. ومع أننا نجد كثرة من القواميس السريانية، وأصول اللغة فى هذه الفترة، إلا أن هذه تشير إلى خوف أولئك العلماء من اندثار السريانية إلى الأبد، نتيجة تصاعد قوة العربية.

هذا ما نراه من أعمال «ايشو بار على» أحد تلامذة حنين الذى وضع قاموساً مزدوجاً يضم السريانية إلى جانب الكلمات العربية. وكذلك يحيى بن مساويه الذى ألف فى الطب بالسريانية والعربية أيضاً. والياس النصيبى وغيرهم.

ولم يكن للنساطرة فى القرون الوسطى جبابرة فى الأدب السريانى مثل بارصليبى وبارهبرايوس بين اليعاقبة. وذلك لأن عملية تدهور الأدب بين النساطرة استغرقت وقتاً أطول. وإننا لنجد القرن الثالث عشر هو الحد الفاصل الذى فيه توقف الأدب السريانى بين النساطرة تماماً...

ونستطيع أن نقول إن اضمحلال الأدب السريانى قد بدأ هناك منذ القرن التاسع. هناك نلتقى ببعض الأسماء مثل تيموثاوس الأول الذى قدم بحثاً فلكياً بعنوان «كتاب النجوم» ولكنه لم يصل إلينا. وكذلك كتب دفاعاً عن المسيحية فى صورة محاورات بينه وبين الخليفة المهدى (٧٧٥ - ٧٨٥). على أن أهم أعماله «تفاصيل مناقشات المجامع الروحية» على مدى خمسة عشر عاماً.

وفى عـام (٨٢٣) يظهـر اسم البطريرك يشـوع بن نون الذى نـصب بوسـاطة جبرائيل بختيشوع طبيب الخليفة المأمون. ولقد قدم بحثاً فى قواعد اللغة، وبضعة أبحاث لاهوتيـة. وفى حوالى عام (٨٥٠) قدم ايشو داد ما يعتبر أوفى تفسير للكتـاب المقدس بين النساطرة. وفى نهاية القرن التاسع يبرز اسم أسقف البصرة ليقدم لنا إنتاجه فى المنطق والتاريخ الكنسى. أما فى القرن العاشر فلا يظهر سوى اسم حنا بارخلدون الذى قدم شيئاً عن تاريخ الرهبان النساطرة.

وفى القرن الحادى عشر نجد هناك إلياس النصيبى (متوفى ١٠٤٩) الذى قدم تواريخه، علاوة على أبحاث لغوية. ثم عبد إيشو بار بهريز الذى كتب دراسات قانونية يمكن اعتبارها أصول القانون النسطورى.

أما فى القرن الثانى عشر، فمعظم الكتاب قدموا إنتاجهم بالعربية عدا واحد يدعى سيمون الشنكلاوى ترك لنا بالسريانية تاريخاً للبطاركة بين النساطرة.

ويتميز القرن الثالث عشر بالكتابة الشعرية، فهناك سليمان الخلاط متروبوليت البصرة يترك لنا عـملاً شعرياً بعنوان «النحلة»، وهو خليط من مادة تاريخيـة فى إطار خيـالى. ثم جورج وردة من أرابلا، الذى يعـتبـر المؤلف الرئيـسى للألحان والترانيم الكنسية التى أدرجت فى طقوس العبادة. ثم هناك كتابات شعرية أخرى قدمها جون الموصلى وغيره.

الشخص الوحيد الذى يبرز اسمه فى ذلك العصر هو عبد ايشو بار بريخه الذى أصبح متروبوليت نصيبين وأرمينيا حتى وفاته عام (١٣١٨). ولو أنه فى مستوى بارهبرايوس بين اليعاقبة، إلا أنه يحتل مقاماً كبيراً بين النساطرة. ونظيره أصبح الاسم الأخـير اللامع فى سلسلة الكتاب هناك. ولكن على عكسـه ضـاعت كل مؤلفاتـه ولم يصل إلينا منها شىء، وما كان يمكننا أن نعرف حتى عناوينها، لولا

أنه أثبت أسماءها فى ذيل تاريخ الأدب الكنسى الذى صنفه عام (١٣١٦). أما ذلك التاريخ على ما فيه من قصور، فإنه يعتبر دليلاً ثميناً للأدب السريانى، مع إشارة خاصة للمصادر النسطورية. ويقسم الكاتب عمله إلى أربعة أجزاء: الأول يختص بالكتب التى ألفت عن العهد القديم، وأسفار الأبوكريفا، والثانى بما كتب عن العهد الجديد، وأسفار الأبوكريفا، والثالث يقدم لنا ملخصاً عن كتابات الآباء، اليونانيين باللغة السريانية، أما الرابع فيختص بكتابات السريان الآباء والنساطرة منذ القرن الخامس. وهو فى هذا المصنف يعرفنا بأسماء ما كان ممكناً أن ندرى عنها شيئاً فى مكان آخر. على أنه يبدو أنه كتب هذا الكتاب لنفسه وتلامذته. ولذلك فهو لم يهتم بالتعريف بالكتب التى كانت متداولة لديهم، ليكون عمله شاملاً. كما لم يقدم لنا ملخصاً عن كل كتاب، أو تاريخ كتابته.

وكتابات عبد ايشو الضائعة تتضمن تفسيراً شاملاً للكتاب المقدس وتاريخاً لحياة المسيح، ثم دفاعاً ضد الهرطقات، وبحثاً فى أسرار الفلسفة اليونانية، ومما وصل إلينا كتابه «اللؤلؤ» وهو بحث فى عقيدة الكنيسة النسطورية ويعتبر المرجع الأول فيها. ثم القوانين المجمعية النسطورية، ويقابلها عمل مماثل قام به هبرايوس بين اليعاقبة. وحسب عادة عصره، قدم أيضاً كتابات شعرية كسبت له ذيوعاً ومقاماً. ولعل أهمها «جنة عدن» وهو ديوان شعرى من خمسين قطعة لاهوتية، وتأملية كتبها على غرار مقامات الحريرى. ومع أن أداءه لا يصل فى مستواه إلى الحريرى، إلا أن نسيجه الشعرى يتميز بالخيال العريض، والمقدرة على النظم الشعرى بصورة فريدة. وقد أنجز هذا الديوان عام (١٢٩٠) ولكن الأمر اقتضى هوامش، وتفسيرات صدرت عام (١٣١٦). وهناك ديوان آخر له عن محبة الحكمة... من اثنين وعشرين قصيدة.

وكما قلنا فإن عبد ايشو يحتل فى الأدب النسطورى المقام الذى يحتله بار

هبرايوس بين اليعاقبة.. وبعد عصره، لم تصبح السريانية بعد لغة الأدب، بل أصبحت مجرد لغة الخدمات الكنسية باستثناء ما كتبه البطريرك تيموثاوس الثانى بالسريانية عن الأسرار الكنسية عام (١٣٢٨).

الفصل الخامس عشر

كنيسة جنوب الهند

وما ختمنا حديثنا عن الكنيسة السريانية، وكنيسة النساطرة بهذا الفصل إلا للصلة الوثيقة بين كنيسة الهند في مالابار، ومجهودات السريان، وأتباع الكنيسة النسطورية في تأسيسها هناك...

وكنيسة جنوب الهند، تفخر على الدوام، أن مسيحيتها، استناداً على تقاليد قديمة، ترجع إلى العصر الرسولي، وأنها أدخلت إلى «مالابار» عن طريق توما الرسول الذي يقترن باسمها هناك. وهناك واحد من كتاب النساطرة الأولين، ويدعى برديسانس، (١٥٤ - ٢٢٢)، يُنسب إليه كتاب أبوكريفي باسم «أعمال يهوذا، وتوما الرسول».. عرض إلى هذا التقليد. وخلاصته: أن الملك الهندي جوندوفارس، أراد أن يبني قصراً لنفسه، فأرسل واحداً يدعى أبانس إلى أورشليم، ولعله قد بهرته بناية الهيكل الفاخرة، ويلتقي هذا السفير بيسوع، فيرشده إلى سوق أورشليم، حيث هناك تلميذه توما. ويطلب من توما أن يذهب معه. وهناك يلتقي بالملك الهندي فيعطيه مالاً وفيراً لبناية القصر. ويوافق توما على ذلك، على الرغم من أنه لا يدري شيئاً في فن البناء. ولكنه قد وضع في قلبه، أن يرشد الملك إلى بناء روحي بدلاً من قصر مادي. وهكذا بدد كل المال موزعاً على الفقراء، والمساكين. وحان ميعاد تسليم «القصر» فكان من نصيب توما السجن، وتمضي القصة لتقول إنه في تلك الأثناء أصيب شقيق الملك بمرض خطير ومات. ولكنه في أثناء دفنه عاد إلى الحياة، ليروي للملك أنه شاهد بعينيه قصراً سماوياً غاية في الجمال، بناه له القديس توما هناك في السماء مقابل توزيع أمواله على الفقراء. ويسرع الملك بإطلاق سراحه، وينال المعمودية على يديه.

وتتأسس الكنيسة على هذا النحو...

والتقاليد تروى ما هو أكثر غرابة بعد ذلك مما حدث على يدى توما الرسول. إلى أن نجده يعهد بالكنيسة إلى شماس يدعى زانتبوس ويرحل إلى أماكن أخرى مبشراً بالإنجيل، حيث ينال فى النهاية إكليل الاستشهاد. وبعد ذلك يقال إن واحداً من النساطرة العاملين معه، نقل الرفات إلى أديسا حيث دفن هناك، دون علم بملك البلاد. ويتصادف أن يصاب ابن ذلك الملك بمرض يحار فيه الأطباء، فيريد أن يلجأ لشيء من تراث القديس، ويفتح المقبرة فلا يجد الجسد. ولكنه يأخذ قبضة من التراب، يكون فيها شفاء ابنه.

ولقد قامت مدرستان حول هذا التقليد. أما المدرسة الأولى فقد رفضت القصة بأكملها، كتقليد لا سند تاريخى له. وحتى خدمة توما فى الهند رفضتها. هذه هى المدرسة القديمة. أما المدرسة الحديثة فمع أنها رفضت الأقاصيص التى نسجت حول تبشير توما فى جنوب الهند، إلا أنها لم ترفض إمكانة بشارته هناك. خاصة وأن كنيسة «مالابار» ترتبط باسمه منذ زمن سحيق. أما الصلة بين ربوع الهند، وبين الرومان فقد كانت قائمة منذ العصور القديمة. وكانت السفن تبحر إلى هناك لتعود محملة بالأفاويه، وحاصلات الهند. كما اكتشفت فى الحفريات، ما يشير إلى وجود النساطرة والسريان بين الهنود.

على أن أهم ما كشفت عنه حفريات الآثار، وجود قطع من النقد تحمل اسم الملك جوندوفارس وشقيقه جاد، وأن فترة حكمه كانت فى وادى الأندوس، ما بين (١٩ - ٤٥ م).

ومهما كانت حصيلة كل هذا، فهى على الأقل تشير إلى أن المسيحية شقت طريقها إلى جنوب الهند، منذ عصور سحيقة فى القدم وأنه من المؤكد أنها عرفت المسيحية قبل القرن الثانى للميلاد. ففى مؤلف نسطورى قديم، يرجع تاريخه إلى

أواخر القرن الثالث الميلادى، ويُعرف باسم «يوميات سيرت»، يذكر لنا المؤلف أن داود أسقف العرب قرر أن يترك كرسى البصرة ليتفرغ للتبشير فى بلاد الهند. وهناك أكثر من شاهد غير ذلك على هذه الحقيقة. كما أن الاضطهاد المر الذى أثاره شابور الثانى (٣٠٩ - ٣٧٩) على المسيحيين النساطرة القاطنين فى بلاد فارس، قد عمل على تشتيت الجماعات الكثيرة، وهجرتهم من هناك إلى جنوب الهند.

ثم جاءت موجتان كبيرتان من هجرة النساطرة فى القرن الثامن بقيادة الأسقف توما، وجماعة من رفاقه من أرض العراق (٧٧٤ م). وأيضاً فى القرن التاسع بزعامة مارصابور. وقد وهبت سلطات الهند، هاتين الجماعتين، حقوقاً ومقاماً، تشير إلى علوهما فى نظام الطبقات، ولم تحتفظ لنفسها إلا بقانون العقوبات فقط. وهناك قام النساطرة بالتبشير بين الهنود، وإقامة الكنائس، والصلبان فى الميادين، التى ما يزال بعضها قائماً حتى الآن.

ولقد وصل النساطرة المسيحيون إلى هذا المستوى من القوة حتى أنه كان لهم، فى وقت من الأوقات، حاكماً من قبلهم، يعاونه فى تصريف شئون الجماعات رجل دين برتبة أرشيدياكون، ويدعى الكاثوليكوس النسطورى وفى حالة وفاة الحاكم، كان يقوم بمهامه إلى حين تعيين حاكم جديد من قبل بطريرك النساطرة. ولم يتوقف هذا النظام إلا قبيل هجرة البرتغاليين إلى الهند، بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى هناك.. ثم تأتى فترة مأساة الكنيسة الهندية الشرقية، حينما يبدأ غزو اليسوعيين هناك، وتعين روما راهباً من قبلها يدعى الكسيس منزيس، أسقفاً على جوا (١٥٩٨). وقد اتبع الكاثوليك محاكم التفتيش، وأساليبها الوحشية التى كانت تتبعها مع كل من يخالفونها فى الرأى لسحق المسيحية الشرقية فى الهند. ومع أننا لا ندين مجهودات قديس عظيم، مثل فرانز زافيير، وغيرته بالتبشير

باسم المسيح فى الهند، وغيرها من بلدان الشرق الأقصى، إلا أن الكاثوليك بعد ذلك، استغلوا تلك المجهودات، لصالحهم، ولفرض البابوية بالقوة فى تلك الربوع... كما قاموا بجريمة كبرى فى حق التاريخ، حينما أحرقوا كل الكتب والوثائق القديمة، وما يشتم منه أقل رائحة للهرطقة النسطورية، على حد تعبيرهم. الشىء الوحيد الذى بقى للكنيسة هناك، استخدام اللغة السريانية - الكلدانية فى ممارسة القداس.

ومع أن هذا الانتصار البابوى كان ساحقاً، إلا أنه لم يستطع أن يمحق الجذور النسطورية من أعماق الشعب. وهكذا نرى الشعب يتجه إلى إرسال سفارات إلى كراسى الأسقفيات فى الشرق، لتعيين أسقف من قبلهم وإعادة أمجاد الكنيسة القديمة. ولقد قام بطريرك الأقباط فى الإسكندرية بتعيين كاهن يعقوبى سريانى يدعى عطا الله، تحت اسم الأسقف أغناطيوس. ولقد وصل بالفعل إلى جنوب الهند. ولكن أنباء وصوله سرعان ما عرفت. فألقى اليسوعيون القبض عليه، وقدموه للمحاكمة وصدر عليه حكم الإعدام حرقاً كهرطوقى، فأحرقوه عام (١٦٥٤)، غير أن الحال لم يدم طويلاً بالنسبة لليسوعيين هناك. فقد جاء دور إرساليات الكنيسة الهولندية المصلحة. واستطاع الهولنديون عام (١٦٦٣ م) أن يسيطروا على كوشين، وعلى غيرها من المناطق. وأمروا بطرد جميع الكاثوليك، واليسوعيين من مالابار. ولم يتبق لهم فى جنوب الهند غير أسقفية ماجارا. أما الهنود المسيحيون فقد رحبوا بالهولنديين، كمن حررهم من نير روما. ولكن بقيت آثار الكنيسة الكاثوليكية فى زرع بذار الشقاقات، والخلافات العقائدية فى تلك الربوع، مما أدى إلى إضعاف كنيسة القديس توما. وتمزقها فى العصور اللاحقة، حتى أننا لنجدها تنقسم إلى فئات تنضم لأسقفية ماجارا، وتقسم يمين الولاء للبابوية، وفئات أخرى تتمسك بالكنيسة الأولى، كنيسة السريان، ومارتوما. ثم

جاء دور الإرساليات الأخرى....

وما كان الهنود الطيبون يهتمون من قبل بالخلافات العقائدية بين الشرق والغرب. وما كانوا من قبل يعرفون شيئاً عن الشقاق العقائدى بين اليعاقبة، والنساطرة، والبابويين. لقد كان كل همهم التمسك بالمسيح، وبمجموعة من الأساقفة تستطيع أن تحافظ على الكيان الروحى، وتهتم برعاية المؤمنين هناك...

إن مسيحية الهند الجنوبية الآن تضم الطوائف التالية...

أولاً: الكنيسة اليعقوبية الأرثوذكسية....

وهى التى قامت نتيجة انتفاضة الأرشيدياكون توما برامبل عام (١٦٥٣ م) ضد الكاثوليك فى محاولة لإعادة أمجاد كنيسة النساطرة القديمة. ولقد اتصل ببطريرك أنطاكية السريانى، فأرسل إليه رئيس أساقفة أورشليم لسيامته أسقفاً هناك. وقد أطلق على جماعته لقب اليعقوبيين، ولكنهم لم يتخلوا عن معتقداتهم الأولى، ولا عن تقاليدهم. وقد حدث أول انشقاق فيها عام (١٧٥١ م) واستقل أحد الأساقفة مكوناً كنيسة خاصة منشقة. وفى القرن التاسع عشر، جاء الانقسام الثانى، تحت تأثير تعاليم الإرساليات الغربية، التى اجتذبت عدداً كبيراً من الأمناء، كونوا فيما بينهم ما عرف بالكنيسة اليعقوبية المصلحة....

وهناك من اليعاقبة السريان الذين يحبذون القديم، ويعارضون كل محاولة للتجديد، ما يقرب، على حد تعداد قديم، من ربع مليون عضو. أما رئيسهم (الكاثوليكوس) فهو يدعو نفسه بطريرك أنطاكية، وهذا لا يعنى بالطبع أن سورية خاضعة له. ومقره البطريركى فى كوثايان. وفى عام (١٩١٢ م)، انشق كاهن يدعى جورجيوس عنهم، وكون ما يسمى «المتمثلين بالمسيح»، كما تأسست هيئة أخرى لرعاية السيدات (١٩٢٥ م) بزعامة إحدى أخوات جماعة أوكسفورد، تخصصت فى رعاية وتعليم الفتيات....

ثانياً: الكنيسة اليعقوبية المصلحة.....

قلنا إن نتيجة جهود الإرساليات الإنجليزية التبشيرية فى القرن التاسع عشر، كان تهيئة الجو لانتشار الأفكار والعقائد البروتستانتية. ولقد كانت حصيلة ذلك قيام هيئة جديدة فى قلب الكنيسة الأرثوذكسية السريانية، اعتنقت الأفكار المصلحة، بينما بقيت أمينة للنظام القديم. وفى الوقت نفسه، استمر القدامى فى الحفاظ والتمسك بمعتقداتهم وممارساتهم. وهكذا اتخذت تلك الجماعة الجديدة لنفسها لقب «اليعاقبة المصلحين». ووجدوا رئيساً ورائداً لهم فى أسقف طُرد من الكنيسة اليعقوبية يدعى مار متى أثناسيوس. ومع أن هذه الهيئة المصلحة، قد أصدر عليها ماراغناطيوس عبد المسيح بطريرك أنطاكية، حكم الحرم عام (١٨٧٥ م)، إلا أنها تزايدت بمعونة السلطات الإنجليزية فى ذلك الحين، وكسبت أتباعاً كثيرين، بلغوا حتى عام (١٩٢١ م) ما يزيد على مائة ألف وتمارس الكنيسة المصلحة، كافة مراسيم العبادة السريانية إلا أنها قد انتزعت من لوترجيتها، كل ما يشير إلى تكريم العذراء،والقديسين، وكذلك الصلوات على الموتى، وعقيدة الاستحالة فى ممارسة التناول، وغير ذلك من المعتقدات الأرثوذكسية.

ويشرف على رئاسة الكنيسة المصلحة ثلاثة أساقفة.....

ثالثاً: كنيسة النساطرة....

وهى أقدم الجماعات، وتتمركز على ساحل مالابار. وقد أحيتها وأظهرتها للوجود مجهودات كاهن يعقوبى منشق، يدعى أنطونيوس تونداتا. اتصل بكاثوليكوس قد شانس النسطورى، فرسمه أسقفاً هناك باسم «عبد يشو» أى «عبد يسوع». وبعد موته عام (١٩٠٠ م) عين بطريرك قد شانس أسقفاً جديداً يدعى مارأبيمالك تيموثاوس، الذى أطلق على نفسه لقب «متروبوليت مالابار والهند». وهذه الجماعة قلة إذ يبلغ تعدادها خمسة عشر ألفاً فقط. أما صلتهم

بالمبتدع نسطوريوس، فهى صلة اسم فقط، كما «أسلفنا القول فى مستهل حديثنا عن النساطرة، وليس صلة عقيدة... ومسيحية الهند لها صبغتها الخاصة المميزة، التى فيها يشترك العابدون مقدمين صورة خاصة لفريضة ممارسة التناول. فقبل فجر الأحد يسرع المسيحيون إلى الكنائس، تاركين صنادلهم فى الرواق الخارجى، أما الرجال فإلى الجانب الشمالى، وأما النساء فيتجهن إلى الجناح الجنوبى، وقد غطين رؤوسهن. وحضور الكنيسة واجب ملزم لا يتخلف عنه أحد. لأنهم يرون فيه ليس واجباً روحياً فقط، بل أيضاً صلة تعارف ومحبة وأخوة. إن الهندى لا يهتم كثيراً بالعقيدة، قدر اهتمامه بالجانب التعبدى الروحى السرى فى الديانة.

وتقدمة الأفخارستيا -وهنا نشير إلى ممارسة الكنيسة اليعقوبية الأرثوذكسية - هى ذبيحة بالنسبة للهندى، الذى له خلفيته فى نظام الذبائح، والتقدمات الهندوسية.

وفى الأعياد، يجتمع العابدون فى الكنائس فى ليلة العيد، وبعد الصلاة والتسبيح، يخرجون من الكنيسة حاملين الصلبان، والمجامر والرايات، والمظلات، وهم يهتفون مهللين. ثم يعودون إلى فناء الكنيسة ملتفين حول الصليب المرتفع القائم على الصخرة، حيث يقوم الكاهن بالصلاة مردداً البخور أمام الشعب. وبعد ذلك يدخلون إلى الكنيسة حيث يشتركون فى وليمة محبة. وبعد الانتهاء من الطعام، يقدمون تقدماتهم فى صندوق يعلوه الصليب....

وفى الأصوام، يمتنع الهنود عن كافة اللحوم، والأسماك وجميع منتجات الحيوان. ولقد ساءهم أن يشاهدوا الكاثوليك البرتغال فى القرن السابع عشر، يبيحون أكل السمك فى الصوم الكبير. وهم فى إيمانهم بقيامة الأجساد فى اليوم الأخير لا يشاركون الهنود فى عادة إحراق أجساد الموتى. ويقال إن الأجيال القديمة، كان يحرص الواحد منهم حتى على ضرس يقتلع منه، على أساس

الاحتفاظ به مع الجسد بعد الموت. أما الكنائس، فهى على نظام الكنائس السريانية، ولو أن اللمسات الهندية يمكن أن يكتشفها الإنسان فى أكثر من صورة وعلى سبيل المثال جرن المعمودية منحوت من الحجر على شكل زهرة اللوتس، ويقوم على أربعة أسود منحوتة من الحجر. وكذلك نظم الإضاءة والمصابيح.

أما إكرامهم للصليب فيبدو غاية فى التأثير. فالصليب يتخلل الكنيسة والبيت، والأثاث، وكل شىء، وصور الصلبان الأثرية والبنايات يبدو فيها أثر الأجيال المتعاقبة، والشعوب التى توافدت على تلك البلاد. فهناك الصلبان التى يظهر فيها الفن السريانى، مع تنميق بالخطوط، والرسوم الفارسية. وهناك ما يظهر إزميل الفنان الهندوسي. وبعض الكنائس يظهر فيها أثر الفن البرتغالى وغير ذلك.

إن كنيسة جنوب الهند، على ما دخلها من شقاقات، وانقسامات، تقدم لنا الإنسان المسيحى الأصيل فى بساطته، وورعه وتدينه، على الرغم مما يسيطر عليه من آثار خزعبلات الماضى، من السحر، وغير ذلك. تلك الآثار التى تتلاشى وتتوارى شيئاً فشيئاً بإشراق نور التعليم الروحى، أو بتقدم الحضارة والمعرفة...

الجزء الرابع

الكنيسة المارونية

المسيحية الدامية فى ظلال الارز

الفصل السادس عشر

الموارنة بين ظلال الارز وظلال الفاتيكان

إن الأحداث المؤسفة التى فرضت نفسها على لبنان فى الأعوام الأخيرة، والتى أغرقت البلاد كلها «فى طوفان من اللهيب، والتى تحملت فيها الطائفة المارونية العبء الأكبر من الخسارة فى الأرواح، والممتلكات، قد خلقت أكثر من علامة استفهام: ترى من يكون الموارنة؟ ما هى الطائفة التى يتبعونها؟ هل يتبعون الكنيسة الشرقية أم الكنيسة الغربية؟ إلى أى مدى تمتد جذورهم فى تاريخ القطر الشقيق؟ وما هو سر وقفتهم على أرض صلدة؟

الكنيسة المارونية اليوم، هى إحدى القلاع الجبارة، للكنيسة فى الشرق الأوسط. وهى تحتل الجزء الأكبر من لبنان، كما تضم أكليروساً من المثقفين ثقافة عالية، وبمرور الأجيال، أظهر المجتمع المارونى، ميلاً للغرب أكثر من الشرق. فالمارونية منذ البداية لم تكن كاثوليكية فى الأصل. والحقائق التاريخية تشير إلى ينبوعها الشرقى. ولم يحدث انضمامها إلى المعسكر الغربى، إلا لظروف طارئة إبان الحروب الصليبية. فهو انضمام مصلحة أكثر منه انضمام عقيدة. بل إن أكثر من كاتب من الكتّاب الكاثوليك يؤكد أن الموارنة ما أصبحوا ضمن رعايا البابوية إلا فى العصور الوسطى المتأخرة.

ومع ذلك فقد احتفظت المارونية بملامحها الخاصة المميزة فهى قبل كل شىء مستقلة استقلالاً محلياً، تحت رئاسة بطريركها المارونى، الذى يشرف على كافة كنائسها مع إضافات طفيفة للغاية، تأكيداً لولائها للبابا. كما أنها، على النقيض من نظام البتولية السائد على كافة أعضاء الإكليروس الكاثوليكى، تبيح للرتب

الأقل فى الكهنوت، الزواج، وكذلك الاحتفاظ بالأسرة، ولو أن تلك الممارسة قد ألغيت بالنسبة للرتب الأعلى. إن أى عضو من أعضاء الطائفة المارونية، لو سألته، هل أنت كاثوليكى؟ لكان جوابه على الفور: أنا مارونى. ومما لاشك فيه، أن الكنيسة المارونية تبلورت كفرع من كرسى أنطاكية، الذى قدم للشرق طوائفه المختلفة المتفرعة عنه، مثل الكنيسة الأرثوذكسية الأنطاكية، واليعاقبة، والنساطرة. بل إن ذات لقب بطريرك الموارنة يشير إلى ذلك. فهو «بطريرك أنطاكية، وسائر المشرق». لذلك فليس من الغريب، أن نقدم فى هذه العجالة، لمحة عن هذه الكنيسة العظيمة، إلى جوار أخواتها كنائس المشرق.

والموارنة، هم أكثر الأقليات إثارة للباحث فى تاريخ مسيحية الشرق. فهم سلالة الفينيقيين القدامى. ولهم ولعهم بالتجارة، وركوب البحار، والهجرة عبر البحار. ومع ذلك لم يقلل هذا من احتفاظهم، بين مسيحيى الجبل الأشم بنسبة تصل إلى ثلثى تعداد المسيحيين هناك. أما طبيعة بلادهم، فقد جعلت منهم قلعة حصينة لكنيستهم. وإنك لتجد كنائسهم قائمة فى سفوح الجبال.وإليها كانوا يلجأون فى القرون الوسطى، من قساوة مضطهديهم من الأتراك. بل فى شقوق الصخور، احتفظ رهبانها بمشعل المسيحية مضيئاً فى أقسى الأوقات ظلاماً.. وترتبط نشأة الموارنة باسم سان مارو أو مار مارون الذى عاش فى القرن الرابع، واختار حياة الرهبنة، واتخذ لنفسه مقراً فى بقعة منعزلة على ضفاف أورنتس بين أفاميا وأميسا أى حمص. ويقال إنه قد التف حوله ثمانمائة من الرهبان تحت زعامته. وإنهم راحوا يبشرون بالإنجيل فى المناطق المحيطة..

أما شخصية مار مارون، فهى حقيقة تاريخية فوق كل شك. وهناك دليلان على ذلك. فيوحنا ذهبى الفم، وجه إليه رسالة من منفاه (٤٠٥ م) فى أرمينيا، طالباً من «الراهب الناسك مارون» صلواته ودعاءه. أما أسقف كورش، ويدعى

ثيودوريطس، فقد كتب قبيل وفاته عام (٤٥٨ م)، تاريخاً دينياً سجل فيه حياة العديد من الرهبان، ذاكراً ضمنهم مار مارون، وعدداً من تلامذته.

ومن السيرة التى كتبها ثيودوريطس، ندرك أن ذلك القديس عاش على قمة جبل، بالقرب من معبد وثنى حوله بتبشيره إلى كنيسة. وأن حياته قضاها فى الزهد، والصوم، والصلاة. وأنه كان قد أقام خيمة لسكناه، لكنه ما كان يلجأ إليها إلا نادراً. وأن أخبار قداسته ذاعت فى كل مكان، فتقاطر الناس إليه، يطلبون بركاته، وصلواته. وأن معظم رهبان عصره تتلمذوا على يديه. على أن المؤرخ القديم، لم يذكر سنة وفاته، ولكن من المرجح أنها كانت بين عامى (٤٠٥، ٤٢٣ م). كما أن مقر إقامته الذى أشرنا إليه، قد ثار حوله أكثر من جدل، فلم يثبت اكتشاف أية آثار مباشرة للقديس. ولكن من الثابت أن ديراً عظيماً قد قام منذ تلك العصور السحيقة، فى تلك البقعة عُرف باسم دير مار مارون. وأن هذا الدير قام حول كنيسة ارتبطت أيضاً باسمه قبل وفاة ثيودوريطس، فمن المرجح أن تكون الكنيسة قد أقيمت، حسب العادة المتبعة قديماً، على ضريح القديس.

ولقد ذكر الكاتب القديم أن الكنيسة التى شيدت حول مقر ذلك القديس، أصبحت مزاراً للمؤمنين، وقبلة للرهبان، والزاهدين وقد كتب فى تاريخه سيرة بعض هؤلاء الرهبان. وكانت قد انتشرت حياة الرهبنة متأثرة بمثاله فى وادى العاصى، حول أفاميا. ويقال إن أولئك الرهبان، قد أرسلوا عام (٥١٧ م) شكوى إلى البابا هرمزداس، بسبب الاضطهادات القاسية التى وقعت عليهم من السريان القائلين بالطبيعة الواحدة monophysites بقيادة ساويرا بطريرك أنطاكية، ويقال إنه استشهد فيها ٣٥٠ راهباً، يكرم الموارنة ذكراهم حتى اليوم.

أما الأديرة فلم تكن مأوى للرهبان فحسب، بل أصبحت مراكز إشعاع للمسيحية. فمن هناك كانت تخرج إرساليات داخلية للتبشير فى القرى المحيطة.

وكان الشعب يتهافت عليها للصلاة، والنصح. وبمرور الزمن، تجمعت حول دير مار مارون طائفة من المؤمنين متماسكة على قلتها، ثابتة على عقيدتها رغم الاضطهاد. ولقد وقفت راسخة فى وجه سلطة الملك، وسلطة البطريرك السريانى. ويعتبر عام (٦٢٨ م) نقطة تحول هامة فى تاريخ الكنيسة المارونية، حينما قام الإمبراطور البيزنطى هرقل بزيارة لموقع الدير، ليبحث مع رهبانه محاولة رأب الصدع فى العقيدة المسيحية. وقد نجح فى اكتسابهم لعقيدة مقدونيوس التى تناهض عقيدة المنوفزيتيين، أى القائلين بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة. وقد انشقت كنيسة المشرق بسبب عقيدة مقدونيوس، واعتبرتها الكنائس الأرثوذكسية، فيما بعد، هرطقة جديدة، وقفت فى وجهها بكل عنف. وقد داوم الموارنة على التمسك بعقيدتهم هذه، وشيئاً فشيئاً سلخوا أنفسهم عن السريان اليعاقبة، وعن الكنائس الأرثوذكسية وأصبحت عقيدتهم صورة مميزة لطائفتهم وقوميتهم... وفى واقع الأمر، لقد دخل هناك عاملان كان من نتيجتهما هذا التبلور الطائفى: الأول الفتح العربى، الذى أوقف الاضطهاد عن كثير من الطوائف المتفرعة من أصل بيزنطى، والثانى خلافات حدثت فى النصف الأول من القرن الثامن، أدت إلى نفى بطريرك أنطاكية إلى القسطنطينية. وبقى مسيحيو لبنان فترة طويلة دون رئاسة. وهكذا لم يكن هناك بد من أن يداووا الحالة بما تيسر من دواء، فانتخبوا بطريركاً، وأساقفة من ديرهم. وكان هذا بداية البطريركية المارونية، وما كان فيما فعلوا أدنى مروق عن الأصول المرعية. فكرسى أنطاكية لم يعد بعد خاضعاً لكرسى بيزنطة، وما اهتمت القسطنطينية بأن ترسل من قبلها من يجلس على الكرسى. وكذلك روما، ما كانت تتدخل فى ذلك العهد، فى أمر تعيين البطاركة أو الأساقفة. وكانت العادات تقضى بأن ينتخب البطريرك رجال الإكليروس. وهذا ما فعله الموارنة فى ذلك الحين.

ولقد انتهى الصراع بين المنوفيزيت، أو القائلين بالطبيعة الواحدة، وبين

الديوفيزيت، القائلين بالطبيعتين والمشيئتين، بحكم المجمع السادس عام (٦٨٠ م). وفيه انتصر المنوفيزيتيون على خصومهم. ولم يجد الموارنة، إزاء ما لاقوه من اضطهاد بسبب تمسكهم بعقيدتهم، إلا أن ينزحوا عن وادى العاصى، إلى الشمال.

ولقد زاد فى أسباب الهجرة أيضاً الفتح العربى لسورية قبل منتصف القرن العاشر. ولقد ذكر المسعودى المتوفى سنة (٩٥٦ م)، إن «دير مار مارون، والصوامع المحيطة قد دمرت من جراء غزوات العرب». وهكذا لم يبق من الموارنة فى سورية إلا أفراد قلائل. أما الجماعة كلها فقد نزحت إلى مقر آخر...

هذا من جانب. ومن جانب آخر يؤكد أحد المؤرخين أن أول كنيسة فى جبال لبنان الشمالية، يرجع تاريخها إلى عام (٧٤٩ م) وتُعرف باسم كنيسة مار ماما فى أهدن... ومن هنا نستنتج أن الهجرة من وادى العاصى إلى لبنان بدأت بعد سيطرة العرب على بقاع سوريا. ولم تأت نهاية القرن الثامن، حتى كان الموارنة قد استقروا فى موطنهم الجديد فى لبنان.

وفى ظلال الأرز، وعلى سفوح الجبل الأشم، كان للموارنة تاريخ جديد. نكتفى بما أورده اثنان من كتّاب الغرب يقول أحدهم[1]: «ما أن اعتصم الموارنة فى جبالهم، حتى ألفوا أمة على نصيب كبير من الاستقلال. فقد تمكنوا، فى حصون جبالهم العصية، من صد الزحف العربى، حتى أصبح لبنان قلعة المسيحية فى الشرق. وقد نظموا أنفسهم تنظيماً قوياً، فى شبه عزلة، بإدارة اكليروسهم، وكبار ملاكهم. ولم تكن طبيعة البلاد الجبلية، مما يسمح بتأسيس المدن. فقامت القرى الكبيرة. وكل منها ملك لأحد الملاك. وكل قرية، وكل منطقة، كانت لها حياتها الخاصة، التى تتآزر مع غيرها فى وحدة تتمركز حول البطريرك - وما أقوى هذه الرابطة إبان الملمات، وفى وجه العدو المشترك».

---

(١) رستلهوبر فى كتابه، «تقاليد فرنسا فى الشرق».

وقال آخر[1]: «إن الموارنة قد انتشروا فى لبنان وتغلغلوا فيه. ولكن عزيمتهم استطاعت أن تذلل الهضاب، والصخور، وتحولها إلى جنات، وبساتين معلقة».

ولكن واأسفاه. لو أتيح لهذين الكاتبين، أن يبعثا اليوم، فماذا عساهما يكتبان عن لبنان الذى تحول إلى حطام خربة محترقة، وقد تناثرت وسطها أشلاء أبنائه؟ ولكن لعله من قلب الأتون، سيخرج لبنان جديد، بقيم جديدة، تعود به إلى مفاهيمه الروحية الأولى...

نقول إنه على الرغم من أن لبنان، كان المركز الأصيل للموارنة الذى تبلورت فيه قوميتهم، وظهرت مفاهيمهم الروحية، إلا أن هذا لم يمنع من وجود جاليات مارونية، تمركزت فى البلدان المحيطة. وإننا لنجد أحد الكتاب السائحين فى القرن الحادي عشر، ويُدعى «يؤنس ورذبرج»، يحدثنا عن وجود مجتمع مارونى فى أورشليم. كما يُقال أيضاً إن زعيماً مارونياً فى عام (١١٤٠ م)، يدعى سيمون، قد استولى على مدينة عنتاب حيث أقام للموارنة مجتمعاً آخر. وفى جزيرة قبرص استقر المقام بجماعة أخرى منذ القرن التاسع، وصار لهم دير كبير هناك فى النصف الأول من القرن الثانى عشر. أما صداقتهم مع النساطرة، وقد كانت صداقة عقيدة مشتركة، فقد أتاحت لهم التغلغل فى العراق، وبلاد فارس، حيث قامت لهم قائمة عمل وتجارة فى كثير من بلدان المشرق العربى.

ثم جاء عصر الصليبيين، وجاء عهد التحول الكبير فى تاريخ الكنيسة المارونية، لتنضوى تحت لواء البابوية...

ونظير الأرمن، يبدو أن الموارنة، قد ألقوا قرعتهم منذ البداية مع جموع الصليبيين، وذلك بسبب الاضطهاد والمظالم التى وقعت عليهم من أكثر من حاكم.

---

(١) تارو فى كتاب «تاريخ دمشق».

ولقد كانوا يعرفون بطبيعة حياتهم، كل الدروب الجبلية، الوديان، والمعابر فى الأراضى المقدسة. وفيهم وجد الغزاة خير دليل. ثم كان هناك التزاوج، بين جماعات المهاجرين الغربيين، وبين اللبنانيين وغيرهم ومنهم جاء الجيل الجديد الذى عرف فى تاريخ الحروب المقدسة باسم «بولانى»... زد على ذلك أن البعض من سكان طرابلس الغرب، كانوا من الموارنة. وكان كهنتهم يلبسون زياً غريباً عن كنائس المشرق تميزه العمامة الطويلة، والخاتم الذهبى. وحيثما استوطن الصليبيون، كانوا يجلبون معهم عاداتهم، وطقوسهم الكنسية. وكان الموارنة يرتادون كنائسهم...

فإذا أضفنا إلى ذلك خلفية الصلة التاريخية فى القرن السادس، والصلة العقائدية التى يتفق فيها الموارنة مع كنيسة روما، فى القول بالطبيعتين، والمشيئتين، نستطيع أن نرى أن الطريق كان ممهداً منذ البداية، للانضمام لمعسكر الغرب.

حتى إذا كان عام (١١٨٢) يخبرنا مؤرخ الصليبيين، رئيس أساقفة صور، أن أربعين ألفاً من الموارنة قد ذهبوا بصورة جماعية، إلى البطريرك اللاتينى «عمورى» فى أنطاكية معلنين ولاءهم للجالس على عرش البابوية. وطالبين الانضمام إلى كنيسة روما. فإذا افترضنا أن أولئك الرجال كانوا يمثلون رؤساء العائلات المارونية، فى ذلك الحين، فإن عددهم لابد وأنه كان لا يقل عن مائة ألف.

ويؤكد ذلك الاتصال أيضاً جبرائيل بن القلاعى الذى كتب عام (١٤٩٤ م)، أن بطاركة لبنان كان بينهم وبين بابوات روما أكثر من خمسة عشر اتصالاً. بل إن بطريرك الموارنة أرميا العمشيطى، قد ذهب بالفعل إلى روما (١٢١٥ م)، وفى رجوعه أرسل البابا أنوسنت الثالث معه، مندوباً رسولياً ليتمكن من معرفة مدى تمسك الموارنة بالعقيدة الرومانية. ثم جاء المرسلون الفرنسيسكان والدومنكان إلى

لبنان، ومن بعدهم اليسوعيون، بينما قامت أكثر من جماعة من شباب الموارنة، للدراسة فى الفاتيكان. كما كرس البابا لهم بعد ذلك جامعة باسم الجامعة المارونية...

ومع كل هذا فمن الخطأ أن نقول إن الموارنة قد اصطبغوا جميعاً بصبغة الكثلكة فى القرون الوسطى. لقد بقيت غالبيتهم لا تعرف شيئاً عما يجرى وراء الستار. وكانوا مستمرين حسب العادة، فى عباداتهم بالسريانية وفق تقاليدهم القديمة. ولربما كانت استعادة الأراضى المقدسة (١٢٩١ م) فرصة انقطاع العلاقة بين روما، وبين الموارنة، ولو أننا نسمع فى تلك الأحاديث عن كنيسة أو أخرى فى لبنان تقدم مراسيم القداس اللاتينى. وعن تمثيل الموارنة فى مجمع فلورنسا عام (١٤٣ م)، فى صورة راهب فرنسسكانى من بيروت، يدعى يوحنا، الذى قدم رسائل للبابا، مؤكداً التصاق الموارنة بالبابوية. على الرغم من كل هذا، فإننا نقول إنه خلال فترة القرون الوسطى، وعلى وجه التقريب حتى منتصف القرن الخامس عشر، لم تكن العلاقات قوية بين موارنة لبنان، وبين روما.

حتى أتت ظروف، اشتبه فيها الحاكم المسلم باتصالاتهم مع الغرب، فأرسل جنوده إلى دار البطريركية، فى دير معفوق، وذبحوا من ذبحوا من الرهبان، والكهنة، ونجا البطريرك بأعجوبة، ليقيم دار البطريركية فى مرتفعات قادشا الحصينة (١٤٤٠ م) فى دير كانوبان، التى ما زالت حتى يومنا هذا. وهكذا تقرر نهائياً انضمام الكنيسة المارونية لكرسى روما بعد مشاورات استغرقت نصف قرن من الزمان بعد ذلك التاريخ...

الشىء الذى نود أن نقوله، فى ختام هذا الفصل، إنه بالرغم من كل هذه المجهودات، ومما حاول العديدون من كتاب الموارنة اثباته من سيرهم فى ركاب كنيسة روما ،فإنه لم يوجد مارونى واحد، أظهر رغبة فى التخلى عن موطنه الجبلى

الحصين الذى ارتبط به منذ أقدم العصور. كما لم يوجد واحد نادى بإحلال اللاتينية محل السريانية التقليدية فى خدمة القداس. لقد احتفظوا فى ممارساتهم الكنسية بلغة أجدادهم، ولو أنهم أجروا تعديلاً فى ليتورجيتها، حتى تتفق مع المراسيم العقائدية الرومانية. بل إننا نقول إنه حتى عهد قريب، ربما حتى القرن الثامن عشر كان الموارنة يتحدثون السريانية، وإنهم احتفظوا باستقلالهم، فى مرتفعاتهم الجبلية الحصينة، حتى منتصف القرن التاسع عشر.

هذه المفارقة العجيبة من مسايرة الغرب، والخضوع لروما، مع الاحتفاظ بالانفصالية، والاستقلال الدينى، نستطيع أن نجد تأكيدات لها فى أكثر من عمل، قام به الكتاب المارونيون، مثل يوسف دريان رئيس أساقفة طرسوس، وغيره. وهكذا ينبغى أن نضع هذه الخلفية على الدوام أمامنا، إذا أردنا أن نتفهم تاريخ هذه الجماعة المسيحية، بظروفها المعقدة، ومتناقضاتها الكثيرة....

الفصل السابع عشر

الموارنة فى العصور الحديثة

إن قصة لبنان فى العصور الحديثة هى قصة الموارنة والدروز. فبينما اختار الموارنة المناطق الجبلية فى شمال لبنان، اختار الدروز المرتفعات الجنوبية فى منطقة حوران، حيث اختاروا لأنفسهم، نوع حياتهم الخاصة التى يحيونها، فى عزلة عن سواهم، ولو أن العنصرين كانا يختلطان فى أكثر من بقعة...

ويرجع أصل الدروز إلى الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله (حتى ١٠٢١ م) حيث ألَهَهُ أحد تلامذته ويدعى محمد الدرازى مدعياً أنه تجسد الألوهية. ومع أن الدرازى قتل عام (١٠١٩ م)، إلا أن الطائفة وجدت خير منظم لتعاليمه وأفكاره فى المدعو حمزة الزوزانى، وهو فارسى الأصل، وقد خلق منها طائفة سرية. أما انتشار المذهب فى لبنان، فيرجع إلى نشاط تلميذ آخر، يقال إنه مسيحى سريانى، ويدعى المقتنى بهاء الدين. وقد كان ظهوره، ونشاطه قبيل مجىء الصليبيين. وإليه يرجع الفضل فى معرفتنا بأسرار تلك الطائفة، عن طريق كتاباته، التى اكتشفت عام (١٨٣٤ م).

ويؤمن الدروز بأن الحاكم بأمر الله لم يقتل. وأنه انتقل إلى السماء. وأنه يوماً سيأتى ليحكم العالم... أما كهنتهم فلا يتزوجون. ويجتمعون كل مساء جمعة فى خلوة روحية. وكطائفة سرية على الأعضاء الخضوع التام لهم. وكل واحد عليه مسئولية الدفاع عن أخيه. وهم يؤمنون بعقيدة تناسخ الأرواح، فالأشرار يتناسخون فى أجساد كلاب، والأبرار فى صورة بشر. وتضم طائفتهم قبائل معن وطنوخ وأرسلان، وجنبلاط، التى ما زالت حتى يومنا. وقد كانوا فى علاقات طيبة، فى وقت من الأوقات مع الموارنة وكانوا يخضعون لبعض حكامهم، فى فترة من

الفترات مثل فخر الدين الثانى فى القرن السادس عشر. وكذلك لم تكن حوادث اعتناق المسيحية بين الدروز نادرة.. ونحن نرى أسرة الشهابى الحاكمة تنتهى إلى اعتناق المارونية، وقد سار فى ركابها أكثر من أسرة وأكثر من أمير من الدروز...

وفى تاريخ الدوائر الحاكمة، يبرز اسم الأمير بشير الشهابى (١٧٨٨ - ١٨٤٠) الذى حافظ على كيان الأمة. وعمل على نموها وتقدمها الحضارى. ولقد حارب معركة الحرية لأجل لبنان. كما أنه بحنكته السياسية، استطاع أن يوقع بين الأعداء، لمصلحة أمته، وذلك فى أوقات حرجة تحت سلطة الحكم العثمانى. ونتيجة لجهاده قاسى النفى أربع مرات. ولكنه استمر فى تحديه لسلطة الوالى التركى. ويبدو أن الأمير اللبنانى، كان متأثراً بالاصلاحات التى قام بها محمد على فى مصر، وأراد ترسم خطاها فى لبنان. ونحن نراه يرسل الشباب لدراسة الطب فى قصر العينى. كما أن مقر إقامته الجبلى، الذى يدعى «بيت الدين» بأبهائه، ونقوشه الفنية، والممرات المائية بين الحجرات، لنقل المياه على الدوام، من القمم المتوجة بالثلوج، يدل على مدى ذكائه، وأصالة تفكيره. ويبدو أن تعدد جوانب شخصيته، واتساع أفقه، كان السبب فى محبة الجميع له. على حد تعبير فيليب حتى «لقد كان مسيحياً معمودية، مسلماً زواجاً، درزياً سياسة ومداهنة أكثر من كونه اقتناعاً، فكان مستنيراً متحرر التفكير. فى سياسته». ولقد ارتقت الكنيسة المارونية فى عصره. ومع ذلك لم يلق الدروز أدنى مضايقة. وساد السلام والوئام بين الموارنة وجيرانهم الدروز. وفى بيت الدين نرى الأمير الشهابى يقيم كنيسة صغيرة، جنباً لجنب مع الجامع الكائن هناك. ولقد نالت الكنيسة المارونية الكثير من المزايا فى فترة حكمه وارتقت المدرسة المارونية إلى كلية جامعة. ومن خريجيها كان يوسف الدبس (١٨٣٣ - ١٩٠٧) الذى احتل مركز رئيس أساقفة بيروت، وكان أحد كبار مؤرخى سوريا وأسس مدرسة الحكمة عام (١٨٧٤) على غرار الجامعات الأوربية.

أما التراث الذى غنمه لبنان من حكم البشير فقد كان له جانبان: الأول أنه فتح بلاده أمام الغرب. وربما يكون هذا عن غير حنكة، فقد جر على البلاد مطامع أكثر من دولة، وسبب لها أكثر من متاعب. أما الثانى فهو أنه قوى ربط السلام بين الموارنة والدروز. أما تحالف الأمير مع محمد على، واشتراكه مع ابراهيم باشا فى الحرب ضد الأتراك فى سوريا، فقد ختم به نهائياً على تدخل دول الغرب، إنجلترا، والنمسا، وروسيا، وفرنسا. أما عن التعايش السلمى بين الموارنة والدروز، فقد ثبت أنه قصير العمر. ولقد كان هناك عاملان، حملا على قطع الربط بين عنصرى الأمة. الأول اختفاء الأمير الشهابى من مسرح السياسة بعد نفيه الأخير، الذى انتهى بموته عام (١٨٥٠). مما ترك فراغاً سياسياً، وأفسح المجال للوالى التركى للعمل على بث الفتنة بين الموارنة والدروز، وإشعال نار الاضطرابات الطائفية لتقوية مركزه. وهكذا بدأ عهد الفوضى هناك. والثانى أن الباب العالى فى محاولة صادقة منه لتصفية الجو، أو ربما غير صادقة، أصدر أمراً بجمع السلاح من كل لبنانى، إثر انسحاب ابراهيم باشا والجيش المصرى من الأراضى السورية. وكان هذا قراراً حكيماً فى ظاهره. ولكن الذى حدث أن السلاح جُمع من الموارنة فقط، بينما تغاضت السلطات عن جمعه من الدروز. هذه المحاباة تبعتها السلطات ببذر بذور الشقاق والانفصال بين المسيحيين، وغير المسيحيين.

زد على ذلك روح التذمر الكائنة بين الموارنة أنفسهم ضد رؤساء الإقطاع، والاحتكاريين. فلم يكن الموارنة حكماء فى توزيع الفرص، ولا تقول الحصص، بين الجميع. لذلك فقد اتسعت الهوة بين الشعب، وبين الأرستقراط. وأصبح الشعب على أعتاب الثورة لكسر نير الإقطاع. بل إن طبقة القساوسة أصحاب الرتب المتواضعة، كانوا من الطبقات الفقيرة، وكانت روح الثورة تملأ قلوبهم. وهكذا ألقوا بقرعتهم مع عامة الشعب، فى الوقت الذى وقفت فيه الكراسى الكبرى إلى جانب الأثرياء. أما الأتراك فما فتئوا يثيرون المتاعب. أما الدروز فقد بدأوا يتحركون.

ولم يفعل الموارنة شيئاً للحيطة دون وقوع الاشتباك مع جيرانهم، وخاصة فى القرى التى يختلط فيها العنصران. ولقد كانت أول لقمة سائغة دير القمر، وهى مسقط رأس كميل شمعون الرئيس الأسبق. فقد هاجمها الدروز، عام (١٨٤١)، وأشعلوا فيها النيران..

ولكن الأتراك، أسرعوا، متذرعين بالاضطرابات، إلى طرد آخر شهابى من الولاية. واستبدلوه بمجرى اعتنق الإسلام، باسم عمر باشا النمساوى. وقد احتل الوالى الجديد بيت الدين. ومن هناك كان يدير مؤامراته... فى الوقت الذى انقسمت فيه الأمة إلى قسم شمالى، ومعظم سكانه من المسيحيين، ويشرف عليه حاكم مسيحى، وقسم جنوبى ومعظم سكانه من الدروز، ويشرف عليه حاكم درزى، شمال وجنوب الطريق الموصل ما بين بيروت ودمشق. ولكن هذا «التقسيم» لم يكن عادلاً. ففى قلب القسم الجنوبى كان هناك ما يزيد على سبعة عشر ألفاً من الموارنة - والعهدة هنا فى الرواية على «فيليب حتى» مؤرخ لبنان - كلهم تحت رحمة الدروز، الممالئين للأتراك.

ولقد كانت حادثة إحراق دير القمر البداية التى كملت فى عام (١٨٤٥) حينما راح كل فريق يحرق بدوره قرى الفريق الآخر. وانتشر الاضطراب وعمت الفوضى، شملت الثورة جميع مناطق لبنان. ووصلت إلى ذروتها فيما عرف فى التاريخ ذبحة الستين (١٨٦٠). حيث استمر ذبح المسيحيين أربعة أشهر كاملة من إبريل لى يوليو، من ذلك العام المشئوم، فى كافة القرى اللبنانية. ويقدر عدد الذين لقوا حتفهم فى هذه المذبحة باثنى عشر ألفاً من الموارنة. ولم تعف الكنائس، ولا الأديرة من ذلك، بل كان الدروز يهاجمونها، ويذبحون من يلجأ إليها، ويشعلون فيها النيران. وامتدت الثورة إلى دمشق حيث هوجم الحى المسيحى هناك، ولقى أحد عشر ألفاً من المسيحيين حتفهم. وكان مقدراً لهم أن يبادوا عن آخرهم، ولولا شهامة جزائرى لاجىء إلى سوريا يُعرف باسم عبد القادر، الذى أنقذ البقية. وزيادة

على من قتلوا أصبح مائة ألف من المسيحيين لاجئين بلا مأوى. وبدأت تنتشر بينهم الأوبئة.

وأخيراً استيقظ ضمير الغرب لوقف هذه المأساة. وأخذت فرنسا دور القيادة كما دعت القوى العالمية الكبرى للوقوف إلى جانبها. ولكنها لم تنتظر عملاً جماعياً، بل سرعان ما أرسلت بعثة هبطت على شواطىء لبنان لإعادة النظام. أما الباب العالى فقد اضطرته الظروف الآن ألا يقف موقفاً سلبياً، فأرسل فؤاد باشا إلى لبنان كسفير فوق العادة لتقصى الحقائق، وعقاب المجرمين. ويقال إن (١١١) جندياً أعدموا رمياً بالرصاص، مع بعض المدنيين، الذين صدر الحكم بشنقهم. والبعض أقصى عن البلاد وفُرضت جزية مليوناً وربع من الجنيهات لدفعها للموارنة. ويقال إنهم دفعوا جزءاً منها ثم توقفوا. وفى العام التالى، اجتمع ممثلو الدول الكبرى فى العاصمة التركية، لوضع نظام ثابت للحكم فى لبنان، فأقروا أن يكون هناك حاكم مسيحى يعينه الباب العالى بموافقة الشعب، لمدة خمس سنوات، يُعاد بعدها انتخابه، أو تسقط رئاسته. ويعاونه اثنا عشر يمثلون مختلف الهيئات والأديان: خمسة منهم من المسيحيين، وقد كان ممكناً أن يؤدى هذا النظام إلى الاستقرار والحياة الديمقراطية السوية، لولا أن أرستقراط الموارنة، دفعوا الهيئة الدينية إلى الظهور على مسرح السياسة والحكم. وهكذا أصبح البطاركة القوة المسيطرة فى البلاد، وأصبح البطريرك أقوى شخصية، ليس بين طائفته فحسب، بل وسط الشعب بكامله. وحول الهيئة الكنسية تمركزت دوائر الإصلاح الاجتماعى، والسياسى، والدينى خلال ما تبقى من القرن التاسع عشر، وكذلك بداية القرن العشرين.

واستمر ذلك النظام سارياً حتى الحرب العالمية الأولى، وخلال ذلك سادت دول الغرب موجة من العطف على مسيحية الشرق التعسة، وعلى الأخص موارنة

سوريا. وإننا لنرى الرعيل الأول من مرسلى البروتستانت ممثلاً فى بلينى فسك، وليفى بارسون يبحر من بوسطن ليجد لبنان فى براثن الجهل، والفاقة، والمرض تحت نير الأتراك. ثم يتلوه القس وليام جوديل، والقس إيزاك بيرد. أما ما قام به أولئك فى لبنان، من روح المحبة والرعاية، والعمل المضحى، فيصح أن يكون مضرب الأمثال. وقد توجت مجهوداتهم بإرساء قواعد الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وهى أول جامعة عصرية فى الشرق الأوسط وأحد المعالم فى تطوير لبنان الحديث. أما دانيال بلى الذى طور المدرسة البروتستانتية القديمة فى بيروت، والتى أنشئت عام ١٨٦٦ إلى هذا الصرح الشامخ، فقد وضع شعاراً لهذا المعهد الجليل فى هذه الكلمات...

«يستطيع كل واحد من الجنس الأبيض، أو الأصفر، أو الملون، سواء كان مسيحياً، أم يهودياً، أم مسلماً أم وثنياً، أن ينتسب إلى هذا المعهد، ويتمتع بكل مزايا التلمذة فيه، ويتخرج، بعد قضاء سنوات دراسته مؤمناً بالله الواحد، أو بآلهة عديدين، أو غير مؤمن بالله على الإطلاق. ولكن لا يمكن على الإطلاق، أن ندع واحداً يستمر معنا فى شركة العلم وساحته، دون أن يعرف، على الأقل، ما نؤمن نحن به من حق، والأسباب التى تدعونا إلى مثل هذا الإيمان».

وفى نفس الوقت سارت خدمة الفرنسيين الكاثوليك، جنباً لجنب مع خدمة البروتستانت، بل كانت أكثر فعالية فى وصولها إلى قلب الكنيسة المارونية الخاضعة لروما. وهكذا انتقلت الكلية الكاثوليكية الصغيرة الكائنة فى جزر (١٨٤٦)، إلى بيروت، لتصبح أساساً لجامعة سان جوزيف الفرنسية. أما المدارس، والملاجىء، والهيئات الخيرية، والأديرة للرجال، والسيدات، فقد كان لها أثرها فى تطوير المجتمع اللبنانى، ومسايرته لحضارة الغرب. وإذا بنا نجد لبنان بعد ذلك يخرج من دائرة غموض القرون الماضية إلى نور الحياة العصرية. وتكون

الكنيسة هى المركز الذى منه انطلقت كل هذه الإصلاحات...

زد على ذلك أن الكنيسة المارونية، كان لها أثرها أيضاً فى هذه السنوات التكوينية. حيث أن المسيحية اللبنانية تربط دائماً بين الإطار الوطنى، والكنيسة المارونية. ولقد كانت الأهوال التى قاساها لبنان من الأتراك فى سنوات الحرب، أقسى عشرات المرات من مذبحة الستين. ويُقال إنه خلال تلك السنوات، دقت أجراس الكنائس دقات جناز الموتى مائة ألف مرة، من تعداد لا يصل فى مجموعه إلى نصف مليون من الأنفس. أما الأديرة الأثرية، لوقوع معظمها فوق الجبال، فقد خُربت وطرد من فيها، وحولت إلى قلاع حربية، ومن بينها أديرة مار إشعيا، ومار يوحنا - قرى لبنانية أخليت بكاملها من سكانها. وأسقف الموارنة فى بيروت طرد من منصبه، ونفى، حيث لاقى حتفه فى المنفى. أما البطريرك المارونى، خشية اغتياله، فما كان يغادر دار البطريركية متصنعاً المرض. وكل من كان يشتبه فى تطرفه، أو ممالأته لفرنسا، كان يُقبض عليه ويُعدم. ولم تتوقف وحشية الأتراك إلا بنهاية عصرهم، حينما زحفت قوات الجنرال اللنبى مع القوات العربية بقيادة ابن الشريف حسين، الذى أصبح فيما بعد الملك فيصل الأول (١٩١٨). ثم كان عهد الوصاية الفرنسية على لبنان، والبريطانية، فى فلسطين. وتلا ذلك حصول لبنان على استقلاله عام (١٩٢٦).

كل هذه أمور تنأى عن موضوعنا الرئيسى، ولكننا نرسمها أمام أنظار القارىء كخلفية للحياة الكنسية هناك. فخلال هذه الموجات السياسية المتتابعة كان للكنيسة دورها الرئيسى. وإننا لنجد البطريرك بطرس حايك المتوفى عام (١٩٣٢) يرتفع بين أمته إلى مقام بطل وطنى، فى المجال السياسى. فهو يذهب إلى باريس على رأس وفد لبنانى، إبان انعقاد مؤتمر السلام مطالباً بإنهاء الوصاية على بلاده. وتتوج مجهوداته أخيراً بالنجاح، وتولد الجمهورية اللبنانية المستقلة عام

(١٩٢٦). ولقد أصبح من مبادئها أن يكون رئيس البلاد مارونياً، ورئيس الوزراء مسلماً سنياً، ورئيس البرلمان شيعياً، أما وزير الدفاع أو الحربية فينتخب من بين الدروز.....

وبعد حايك جاء دور أنطون عريضة. أما سهره على استقلال أمته وخير شعبه، فيشهد به المسلمون قبل الموارنة. أما بولس المعوشي فدوره ليس ببعيد عن الذاكرة، حينما وقف في وجه كميل شمعون الذي دعا إلى تدخل الغرب في لبنان، مؤكداً عروبة الأمة اللبنانية..

على أن عنصراً جديداً قد دخل في مجال إذكاء لهيب الصراع الحالي بين عنصري الأمة في لبنان: اللاجئون الفلسطينيون. ومهما تكن من تفسيرات للمحنة الجديدة الحارقة في أواخر الستينات، والتي مازال لهيبها مستعراً حتى الآن، فإن السؤال الذي يراود أذهاننا هو هذا، هل سيخرج لبنان من البوتقة المشتعلة بصورة مصفاة جديدة؟ وهل وعى الدرس واستخلص العبر من الظروف التي تكررت أكثر من مرة في تاريخه الطويل؟ وهل مثلما حدث بعد مذبحة الستين، حينما أشرق فجر الحياة العصرية بكل مفاهيمه على تلك البلاد، هل ستكون هذه المحنة الرهيبة، إيذاناً بميلاد لبنان من جديد؟ ألا يرى اللبنانيون أنفسهم، سواء كانوا من الموارنة أم من المسلمين، أن حكمة المسيح صحيحة وصادقة وهي «إن الذين يأخذون بالسيف بالسيف يهلكون» وإنه لا مندوحة من روح التسامح، والتعايش السلمي؟

هذا ما ستجيب عنه السنوات القادمة...

الفصل الثامن عشر

الموارنة فى المجال الثقافى

إن تقدم الثقافة فى لبنان، وتطورها، يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكنيسة المارونية. فكيانها، كما أسلفنا، هو الصخر الصلد الذى قامت عليه الإصلاحات الاجتماعية، والوطنية، والدينية على السواء. والروح الدينية التى يتميز بها هذا الجنس الجبلى الثائر، الذى حارب من أجل وجوده، وحارب دفاعاً عن معتقداته، وحارب فى سبيل الحفاظ على كرامته، فى ظروف ما كانت بطبيعتها تعطى الكثير، وتربة ما كانت تدر الخير الوفير، يجعلنا نحنى الرأس إجلالاً لهم. وقد يكون من اللغو أن نقول إن الجبل الأشم قد أخرج لنا شخصيات غيرت مجرى التاريخ، أو طبعت طابعها على المسيحية بصورة عامة. وكان لها أثرها فى تفسير العقيدة المسيحية، أو تطورها. ولكننا نقول إن تلك المنطقة قد أسهمت قدر المستطاع، بجهودها، ورجالاتها.وإننا لو نظرنا إلى أولئك فى حدود دائرتهم، ومقدرتهم، فإننا نراهم وقد ظهرت مجهوداتهم عملاقة، ورجالاتهم جبابرة.

أما النظام الرهبانى لديهم، والذى بدأ باثنين من أعاظم قديسى المسيحية: القديس مارو، والقديس يوحنا مارون، فما زال يقدم بين الحين والحين شخصياته. هناك على سبيل المثال، شربل مخلوف الراهب، الذى ارتفع شأوه فى الكتابة بالسريانية والعربية، والذى يكاد يقرب فى مستواه من الأنبا أنطونيوس. وقد كان فراشه من أوراق شجر البلوط على الأرض ووسادته قرمة من الخشب تكسوها بعض الخرق، ولباسه الوحيد من شعر الماعز، ووجبته الوحيدة حساء الخضار مرة فى اليوم، ونادراً ما كان يضع عليها زيتاً. وكان يصرف نهاره فى العمل اليدوى، أما الليل فيصرفه فى الصلاة. وقد أصبح قبره مزاراً للموارنة،حيث يقال إنه تمت هناك بعض معجزات الشفاء.

وعلى النقيض من اليعاقبة السريان من الرهبان، الذين تفتق ذكاؤهم الهندسى عن بنايات تعطينا فكرة عن الفن السريانى المبدع، فإن الموارنة لم يكن لهم فن سمعان العامودى فى إقامة الأعمدة، أو مقدرة غيره فى بناء الكنائس فى شمال سوريا. فالفن الهندسى عند الموارنة ليس به ما يستحق الذكر سوى أنه يتميز بالبساطة والتواضع. الميزة الوحيدة أن الموارنة كانوا يقيمون أديرتهم فوق المرتفعات العالية، فى صورة أشبه ما تكون بالقلاع لتكون ملجأ لهم عند الضرورة. هذا هو كل ما يهمهم. أما الديكورات، والنقوش فتأتى فى المرتبة الثانية. لقد بدا وكأنهم يكتفون بما وهبته الطبيعة لهم من أرزاتهم الجميلات فوق المرتفع الجبلى الشاهق.. أما فى العصور الحديثة، فقد تأثرت بناياتهم الكنسية بالفن الهندسى الغربى، ولم يعد لها طابعها الشرقى المميز...

والفترة التى قفز فيها لبنان، ومن ورائه شعبه المارونى، إلى التمدين والحياة العصرية، هى بصورة عامة القرن التاسع عشر.. وهذه الطفرة جاءت نتيجة التقاء لبنان، بعاملين روحيين من الغرب: الكاثوليك وعلى الأخص الفرنسيين، والبروتستانت، وعمادهم الإرساليات الأمريكية.. ومع ذلك لا يعنى هذا أنه لم يكن هناك لقاء مع المجتمعات الأوروبية قبل هذا التاريخ. وفى واقع الأمر نقول، إن التفاعل كان متبادلاً مزدوجاً، حيثما التقى الاثنان. فالطابع الذى طبعه الغرب على المجتمع المارونى، قد سبقه انطباع البعض من أوجه العلم فى الغرب بالثقافة المارونية. وحتى قبل أن يكرس البابا جريجورى الثالث عشر الكلية المارونية فى روما عام (١٥٨٤)، ظهر أكثر من واحد من العلماء الموارنة فى العاصمة الكاثوليكية، وكان أحدهم وهو من الرعيل الأول -على سبيل المثال- جبرائيل بن القلاعى، الذى يرتبط اسمه باسم الكلية المارونية هناك وهو مؤرخ، ولاهوتى، وقد نُصب أسقفاً فيما بعد. ومنذ تاريخ تأسيس الكلية المارونية فى روما، فتحت أوربا أبوابها لأكثر من عالم مارونى، كان له الفضل ونقولها عن سند تاريخى فى

تعليم الجامعات الأوروبية الكثير عن الدراسات الشرقية. هذا الفضل المنسى، الذى قد يغفله أكثر من مؤرخ، والذى نستند فيه هنا على ما أورده الدكتور عزيز سوريال عطية فى كتابه «مسيحية المشرق» هو من أمتع الفصول فى تاريخ الأمة المارونية..

وأول أجرومية سريانية كُتبت باللاتينية، كانت من عمل أحد التلامذة الموارنة فى روما، عام (١٥٩٦)، ويدعى جرجس عميره، الذى احتل كرسى البطريركية عام (١٦٣٣). ثم تلاه آخر على نفس النمط، ويدعى اسحق الشدراوى، الذى بدأ دراسته فى سن الثانية عشرة هناك، وتعددت رحلاته إلى فرنسا، ومدن إيطاليا، وانتخب أسقفاً لطرابلس (١٦٦٠)، وكان له دوره آنذاك، فى مجريات السياسة الدولية بين لبنان وفرنسا. وينبغى أن نذكر أن المجتمع المارونى فى القرن السابع عشر، كان يستخدم السريانية، كما يستخدم العربية. وكان علماؤه مستأهلين أن ينقلوا السريانية إلى دوائر العلم الأوربى.

وبينما فضلت الكثرة من العلماء العودة إلى موطنها، نجد البعض، وهم من النجوم اللامعة فى سماء العلم، يفضلون البقاء فى مدن أوروبا - على سبيل المثال هناك جبرائيل الصهيونى الذى احتل كرسى اللغة السامية فى الكلية الملكية فى باريس، فى مستهل القرن السابع عشر، وذلك بناء على طلب لويس الثالث عشر ملك فرنسا. وهو الذى قام بالعمل الفريد من طبع الكتاب المقدس فى صفين متوازيين بالعربية والسريانية. ولقد قام أيضاً، بالاشتراك مع زميل آخر، بنشر جغرافية الإدريسى «نزهة المشتاق فى ذكر الأمصار والأقطار» باللغة العربية، ومعها ترجمة لاتينية. وحين خلا الكرسى بوفاته احتل مكانه مارونى آخر يدعى «ابراهيم العقلانى» عام (١٦٤٠). ولقد تلقى دراساته فى روما أيضاً، وله الكثير من المؤلفات التى نشرت هناك، والتى بلغ عددها أربعة وستين كتاباً، تحتل

مكانها حتى الآن فى مكتبة الفاتيكان. وإننا لنجد الاسمين جبرائيل، والعقلانى أو الحقلانى، محفورين على القائمة العليا فى مدخل الكلية الملكية، التى تُعرف الآن باسم كلية فرنسا - وثمة قريب آخر للحقلانى أصبح أستاذاً للغات الشرقية فى كلية روما المارونية.... وعلاوة على مؤلفاته بالعربية والسريانية، وترجمته للعهد الجديد إلى اللغتين، نراه يقدم باللاتينية تاريخاً مفصلاً عن الموارنة نشر عام (١٦٧٩) فى روما.

ولقد وصل العلم المارونى إلى قمته فى مجهودات يوسف السمانى، وميخائيل الجزيرى، اللذين وضعا فى مستهل القرن الثامن عشر، أساس السريانية والعربية. إن لم يكن كافة اللغات السامية، ونشراها بين جامعات الغرب، وإيقاظ الوعى المسيحى فى الغرب وجذب اهتمامه إلى مقام مسيحية المشرق ودورها الفعال، فى تاريخ الكنيسة المسيحية جمعاء...

ومع أن تأثير العلماء الموارنة فى الغرب، ظل مستمراً، إلا أن بهاء المدرسة القديمة بدأ ينطفىء حينما انعكس التيار، وبدأ الغرب فى إرسال بعثاته التبشيرية، ومعلميه إلى لبنان. ولقد كان السبب، كما أسلفنا، سوء سياسة الأتراك هناك، وما لقيه الموارنة من عنت فى المذابح المتكررة وأعمال العنف، التى تعتبر بدايتها مذبحة الستين. وهكذا تدفق أبناء الغرب إلى لبنان، وعلى الأخص من الفرنسيين. ولقد كانت قمة مجهودات الكاثوليك هناك، إقامة كلية سان جوزيف فى بيروت (١٨٨١) ومعاونة فرنسا لها بمعونة مالية، لتفتتح كليتى الطب والصيدلة. ولقد كان للجامعة أيضاً كليات تدرس فيها الفلسفة، واللاهوت. ولكن كلية الدراسات الشرقية فاقت الكل. وإننا فى غنى عن الحديث عن أثر كلية الدراسات الشرقية فى ميدان الدراسات العربية، حيث بويت المخطوطات والأبحاث بطريقة جديدة. ولقد أسس الكاثوليك أيضاً المطبعة الكاثوليكية، التى تقدم لها الكثيرون من

الباحثين بدراسات، وأبحاث، لم يسبق نشرها.. وإننا لنجد مثالاً عن تكاتف الجامعة الكاثوليكية والمطبعة فيما قام به الآب لويس شيخو اليسوعى (١٨٥٩ - ١٩٢٨). وهو مواطن كلدانى من مردين، احتل كرسى اللغة العربية فى الجامعة اليسوعية لسنين عديدة. أما إنتاجه، ومجهوده الأدبى، فيفوقان كل خيال. ولقد كانت هوايته دراسة المخطوطات، وإخراج كنوز الأدب العربى من مكامنها. ولو أن ناقديه عابوا عليه اهتمامه بالكم أكثر من الكيف. ومع ذلك لا يمكن أن ننكر دوره فى مجال الأدب العربى. وحتى ولو لم يقدم لنا شيئاً، يكفيه أنه ظل رئيساً لتحرير المشرق، وهى المجلة الكاثوليكية مقدماً فيها كل طريف وجديد. أما ما قدمه من قطاف فى طرائف العرب، فى التسعة مجلدات بعنوان «مجانى الأدب فى حدائق العرب» فيكفى أن تضعه فى مصاف كبار الكتّاب فى العصر الحديث. أما «تاريخ الشعر المسيحى» من قبل ظهور الإسلام حتى العصر الحاضر، فيُعد تحفة لذلك الأديب العظيم.

ومع أن موضوعنا الرئيسى ليس الحديث عن لبنان فى كافة أوجه نشاطه الأدبى، فإننا لا يمكن أن ننكر دور الموارنة كرواد للصحافة فى أكثر من قطر فى الشرق الأوسط. وأول جريدة يومية لبنانية «حديقة الأخبار» أشرف على رئاسة تحريرها خليل الخورى من الشويفات (١٨٥٩). وتعتبر الثالثة فى الشرق - الأولى «الوقائع المصرية» وأسسها محمد على (١٨٢٨) فى مصر، والثانية «مرآة الأحوال» وأسسها «رزق اله حسون» من حلب عام (١٨٥٤). أما الجيزويت فأصدروا عام (١٨٦٦) «البشير»، للوقوف فى وجه «النشرة» البروتستانتية. فإذا أتينا إلى الثقافة البروتستانتية، ومجهودات البروتستانت فى مجال التبشير، واليقظة الروحية، فإننا لا يمكن أن نغفل ما قاموا به بين الموارنة. فالجامعة الأمريكية فى بيروت قامت على أساس الكلية البروتستانتية السورية، وقدمت خدمات جليلة لكافة أقطار الشرق الأوسط وعلى الأخص الموارنة

(١٨٦٦). وقبل ذلك التاريخ بثلاثة وثلاثين عاماً، أقيمت مطبعة الإرساليات الأمريكية فى بيروت (١٨٣٣). وقد بدأت بمطبعة يدوية بسيطة وأصبحت مؤسسة طباعية بأحدث الماكينات الكهربائية، وأعظم عمل قامت به المطبعة ترجمة، ونشر الكتاب المقدس فى العربية....

ولقد بدأ هذا العمل الجليل بمجهودات القس عالى سميث (١٨٠٢ - ١٨٥٧) واكتمل بعد موته بسبع سنوات (١٨٦٤) بواسطة الدكتور كرنيليوس فانديك (١٨١٩ - ١٨٩٥) وبمعاونة جماعة من العلماء اللبنانيين تضم بطرس البستانى (١٨١٩ - ١٨٩٣)، ونصيف اليازجى (١٨٠٠ - ١٨٧١) والشيخ يوسف الأسير (١٨١٥ - ١٨٩٨). ولقد قدمت المطبعة حتى الآن ما يقرب من اثنين ونصف مليون نسخة من طبعات الكتاب المقدس، والتفاسير، والأدب المسيحى. وكان البروتستانت اللبنانيون رواداً فى مجال الأدب والثقافة، شأنهم شأن إخوتهم الموارنة الكاثوليك. وتكفى «دائرة المعارف العربية» التى قدمها البستانى، وقاموسه «محيط المحيط» لتضعه فى مصاف علماء اللغة العربية. ولقد كان لرجالات لبنان نشاطهم الأدبى فى مصر فى فجر حياتنا الأدبية. وما زلنا نذكر يعقوب صروف وفارس نمر ومجلة المقتطف، التى بدأ نشرها فى بيروت (١٨٧٦) ثم نقلاها إلى القاهرة، وأيضاً جريدة المقطم التى توقفت عام (١٩٥٢) بعد خدمة جليلة فى مجال الصحافة المصرية. وهناك أيضاً جورجى زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤) مهاجر لبنانى آخر إلى القاهرة، وأسهم بالكثير فى مجال الكتابة عن الأدب العربى، وتاريخ الحضارة الإسلامية. وما تزال مجلته «الهلال» تحتل مكانتها بين صحافتنا المصرية.... ناهيك عن «الأهرام» ومدرستها الجليلة فى عالم الصحافة المصرية..

الجزء الخامس

الكنيسة الأرمنية

الفصل التاسع عشر

قصة الارمن فى التاريخ

إن قصة الأرمن، هى قصة البطولة النادرة، والعواصف النارية والدماء التى خضبت أرضهم. ومع أن المسيحية الأرمنية، لم يقدر لها أن تصل إلى الانتشار والعالمية التى تميزت بها أكثر من طائفة من طوائف المسيحية القديمة، إلا أن لها صورتها المميزة، وصبغتها الخاصة التى تدفع الأرمن إلى الافتخار بها،

فقبل كل شىء، لقد سبقت أرمينيا كل الدول فى العالم القديم، فى اتخاذها المسيحية كالدين الرسمى للدولة كما للشعب. أما تاريخها المخضب بدماء الشهداء، والقديسين فيبدأ منذ أقدم العصور، ليستمر فى سلسلة من المذابح المروعة، حتى القرن العشرين وأيضاً على الرغم من كونهم تشتتوا بين الشعوب، وتفرقوا فى الممالك، إلا أنهم، شأن الجنس العبرانى، حافظوا على كيانهم، وصبغتهم، ولغتهم، وعاداتهم القومية. فالأرمنى، فى أى مجتمع، يبقى أرمنياً قبل كل شىء. وعزيمته، وعناده، وتمسكه بالحق، قد أصبح مضرب الأمثال، ولعل ذلك مرده إلى ثقة مطلقة فى معتقده، وإيمان راسخ بتراثه الدينى. ولقد كان هذا سوراً قوياً حفظ ذلك الشعب من الفناء، على الرغم من الأعاصير العاتية التى عصفت به.

وقد يكون للظروف ما دفع البعض من أفراده، إلى الارتماء فى أحضان روما. وقد يكون للظروف ما دفع البعض الآخر إلى البروتستانتية. ولكن، كما يؤكد بعض علماء الاجتماع، مازال مجموع الشعب، ملتصقاً بالكنيسة الشرقية القديمة. أى أن ثلاثة أرباع الأرمن، وإن كانوا متفرقين فى كافة أرجاء العالم، إلا أنهم ما يزالون على العهد مع الكنيسة الغريغورية المونوفزتية القديمة...

أما حدود بلاد الأرمن، فتمتد من جبال القوقاز شمالاً، إلى جبال طوروس جنوباً. ومن بحر قزوين فى الشرق، إلى البحر الأسود فى الغرب. أى أنها تحتل مركزاً وسطاً بين روسيا ، وتركيا والشرق الأوسط. والتقليد يقرن هذه الأرض، بموقع جنة عدن قديماً، فذلك النهر الذى يخرج من عدن ليروى الجنة، ومن هناك ينقسم إلى أربعة فروع، يتحدث عنه سفر التكوين (٢: ١٠)، بأن الفرع الرابع منه هو نهر الفرات. هذه أيضاً منطقة جبل أراراط الذى يرتفع إلى علو سبعة عشر ألفاً من الأقدام، والذى عليه رسى فلك نوح، ومن هناك بدأت الحياة بعد الطوفان. وعلى ذلك ترتبط أرمينيا بالتقليد الكتابى القديم. بل إن الأرمن يدعون امتلاك قطعة من الخشب الذى صنع منه فلك نوح فى أحد أديرتهم التى تقع حالياً فى الحدود الجنوبية للاتحاد السوفيتى.

ولقد كان لموقع أرمينيا الجغرافى أثره فى أن تصبح ملتقى الدول، والقوى المتصارعة، وعلى الأخص فى القرون الوسطى. فيتألب عليها الفرس فى القديم، ثم اليونان، ثم العرب، ثم المغول، ثم الأتراك فى العصور الأخيرة التى قاسى فيها الأرمن من العدو التركى الغاشم ما قاساه من سحق، وإبادة، وتشريد البقية الباقية، وانتهاء صلتهم بوطنهم، بعد تقسيمه، حيث اضطروا إلى استيطان مناطق فى كردستان حول بحيرة فان، والبعض استقرت به الحياة فى شمال شرقى نهر الفرات. وما كانت تلك المناطق مقراً ثابتاً. فقد كانت تتغير تبعاً للظروف، والغزوات والاضطهادات. والسبب، كما قلنا، إنها كانت تقع فى موقع وسط يجعلها ملتقى الشرق بالغرب، ومعبر الشمال إلى الجنوب. وهكذا أصبحت محط أنظار الدول الكبرى ومطامعها...

وكلمة أرمنى من أصل يونانى. ذلك لأن الأرمن يلقبون شعبهم بالهايك أو الحايك، وبلادهم باسم هياكتان أما سر هذه التسمية فيرجع للسنين الأولى للخليقة لواحد من أحفاد يافث، ويدعى حايك، يقولون إنه الأصل الذى تسلسل منه

الأرمن، وهم ينتمون فى أصلهم، إلى الجنس الهندى الآرى. ولغتهم لها مكانتها فى شجرة اللغات الهندو - أوبية. ويبلغ تعداد هذا الشعب من ثلاثة إلى أربعة ملايين، مليونان ونصف مليون منهم تتوزع بين تركيا وروسيا. والبقية تنتشر فى الشرق الأوسط، والهند، وأوربا، وهم معروفون بين الشعوب بدقتهم فى الصناعات.وحيثما حلوا كان النجاح حليفهم، مثيراً عليهم حسد الأرساط التى يعيشون فيها.. وعلى الرغم من قلة عددهم، وإمكاناتهم، استطاع الأرمن أن يسهموا بنصيب وافر فى العالم المتحضر، فى أكثر من مجال.

وقبل أن يتشتت الأرمن بعيداً عن موطنهم الأصلى حول حواف الأناضول،كان لذلك الموطن أثره الكبير فى حياتهم ونشاطهم. فقد كانت أراضيه جبلية تكثر فيها الغابات والأشجار. وهذا هو السبب الذى جعل منهم زراعاً مهرة، ورعاة للماشية. وعلى الرغم من أنهم فقدوا الوطن بغزو الشعوب المحيطة بهم، إلا أن القرون، والظروف التى ارتبطوا بها هناك، قد أعطتهم طابعهم المميز، وصلابة عودهم، التى احتفظوا بها فى عصور لاحقة.

أما المسيحية الأرمنية، فإنها تشترك فى الاتجاه مع كافة الكنائس الشرقية القديمة، وعلى الأخص أقباط مصر. وهذه تتمثل فى الصورة القومية، والتنظيم الديمو قراطى. فمنذ القرن الرابع، الذى انفصل فيه الأرمن عن قيصرية،أظهرت الكنيسة هناك عزمها على نبذ أى سلطان، أو تدخُّل من كرسى أنطاكية، أو القسطنطينية وأوروبا - كما أنها لم تعارض فى الارتباط مع الكنائس الأخوات التى ترتبط معها برباط العقيدة، والطقوس.. على أساس المسيحية الأولى..

زد على هذا، أن كافة الشئون الدينية بين الأرمن، كان يسهر على تصريفها رجال الدين، الذين يختارهم الشعب نفسه. وهؤلاء يكونون سياسة الكنيسة. أما

المجالس العلمانية التى تعين البطاركة فى حمل المسئولية، والتى تحدد تصرف الكنيسة فى المشاكل التى تعرض لها خارج الدائرة العقائدية والدينية، فقد كانت صورة مميزة للكنيسة، وتقليداً مباركاً يربطها بتقاليد الكنيسة الرسولية الأولى وخاصة اشتراك هذه المجالس فى انتخاب الأساقفة. وقد كانت من نتيجة هذه الملامح المميزة للثيوقراطية الأرمنية، التى كانت تزداد تبلوراً على مر العصور، فشل روما ،والقسطنطينية، فى صبغ هذه الكنيسة العريقة بصبغاتها الخاصة....

وشأنهم شأن أى أمة أخرى، فإن للأرمن تاريخهم الذى يحوطه الغموض، وتلفه الأساطير. أما هنا فيكفينا أن نسلط الأضواء على ظهور المسيحية هناك،وهو عهد يتفق مع ظهور روما فى ميدان القيادة المسيحية. ولقد كان لموقع أرمينيا الدافع لصنع تاريخها. فهى نقطة التقاء الشرق بالغرب... وهى موقع تلاقى بلاد فارس مع اليونان. ولذلك فقد ابتلعت قبل الميلاد بخمسة قرون فى امبراطورية داريوس الفارسى، ثم جاء عصر فتوحات الإسكندر بعد ذلك (٣٣٦ - ٣٢٣) ق. م. ثم ورثها السلوقيون حينما انتصر أنطيوخوس الثالث، ودحر الرومان فى الشرق (١٩٠) ق. م.

هنا تبرز أرمينيا كدولة مستقلة تحت إمرة حاكم من أصل يونانى. ولكنها سرعان ما تقع عام (٦٦) ق. م. فى قبضة الرومان. وخلال خمسة قرون يتبادلها الفرس والرومان لجدها تستقر أخيراً فى القرن السادس كولاية رومانية. حتى تستقل فى عهد الخلافة الإسلامية (٨٥٦ م) تحت إمرة ملك من أمراء الأرمن ويدعى اشوت الأول... الذى يستمر الملك فى أسرته حتى قبيل ظهور الصليبيين عام (١٠٧١) للميلاد. ثم جاء العهد الأسود، عهد الأتراك السلاجقة، حينما فقدت أرمينيا استقلالها، ولم يعد لها وجود حتى الآن.... منذ ذلك الحين، وقد بدأ خروج الأرمن الذى لا ينقطع من الوطن الأم، وهجرتهم إلى أكثر من مكان.

ولقد استوعبتهم الدول المحيطة بالقوقاز لكن جانباً كبيراً منهم، عبروا إلى كيليكية نحو الجنوب، وكوّنوا فيما بينهم ما عرف بأرمينيا الصغرى تحت رئاسة أمير من الأسرة المالكة يدعى رأوبين.

وحينما جاء الصليبيون، حاول الأرمن أن يكونوا فى اتفاق معهم،وأن يتصلوا بروما. وقد كان هذا اتجاهاً جديداً للمسيحية الأرمنية. وفى عام (١١٩٠) نجح المدعو فيما بعد ليو الأول، فى الاتصال بالقسطنطينية، لتتويجه ملكاً على أرمينيا، واستمرت أسرته تحكم البلاد حتى انتهى سلطان اللاتين هناك، بسقوط عكا عام (١٢٩١). ولكن العداء ضد المسيحيين، لم ينته بزوال الصليبيين. فقد جردت الحملات ضد المملكة الصغيرة الواقعة فى شمال سوريا، حتى استطاع أمير حلب عام (١٣٧٥) أن يسحقها، وقام بسبى آخر ملوك الأرمن ليو السادس، وحمله أسيراً إلى القلعة بالقاهرة. وأخيراً أطلق سراحه، شريطة ألا يضع قدماً فى موطنه. ولقد عاش ذلك الملك المخلوع فى المنفى فى باريس، دون أن ينجب ابناً وانتهت حياته عام (١٣٩٣)، وبموته انتهى آخر ملوك الأرمن وآل لقبه، واسم مملكته للبيت المالك فى قبرص.

ثم جاء عهد الأتراك الذى بسطوا فيه نفوذهم على كافة بقاع الأناضول بما فى ذلك بقاع أرمينيا. واستمر توسعهم بابتلاع، سوريا، ومصر، وزحفهم إلى حدود بلاد فارس. وهكذا أصبحت أرمينيا مرة أخرى مسرح القتال التركى الفارسى، ونقطة التقاء جيوش هؤلاء وأولئك وعلى الأخص فى أواخر القرن السادس عشر. وكبلد الحدود تعرضت لويلات التخريب، وأصبح الأرمن العزل عرضة للمذابح المروعة من جانب الفرس - لمحة ضياء واحدة تبدو فى تلك الفترة المظلمة، بواحد يدعى داود قام بالثورة لتحرير بلاده، وانتهى الأمر إلى قتله ونهاية حركته عام (١٧٢٨). ثم اتجه الأرمن بالرجاء إلى روسيا فى عهد بطرس الأكبر (١٦٨٩ -

١٧٢٥) لحمايتهم ولكن دون نتيجة تذكر. إلى أن كانت بداية القرن التاسع عشر حينما قامت الحرب بين روسيا، وتركيا، وانتهت بضم جانب كبير من حدود القوقاز إلى روسيا. وهكذا أصبح الجانب الأكبر من بلاد الأرمن، تحت سلطان المسيحية الأرثوذكسية. لكن هذا لم يُعفِ الجانب الآخر الواقع تحت سلطان تركيا من الاضطهاد المرّ. زد على ذلك أن وصاية روسيا أثارت مخاوف الأسد البريطانى. وأصبحت أرمينيا نقطة تجاذب، وشد، وصراع، بين أكثر من دولة، وأكثر من قوة.

وفى الواقع نقول إنه حتى أوائل القرن التاسع عشر كان الأرمن فى تركيا يتمتعون بنوع من الحكم الذاتى، شأنهم شأن أى مجتمع مسيحى فى الإمبراطورية العثمانية. وتزايدت امتيازاتهم حتى (١٨٦٣) حينما وعدوا بما يسمى نصف الاستقلال، فى إطار السلطة التركية.

وزيادة على هذا، كان هناك عطف الدول الغربية وتنافسها فى مساندة المجتمع الأرمنى - وكل هذه الظروف أثارت حماس الشباب الأرمنى، وطمعه فى الحصول على الاستقلال التام، والانفصال عن الإمبراطورية التركية وابتدأت المؤامرات الخفية تبيض، وتفرخ فى داخل أرمينيا، وخارجها. وأصبحت المشكلة الأرمنية، فى عهد السلطان عبد الحميد (١٨٧٦) مشكلة ملتهبة. أما معاهدة برلين (١٨٧٨) فقد اختتمت بوعد من بريطانيا بحماية المسيحيين فى تركيا مما ألهب قلوب الشباب على الرغم من محاولة المتقدمين فى السن، والاختبار، وكذلك رجال الكنيسة لوقف التيار الثائر.

وقد تكونت الجمعيات السرية للتحرير فى كل مكان، ولعل أشهرها جمعية هنشاك فى باريس (١٨٨٥). وكانت تطبع المنشورات، وترسلها خفية إلى تركيا لإثارة الشعور العام. حتى الأقلية الكاثوليكية كان لها نشاطها وأثرها فى هذا المجال. وأثار هذا غضب السلطان التركى. فعمل بمكر على ضرب بريطانيا

بروسيا، على أساس الخوف من سياسة التوسع القيصرى فى أرمينيا، حتى تتخلى عن مساندة الأرمن. بل اتفق معها سراً على إطلاق يدها فى قبرص مقابل إعاقة التوسع الروسى فى أرمينيا، وإيقاف نفوذ الروس هناك. هذا هو سر سلطة الإنجليز فى الجزيرة التى ما زالت سائدة حتى الآن. وهكذا ازدادت المشكلة تعقيداً. ولاحت نذر الخطر فى الأفق، وبدا الموقف على وشك الانفجار. وبعد أن اطمأن السلطان إلى عدم تدخل دول الغرب، فى ما أسماه بمشاكل الإمبراطورية الداخلية، كشر عن أنيابه، واستعد لسحق الأرمن بالقوة. فاستعدى عليهم أولاً قبائل الأكراد بالقرب من ديار بكر. وأرسلت الحكومة التركية قواتها «لتهدئة» الموقف، فأحرقت عدداً كبيراً من قرى الأرمن، وذبحت كل سكانها. وكان هذا تمهيداً لمذبحة من أقسى المذابح التى منى بها المجتمع المسيحى فى الشرق، ذبح فيها ثمانون ألفاً من المسيحيين الأرمن فى تريزند والمناطق المحيطة. وما كان من الأرمن فى استانبول إلا أن قاموا بعمل انتقامى تافه فأحرقوا البنك العثمانى هناك ودفعوا الثمن: ستة آلاف من الشباب المسيحى ذبحوا فى يومين اثنين (١٨٩٥). ومرت فترة عشر سنوات من الهدوء تحت سلطة البطريرك ملاكيا أورمانيان، لتندلع بعدها نيران الاضطهاد ضد الأرمن فى كيليكية، ويهلك فيها عشرون ألفاً آخرين.

ولقد كانت آخر صفحة سطرت بدماء الأرمن على أيدى الأتراك، أثناء انشغال الدول الكبرى بالحرب العالمية الأولى، حينما ذُبح ثلث الأرمن الباقين فى تركيا، وأُرغم معظم من تبقى منهم، على الهجرة جماعات، ليستقروا لاجئين فى شمال العراق وسوريا. ولقد كان منظر بعض الصبيان المشوهين من الأرمن، الذين يعملون هناك فى المصانع السورية، دافعاً للروائى المعروف «فرانز ريفل» ليكتب تاريخ هذه المذابح المروعة فى روايته: «جبل موسى داغ، ومعركة الأربعين يوماً» فيما يزيد على ثمانمائة صفحة من القطع الكبير...

ثم نضرب صفحاً عما تبقى من هذه الصور الدامية، لنرى أرمينيا فى النهاية تُبتلع ضمن جمهوريات الاتحاد السوفيتى باسم جديد (١٩٢٢) حيث قد تبقى من هذا الشعب البائس ما يزيد قليلاً عن المليـونين من الأنفس. وأمـام هذه الخلفـية الحزينة الدامية، سنرى صورة المسيحية، هناك.

الفصل العشرون

الارمن في ركاب المسيحية

أول فصل من فصول الأرمنية المسيحية يغلفه الغموض، وعلى الأخص فى القرون الثلاثة الأولى. فحتى ذلك الحين كانت لهم لغتهم التى يتخاطبون بها، ولكن لم تكن لهم أبجديتهم، التى يسطرون بها أحداث تاريخهم. ولقد كان الأرمن، قبل أن تدخل المسيحية إليهم، تحت سلطان تقاليد الديانة الفارسية، ولو أن فتح الإغريق للبلاد، تحت قيادة الإسكندر الأكبر، قد وضع بصماته علي نظام عبادتهم. وهكذا نرى، فى مستهل مجىء المسيحية، أثر الزرادشتية، والمثرائية مع العديد من الثيولوجيا اليونانية، على الفكر الدينى بين الأرمن القدامى. ومن الواضح أن قرب أرمينيا من فلسطين، قد أتاح الفرصة لتلاميذ المسيح ورسله، أن يقوموا بنشر الرسالة المسيحية هناك. ولو أننا لا نستطيع أن نحدد مدى نجاح الدعوة.

ولو أننا أخذنا برأى المؤرخين الأرمن، مثل أرمانيان، وغيره، فإننا نقول إن دخول المسيحية هناك جاء على أيدى برثولماوس، وتداوس، الذى يقال إن جسديهما يرقدان هناك تحت مذبحى كنيستين فى جنوب أرمينيا، ويقدسهما الأرمن. ويقال إن تداوس قد بدأ البشارة أولاً عام (٤٣)، ثم لحق به بروثولماوس عام (٦٠). وعلى ذلك يعتبر تداوس أول بطاركة الأرمن....

ومن الجدير بالملاحظة أيضاً، أن قصة الملك الأبجر وشفائه على يد أحد تلاميذ المسيح، والتى أشرنا إليها آنفاً، يربط البعض بينها، وبين تاريخ الأرمن، ويقولون إنها حدثت هناك فى أرمينيا. وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نجزم بصحة هذا الرأى أو ذاك، إلا أننا نقول إنه يمكن التأكد من وجود مسيحيين هناك، قبل مجىء

القديس جورجيوس المنير، قديس أرمينيا فى القرن الرابع، وذلك مما أورده المؤرخون. فلقد أشار يوسابيوس القيصرى، إلى المسيحيين الأرمن فى تاريخه مرتين. الأولى يخبرنا فيها أن ديونسيوس الإسكندرى (٢٦٤ م) تلميذ أوريجانوس، كتب رسالة عن التوبة إلى الأرمن الذين أسقفهم ميروزانس. وفى الثانية يخبرنا بأنه فى إبان الاضطهاد النارى الذى أثاره مكسيميان على المسيحيين (٣١١ - ٣١٣)، قام ذلك الطاغية بإثارة الحرب ضد الأرمن، الذين منذ القديم كانوا على مودة، وصداقة مع الرومان. ولكن لكونهم من المسيحيين، وأتقياء فى تعبدهم لله، قام مبغض الله هذا، بمحاولة إرغامهم على تقديم الذبائح للأوثان والشياطين. وهكذا حولهم إلى أعداء للرومان...

ومع أن الحادثة الثانية يمكن أن تقع ضمن نطاق تاريخ خدمة جورجيوس، إلا أنه مما لاشك فيه أن الحادثة الأولى ترجع إلى عهد بعيد. زيادة على ذلك، إذا كنا نثق بحجج أرمانيان الذى يقتبس عن كتابات ترتليان فى القرن الثانى، فإننا نستنتج بأن المسيحية لم تكن غريبة عن تلك المناطق فى ذلك الحين. فهناك اضطهاد يقال إنه وقع على الأرمن أثاره الملك الفارسى عام (١١٠)، كما أثاره خسرو عام (٢٣٠). ومن المحتمل أن هذا الأخير قد سحق المسيحية هناك أو كاد، محاولاً أن يحل بديلاً عنها الديانة المازدية.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت المسيحية فى باكر عهدها فى ذلك الحين، ويعتقد البعض أنها كانت أبيونية يهودية فى صبغتها ،وكانت لها معتقداتها الخاطئة البعيدة عن الكنيسة الرسولية القويمة. فضمن عقائدهم القول بأن بنوة المسيح الأزلية لم تكن أصلية، بل كانت مجرد تبنى. not sonship but adoption

وهذه العقائد الغريبة، وهذا التذبذب بين الوثنية، والمسيحية فى أرمينيا، انتهى عهده على يدى مؤسس الكنيسة الأرمنية هناك، القديس جورجيوس الملقب

بالمنير... فحتى مجيئه، لم يكن هناك تبشير منظم فى أرمينيا، بل كان هناك مجرد دعاة، يفدون على البلاد من مناطق ثلاث: من أورشليم، وقيصرية، وأديسا...

ولقد بدأ جورجيوس خدمته فى نهاية القرن الثالث للميلاد... وكانت أرمينيا تحت نير الحكم الفارسى، وكان الملوك الساسان يبذلون أقصى الجهد لنشر الديانة المازدية هناك منذ أكثر من نصف قرن. وهكذا اضطر كثيرون إلى الهرب من الاضطهاد إلى البلدان المجاورة.

ومن بين الذين هربوا، كان هناك شاب من أبناء رجل من رجال البلاط، من الطبقة الأرستقراطية، ويدعى جورجيوس، الذى استقر به المقام فى قيصرية، فى كبدوكية، وهناك تثبت فى أسرار الإيمان المسيحى على أيدى الآباء الأولين. ثم عاد إلى بلاده مبشراً بالمسيحية. وتدور العجلة أيضاً، لينحدر الغزاة الفرس، ويعود العرش لأصحابه. وهناك يعرف الملك الجديد، ابن رجل البلاط الذى تحول عن ديانة أجداده، ليصبح مسيحياً، مبشراً بالدين الجديد، فيأمر بتعذيبه عذابات مرة، وينتهى الأمر بسجنه فى جب فى قلعة أرتاشات فى منطقة جبل أراراط.. وفى نفس الوقت يثير الملك الوثنى عاصفة الاضطهاد على كافة المسيحيين فى البلاد، فينال كثيرون منهم إكليل الاستشهاد.

أما جورجيوس فيبقى فى سجنه خمسة عشر عاماً. ويدبر الله له امرأة أرملة تعوله سراً. وإليها يرجع الفضل فى بقائه طيلة هذه المدة حياً. ويحدثنا مؤرخ الملك، وهو أيضاً سكرتيره، بكافة التفاصيل التى انتهت بأن أصبحت المسيحية دين البلاد الرسمى. فالملك يأمر بذبح سبع وثلاثين من الراهبات. وبعد استشهادهن يشعر بالندامة، ويزداد عليه تأنيب الضمير، فتراوده خيالات الجنون. ويخيل إليه أن الشياطين قد حلت به، وحولته إلى خنزير برى... أما شقيقته فترى فى حلم

إنساناً بهى المنظر، يشع النور من وجهه، ويخبرها أنه ينبغى وقف اضطهاد المسيحيين، وأن أخاها سوف ينال الشفاء، لو أرسل فى استدعاء القديس جورجيوس من سجنه، ليصلى له. ويقبل الملك نصيحة شقيقته، ويرسل من يأتى بالقديس، فيصلى من أجله وتحدث المعجزة، فتعود إليه صحته الجسدية، والعقلية.. وينال المعمودية هو وكافة أفراد أسرته.

وهناك تقليد آخر، يدور حول جورجيوس، وكيف أظهر له الرب فى رؤيا عموداً من النور ينبثق فى المدينة ويعلوه صليب، وحوله تلتف حملان بيضاء. فإذا بالبعض منها يعبر المياه، ليعود ذئاباً سوداء، تهجم على الحملان، وتمزق منها ما تمزق. أما الحملان فإذا بها وقد ظهرت لها أجنحة، تطير بها لملاقاة الرب وجنده فى الهواء. وفى نفس الوقت تنزل نار من السماء، لتلتهم الذئاب. ويشع نور النهار ليملأ كل مكان فى الوقت الذى تتزلزل فيه الأرض..

والرؤيا، إذا صحت، لا تحتاج إلى تعليق. فهى تشير إلى ما سيلاقيه ذلك الشعب من اضطهاد مر. ولكنها، على ما يرجح مجرد تقليد. ولكن الأرمن يثقون بصحته، ويقولون إن القديس جورجيوس قد غير اسم المدينة إلى اسم أتشميادزين على أساسها. لأن الكلمة معناها فى لغتهم «الوحيد الذى نزل من السماء». أما عمود النور الذى يعلوه الصليب، فيقولون إنه إشارة إلى تفرد كنيستهم وعلوها، واستقلالها عن كافة المؤثرات.

وبنوال الملك المعمودية هو وأفراد أسرته وحاشيته، أصبح انتشار المسيحية، تحت سلطة الدولة، وتأييدها، أمراً مفروغاً منه. ولقد عين الملك جورجيوس كاثوليكون الكنيسة الأرمنية. وأرسله إلى قيصرية فى موكب عظيم لينال التكريس على يدى المتروبوليت ليونسيوس وحاشيته من الأساقفة عام (٣٠١). أما ذلك الموكب فيشير إلى عراقة الكنيسة الأرمنية، وأرستقراطيتها، وارتباطها بالعائلة

المالكة، مما كان له أثره، وصبغته فى العصور اللاحقة.فلقد ركب جورجيوس المركبة الملكية الذهبية التى تجرها الجياد البيضاء، يحيط بها حرس الشرف، ويتبعها الجند المسلحون. وفى عودته من حفل التكريس كان الملك فى استقباله فى منتصف الطريق، هو وأفراد الأسرة المالكة، حيث التقى الموكبان، عند قاعدة جبل نباد فى أعالى الفرات، واقترنت الفرحة بعماد جماعى لجماهير من الأرمن الذين قبلوا المسيحية.

وهكذا أصبحت المسيحية لأول مرة فى التاريخ، وفى أول بلد من بلاد المشرق، دين الدولة الرسمى، قبل أن تقر روما بها باثنى عشر عاماً بمرسوم ميلان عام (٣١٣). وحتى الآن يفخر الأرمن بهذه الحقيقة.

أما المرحلة الثانية من حياة جورجيوس بعد تكريسه، فقد اتجهت إلى نشر المسيحية فى كافة ربوع البلاد، وتأسيس الكنيسة الأرمنية. وبتأييد من جند الملك، كانت المعابد الوثنية تهدم، أو تحول إلى كنائس. أما كهنة تلك المعابد، فقد آمنوا بالمسيحية، وقبلوا المعمودية، وعينوا كهنة فى الكنائس أيضاً، مما كان له أثره فى اتباع الكثيرين لمثالهم.

وكم كان شيئاً يثلج الصدر، أن يتحول معبد ناهيت إلى دير القديس كاراباك. وأن تتحول هياكل صور فى أرزامين، وأرمزد فى فورت عانى، ونانا فى التل، ومثرا، وغيرها، إلى كنائس. وأن تضم كل أملاكها إلى الكنيسة. وعلى الموقع الذى كانت تقوم فيه ثلاثة معابد، منها معبد افروديت، حيث كان يكرس الملوك، أقيمت كاتدرائية فاخرة، وكرست بدفن رفات يوحنا المعمدان فيها، وقد قام بإحضاره القديس جورجيوس بنفسه من قيصرية. بل إن الملك حضر بنفسه حفل تدشين الكاتدرائية، والذبائح التى ذبحت فى هذه المناسبة....

ولقد كان نجاح جورجيوس فى مجال خدمته بهذا القدر حتى أننا نجده يتحول

فى التاريخ، إلى شخصية تحوطها الأساطير. ويقال إنه قام بعماد أربعة ملايين من الأرمن، فى وقت قصير، وإنه كان يعاونه فى الخدمة أربعمائة من الأساقفة. وأما كون أرمينيا قد أصبحت دولة مسيحية بأكملها خلال فترة حياة ذلك القديس التى انتهت عام (٣٢٥)، فهو أمر لا يحتاج إلى تأكيد. ولكن الرأى الذى ينادى به البعض من المؤرخين، بأن الوثنية قد محقت تماماً هناك خلال هذه الفترة، ينبغى ألا نقبله إلا بكثير من الاحتراس. لقد كان رجال الدين الوثنيين فى أرمينيا ،على جانب كبير من الثراء، والقوة والنفوذ. وربما يمكن أن نصدق خضوع البعض منهم فى العاصمة، والمدن الكبرى، لقرار الملك. ولكن من المشكوك فيه أن ينصاع لهذا القرار من كانوا فى أطراف المملكة النائية. ولقد كان جورجيوس حكيماً، حينما كان يختار أساقفة للكنيسة من بين أولئك.

ويؤكد المؤرخون، أن جنازة أحد أولئك الأساقفة ويدعى موسيغ، وهو من الذين كانوا قبلاً من الوثنيين، قد تمت (٣٧٨) بكل المظاهر والتقاليد الوثنية. ومع ذلك يقال إنه كان أنشط من كل معاصريه فى خدمة الكنيسة فى دائرته.

ولقد خلف جورجيوس بعد موته، كنيسة منظمة ثابتة، تسندها دولة دينها الرسمى المسيحية، ويقف الشعب وراءها. بل مما يجدر ذكره للدلالة علي هذه الحقيقة، أن الإمبراطور مكسميانوس قرر، أن يجرد حملة لوقف تقدم المسيحية فى أرمينيا، حيث هاله أن تصله أخبار جماعات تدخل الدين الجديد، وذلك دون أن يعلم أن عرشه وشيك الانهيار، وأنه سيحتل مكانه، إمبراطور مسيحى عما قريباً.

ولقد تفرعت عن عصور جورجيوس مشكلة كانت لها أهميتها. فإذ قد تكرس بواسطة متروبوليت قيصرية «أثارت الكنيسة اليونانية فكرة أن الكاثوليكون الأرمنى فيما بعد يجب أن يتبع روما، بحجة أن الكنيسة قد تأسست بمجهودات البابا سلفستر الذى أعطى الأرمن التصريح بأن تصبح كنيستهم كنيسة مستقلة

(٣١٤ - ٣٣٥) ولذلك عليها واجب التبعية لروما. أما من وجهة نظر الأرمن، فقد أثبت أورمانيان المؤرخ أن الكنيسة نادت بأنها ليست تابعة لهؤلاء أو لأولئك، لأنها ترجع بتاريخها إلى ما هو أبعد من الاثنين: إلى العصر الرسولى نفسه، إلى القديسين تداوس، وبرثولوماوس مؤسسى الكنيسة. وأن الخلافة الرسولية لم تنقطع هناك على الرغم من العواصف التى ثارت على الكنيسة، ونيران الاضطهادات التى تعرضت لها. ثم جاء دور القديس جورجيوس الذى وإن كان قد تسلم عصا الأسقفية من يدى ليونشيوس من قيصرية، إلا أن هذا لا يشكل قطعاً أو خرقاً للتسلسل الرسولى. أما صلة الكنيسة بروما، فهى لظروف طارئة خلال عصر الصليبيين، فلقد بقيت أرمينيا الكبرى أمينة لتقاليدها الرسولية، وخارج حدود دائرة الإمبراطورية الرومانية. ولذلك فلا أثر لروما على تطورها. كما بقى مجلس أرمينيا الكنسى، مثلما فى فارس وأثيوبيا مستقلاً عن سيطرة الرومان. وزيادة على هذا فإننا لو درسنا الصلات الكنسية لهذا المجلس قبل مجمع نيقية، فإننا لا نرى أى تدخل من جانب روما فى شئون أرمينيا الكنسية. فدعاة بيزنطة، وروما، يبنون نظرياتهم على غير أساس تاريخى...

نقول إننا لو ألقينا نظرة نقدية على الكنيسة الأرمنية خلال سلطة جورجيوس، فإننا نرى أن نقطة الضعف فى الكنيسة، أنها كانت كنيسة أرستقراطية ملكية، أكثر من أن تكون شعبية نابعة من قلب الشعب. فلقد كان الكاثوليكون من أبناء رجال البلاط الملكى. وكان فى تجواله تحيط به مواكب الجند، والحرس الملكى. أما أساقفته، ورؤساء الكنيسة، فقد كانوا من كبار رجال الإقطاع، حيث قد وضعوا أيديهم على ممتلكات الهياكل والمعابد الوثنية التى استولت عليها الحكومة..

بل إننا نقول أيضاً إن الشعب بصورة عامة، ما كانت له إمكانة الوصول إلى الأدب المسيحى، حيث كان يُكتب سواء باليونانية، أو بالسريانية، وهما لغتان

غريبتان عن مجموع الشعب الأرمنى، الذى يتكلم الأرمنية، وذلك على الرغم من أن جورجيوس قد بذل جهوده الجبارة ليغطى هذا الفراغ. ولكن ثماره لم تأت أكلها حتى القرن الخامس بواسطة مجهودات أبطال عظام من الكنيسة. خلال تلك الفترة الطويلة التى تقرب من قرنين من الزمان، لا غرابة أن تسود الخرافات، والوساوس الوثنية بين عامة الأرمن.

وإذ شعر القديس العظيم، بقرب نهاية أيامه، عهد إلى ابنه أرستاكس بالجلوس على كرسيه، بل قام بالفعل بتنصيبه بيديه، ولقد كان أرستاكس فى مجمع نيقية، (٣٢٥ م) فى نفس السنة التى اعتزل فيها والده مهام منصبه، فى الدير فى انتظار النهاية.

ولم يكن هذا إجراء من جانب واحد: تسلسل البطريركية فى أسرة واحدة بالوراثة. بل كان هذا أيضاً بتزكية الشعب الأرمنى لشدة حبه للقديس الذى أفنى حياته فى خدمة المسيحية هناك. ومنذ عام (٣٧٣) انتقلت البطريركية إلى بيت البينوس من سلالة الكهنة الوثنيين الذين اعتنقوا المسيحية على يدى جورجيوس. وقد أثبت أولئك أنهم صنو فى الكفاءة والخدمة لسابقيهم...

وإننا لنستطيع أن نلمح منذ البداية، الصبغة اليهودية فى الكرسى الكهنوتى الأرمنى. فالأرمن يتمسكون بما ينادون به من كونهم سلالة ابراهيم. والبطاركة الأرمن الأولون كانوا متزوجين، ولهم أسرهم. وسار الأساقفة أيضاً على مثالهم. وعلى مثالهم أيضاً أصبحت الأسقفية بالوراثة.

ولكن لعل أغرب ما تميز به المجتمع الأرمنى، فى تمسكه بالتسلسل من الأبيونيت اليهود، ممارستهم لتعدد الزوجات فلقد كان للملك أرشاق الثالث، فى

النصف الأخير من القرن الرابع، زوجتين.[1] إلا أن مثل هذه التصرفات يمكن أن تعتبر فردية وليست شاملة. ويكفى أن البطريرك نرسيس قد اعتكف فى الدير محتجاً على مثل هذه التصرفات التى كانت تتركز، فى الغالب، فى الطبقة العليا...

ولقد أصبح اسم جورجيوس عزيزاً على كل أرمنى حتى يومنا الحاضر. ويحتفل الأرمن بذكرى كل حادثة بارزة فى حياته.. مولده، وإطلاق سراحه بعد سجنه، وتتويجه، ونياحته، ونقل رفاته. وآخر هذه الأعياد يحتفل به البيزنطيون، واليعاقبة، والرومان الكاثوليك أيضاً. وحيث نقل رفات القديس فى ثورتان فى أعالى الفرات، تقوم الآن كنيسة ودير تكريماً لذكرى رسول الأرمن العظيم.........

ولكن لكى ندرس صورة المسيحية الأرمنية فى تلك العصور السحيقة، وأثرها فى الحياة والحضارة هناك، علينا أن نتذكر الخلفية التى أشرنا إليها، من كون المسيحية دين الدولة،وأن الدولة كانت قائمة على أساس إقطاعى يرأسها ملك نصف بربرى. ولقد كانت الكنيسة بقوتها الجبارة، وإمكاناتها الاقتصادية العظيمة، العامل الخيّر الأكبر فى المجتمع، وعلى الأخص حينما كان يتربع على كرسيها راع صالح. هذه الملامح التى اتسمت بها الكنيسة الأرمنية خلال حياتها الطويلة حتى بعد أن اختفى ملوكها، وفقدت استقلالها، لم تكن بصورة أوضح مما كانت عليه فى عهد حفيد جورجيوس البطريرك نرسيس (٣٥٣ - ٣٧٣). الذى يحق له أن يُطلق عليه لقب الكبير. وإذ قام جورجيوس بوضع الأساس، وعلى أكتافه تم تحويل البلد الوثنى إلى بلد مسيحى، أصبحت الخطوة التالية الطبيعية، تأسيس الكنيسة والسهر على رعاية الشعب، روحياً وجسدياً. ومنذ البداية،

---

(١) ويقال إنه قتل واحدة منهما، ليخلو له الجو ليتزوج بأخرى. ثم رسم كاثوليكون مضاد ليقره على تصرفاته. ولم ينقذ الكنيسة من الانقسام إلا موته فى الحرب مع الفرس عام (٣٦٧)....

اتخذت الكنيسة مدينة اشتيشات عاصمتها، أو قلعتها الروحية، وهى تقع فى منطقة تارون. وبهذا الطريق، أصبحت فى استقلال عن الدولة، تعمل بوحى من ظروفها، ودوافعها. وقد كان أمراء الإقطاع يفدون على اشتيشات للفصل فى خلافاتهم، وتسوية نزاعاتهم وفى عام (٣٦٥)) دعا نرسيس مجمعاً مقدساً ضم الأساقفة والنبلاء، لتحديد القوانين السائدة فى البلاد، ولإدخال إصلاحات عاجلة. هذا المجمع نظم قبل كل شىء العلاقات الأسرية، ومنع الزواج من المحارم، الأمر الذى كان يلجأ إليه الإقطاع للحفاظ على أملاكهم، ثم اتجه لمنع العادات الوثنية، والوساوس، مثل السحر، وتحضير الأرواح، واستخدام الأحجبة، وعادات دفن الموتى التى كانت تقترن بتشويه الجسد علامة الحزن. وبعد ذلك سنت القوانين الإصلاحية للبلاد، لإنشاء المستشفيات والملاجىء وغيرها. وكذلك إقامة العديد من الأديرة لايواء الرهبان، والتى وصل مجموعها، حسبما يُقال، إلى ألفى دير، تمتد من حدود مصر، إلى غربى آسيا. ولكنها توقفت بسبب حروب فارس، ومحاولة الساسانيين إعادة المازدية إلى البلاد، وكذلك بسبب الخلافات التى قامت بين الكنيسة، والملك أرشاق الثالث، ونقدها لتصرفات ذلك الملك.

ثم كان عصر ملك «باب» الذى يقال إنه أنهى حياة المصلح البطريرك نرسيس بالسم، وأراد أن يعين آخر على هواه من أسرة منافسة للأسرة الجورجية، ولكنه إذ كان يخشى عدم رضى قيصرية عن ذلك، قرر تكريسه، بواسطة الأساقفة الأرمن، فى قلب بلاده. هذه الحادثة كانت بداية الانقسام على قيصرية، والاستقلال الكنسى فى أرمينيا، الأمر الذى استمر تقليداً متبعاً بعد ذلك، لتكريس البطريرك فى أرمينيا نفسها.

وحتى ذلك الحين كانت الأرمنية، لغة الكلام، تضم الكثير من اللهجات فى أكثر من مجتمع هناك. ولكن لم تكن لغة مكتوبة لأنه لم تكن لها أبجدية. كانت

الكنيسة تعتمد فى قراءاتها وقداسها على اليونانية فى المناطق الغربية، وعلى السريانية فى المناطق الشرقية. ولكن معظم الشعب، ما كان يعرف هذه أو تلك. لذلك لزم الأمر أن تُترجم هذه القراءات التى تتلى فى لغات غريبة، إلى لغة الشعب، وقد كانت هناك وظيفتان فى الكنيسة: القارىء الذى كان يقرأ الكتب فى هاتين اللغتين، والمفسر الذى كان يترجم ويشرح الكلمات التى تتلى إلى لغة العابدين. ولقد ظل هذا الموقف حتى قرب نهاية القرن الرابع، حينما رأى الكاثوليكون اسحاق أنه ينبغى أن يزيل هذه البلبلة.

ويتصادف، لحسن الحظ، أن يجد البطريرك ضالته فى أرمنى موهوب يعتبر الأدب الأرمنى كله مديناً له بكيانه ووجوده.... إكليريكى قام بسيامته عام (٣٩٦) ويدعى مصروب، وجعله تلميذاً خاصاً له، وقد كان سكرتيراً خاصاً للملك. وعهد البطريرك إلى مصروب بمحاربة الوثنية فى أطراف المملكة البعيدة. وفى قيامه بمهمته عرف بحاجة البلاد الملحة إلى ترجمة للكتاب المقدس فى لغة الشعب، ليصبح سلاحاً ضد الخزعبلات، والوساوس، والجهل. وهكذا عند عودته إلى اشتيشات، أثار مشكلة وجوب خلق أبجدية أرمنية، الأمر الذى استجاب له البطريرك بحماس.

وفى فجر القرن الخامس تمت الأبجدية الأرمنية فى ست وثلاثين حرفاً، أقرها المجلس الكنسى، والبطريرك. وفى القرن الثانى عشر، زيد حرفان - هذا الحادث يلى فى الأهمية حادث دخول المسيحية إلى أرمينيا. وبغض النظر عن إمكانة تسطير الأدب الأرمنى فى لغته الوطنية، أصبح الكتاب المقدس فى لغة الشعب، وأصبح الكاهن يتلو القداس فى لغته، كما وحد الكتاب الواحد، اللهجات العديدة التى كانت سائدة حتى ذلك الحين، وساعد على توحيد جزئى المملكة الشرقى لواقع تحت تأثير الفرس وتسوده اللغة السريانية، والغربى الواقع تحت تأثير

اليونان، وتسوده اليونانية.... ثم جاءت الخطوة التالية، وإقرار ترجمة الكتاب المقدس كله. ولهذا الغرض قام مصروب بتدريب مائة من المفسرين، لهذا العمل لمعاونته (٤٠٤ م). وقد تمت ترجمة العهد القديم عن السبعينية، والبشيتا اليونانية عام (٤٣٣). ويضم الكتاب المقدس الأرمنى - علاوة على الأسفار القانونية - البعض من الأسفار الأبوكريفية، المنقولة عن النصوص اليونانية الإسكندرية، والمصادر السريانية القديمة.

ولقد كانت أوقاتاً ضيقة، حاول فيها اسحاق، ومصروب الوقوف فى وجه محاولة إبدال المسيحية بالمازدية، أو الزرادشتية، ونجحا فى ذلك. ولهذا الغرض أقيمت المدارس العديدة الملحقة بالأبروشيات، لتدريب الأرمن، لقراءة كتابهم، فى لغتهم الخاصة. ثم جاءت ترجمة لوترجية القديس باسيليوس، وطقوس المعمودية، والتثبيت، والزواج وغيرها، إلى لغة الشعب. ثم حياة القديسين، والبعض من الأعمال اللاهوتية التى كتبها الآباء باليونانية. أما كتاب الصلوات، فعلى الرغم من ترجمته بأمانة، إلا أنه طُعم بألحان أرمنية، تعكس لون الموسيقى هناك، على غرار ما قام به القديس أفرايم فى السريانية الأصلية...

وعلى الرغم من أن ترجمة مصروب، تعد تفسيراً أكثر منها ترجمة أو أكثر تأثيراً منها تعبيراً، فإنها تعد حجة لنا، بأن الكتاب المقدس الذى نستخدمه فى عصرنا الحاضر، بترجماته العديدة، هو هو الذى كان يستخدمه المسيحيون فى الكنيسة الرسولية الأولى. أما الكتاب فقد كان قوة لها أثرها فى الشعب. حتى أنه مهما كانت الاضطهادات، والحروب، التى تؤدى إلى تغيير الوضع السياسى والاجتماعى فى البلاد، يبقى الكتاب المقدس، وتبقى المسيحية صخرة عالية لا تؤثر فيها الأحداث. وقد اضطر الفرس أخيراً بعد معركة أفرير وعقم محاولات الساسانيين فرض سيطرتهم على البلاد أن يعلنوا، فى عهد يزيد جرد الثانى

(٤٣٨ - ٤٥٧) الحرية الدينية فى أرمينيا ، كما اضطر الحاكم الأرمنى، أن يوحد مقره مع البطريرك فى دوين، لمواجهة الأحداث الطارئة....

ثم كان مجمع خلقدونية وأحداثه عام (٤٥١)..

ولم يكن الأرمن فى حالة تمكنهم من الإسهام فى المؤتمر بدور فعال، مع أنه قيل إنه كان هناك من يمثلهم من الأساقفة. لقد كانت هذه فترة صراع مميت ضد الفرس. وكانت الكنيسة فى حالة يرثى لها ، انتهت باستشهاد بطريركها هوسب (٤٥٤). وحتى لو وجهت الدعوة إليهم للحضور، فإن هذا ما كان ممكناً، من الإمبراطور ماركيان الذى تنكر لهم وانحاز إلى قوات الظلمة..

وعلى ذلك لم يبق لهم، للبت فى الأمور التى تناولها المجمع إلا الانتظار إلى ظروف أفضل، يكون فيه السلام قد عاد إلى الكنيسة. وهذا كان فى النصف الأخير من القرن الخامس للميلاد عند انعقاد المجمع الثانى فى أفسس. ولقد صوّت الأرمن إلى جانب كيرلس الإسكندرى مقرين بطبيعة المسيح الواحدة المتحدة فى الكلمة المتجسد، وأدانوا قرارات مجمع خلقدونية منادين بأن لها صبغة النسطورية. ومن ذلك الحين، أصبحت أرمينيا ضمن دائرة المنوفزتيين الشرقيين.

ولقد كان لهذه القرارات أثرها السياسى بعيد المدى. فالانقسام على قيصرية، ـعاداة خلقدونية، انتهى إلى عزلة كنيسة أرمينيا ، وهكذا حاولت الحفاظ على ـانها وتثبيت أركانه، للأجيال القادمة، وحينما حاول الكاثوليكون عزرا (٦٥١)، ـتجابة لإغراء الإمبراطور هرقل، الاتحاد مع اليونان، انعقد فى الحال مجمع ـنزكيرت وأدان تصرف عزرا ، وقرارات خلقدونية.

وأخيراً أنقذت أرمينيا من احتمالات الاتحاد مع الكنيسة اليونانية، أو محاولات روما معها ، بالفتح العربى، وقيام الإمبراطورية الإسلامية فى الشرق ـأوسط...

الفصل الحادي والعشرون

الأرمن، تحت سلطة العرب، والصليبيين، والأتراك

لقد كان غزو العرب لأرمينيا فى القرن السابع إيذاناً بعهد جديد هناك. فالغزاة الجدد الذين انتزعوا السلطة من كل من الفرس، واليونان، أسسوا حكومة على أساس جديد. لقد وجدوا أنه من الحكمة السيطرة على البلاد عن طريق أمراء الاقطاع، الذين فى استطاعتهم دفع الخراج لهم. ولقد كانت الإمبراطورية البيزنطية التى بدأت تفقد شيئاً فشيئاً أراضيها بتقدم الجيوش العربية، تحاول على الأقل، أن تحتفظ بأرمينيا الغربية ضمن حدودها المنكمشة. هذا التمزق فى أرمينيا بين تقاليد الشرق والغرب، أضعف البلاد سياسياً، ولكنه لم يضعفها من الناحية الدينية. لقد أصبحت الكنيسة بعد انهيار السلطة الحاكمة الوطنية، الملجأ الوحيد للشعب الأرمنى سواء تحت سلطة العرب، أم سلطة اليونان. ولم يكن للعرب مصلحة ما، فى تأييد هذه العقيدة المسيحية. وهكذا كانوا أكثر تسامحاً فى فجر السيطرة الإسلامية. وهكذا اتسع المجال أمام الرؤساء الدينيين، تحت الحماية الإسلامية، لتنفيذ آراء اليونان، ومجمع خلقدونية، وأثبتت الكنيسة رفضها الكامل، لأى اتفاق مع الكنيسة البيزنطية، وتمسكها بعقيدتها المنوفزتية...

ولعل أصدق الأمثلة على ذلك، موقف الكنيسة الذى أصبح فى مجمع منزكريت عام (٧٢٦)، الذى عقد مع الأساقفة السريان برئاسة الكاثوليكون الأرمنى (هوفانوس) الملقب بالفيلسوف. ولقد كان هوفانوس رجلاً واسع العلم، والمعرفة قدم الكثير من المؤلفات للمسيحية. كما قام بالإصلاحات الكثيرة فى الكنيسة. كما كان دبلوماسياً واسع الأفق يغتنم كل فرصة لخير شعبه.

وهناك قصة تروى عن لقائه مع الخليفة عمر (٧١٧ - ٧٢٠) كيف أنه ارتدى أفخر الملابس الكهنوتية لهذه المناسبة. ولما التقى به الخليفة ابتدره بالقول، إن كان المسيح قد علم شعبه هذه الفخفخة فى الثياب. أما الكاثوليكون فقد طلب لحظة لقاء على انفراد مع الخليفة. وهناك كشف له تحت هذه الملابس، عن رداء من شعر الماعز يلبسه على اللحم تحت هذه الثياب الفاخرة. أما عمر فقد أبدى دهشته من أنه لن يستطيع إنسان أن يحتمل هذا الإذلال للجسد، دون معونة الله، كما أبدى استعداده على تقديم كل طلبات البطريرك. أما هوفانوس، أو يؤنس فقد طلب الحرية الدينية لشعبه، وإعفاء الكنائس ورجال الدين من الضرائب، الأمر الذى وافق عليه الخليفة، كما أصدر أمره بإطلاق سراح جميع أسرى الحرب...

ولقد كان للمسيحيين، عموماً، الحق، تحت حكم الخليفة عمر، وبمقتضى عهده، فى الحفاظ على المؤسسات الدينية القائمة إبان الغزو الإسلامى. ولكن لم يكن لهم الحق فى التوسع فى بناء كنائس جديدة - هذا القرار ما كان سائداً فى أرمينيا تحت الحكم الإسلامى. وإننا لنجد فى عهد الملك أشوت فى القرن التاسع، ابنته مريم تقوم ببناء أكثر من أربعين كنيسة ودير فى منطقة مدينة أراراط. أما الكنائس القديمة فقد استعيدت، وزينت بالأيقونات والصور الفاخرة.

وفى مجال العقيدة، صدت الكنيسة كل محاولات بيزنطة لضمها إليها. وحينما حاول فوتيوس بطريرك القسطنطينية (٨٥٨ - ٨٦٧) أن يجدد مساعيه لكسب الأرمن، تصدى له الكاثوليكون زكريا منادياً بأن قرارات خلقدونية قد أدانتها مجامع ثلاثة.

وقد يكون من المغالطة للتاريخ أن نقول، إن الأرمن قد نعموا بكل وسائل الراحة تحت الحكم الإسلامى فى تلك العصور. فقد كانت لهم منغصاتهم. وكثيراً ما كان البطريرك يضطر إلى تحمل مشاق السفر إلى بلاط الخليفة ليقدم مطالب

شعبه. وكم من مرة اضطر إلى نقل الكرسي البطريركي من مدينة إلى أخرى، بسبب اعتداءات الجيوش المتكررة على تلك المدن، حتى أنه قيل عن تلك الفترة إنها كانت فترة البطاركة المتجولين، ولا نقول المشردين. زد على هذا أن الكنيسة ابتليت بالشقاقات والبدع. ومع ذلك فقد بقى الأرمن حتى تلك الفترة، أمناء لتراثهم التاريخي،حريصين على التمسك بعقيدتهم الشرقية. وحين كانوا يشتبهون في ميل أى واحد من رؤسائهم نحو الغرب، سرعان ما كانوا يطيحون به، إذ يتصدى له الأساقفة، ويعزلونه.

ولكن الحال لم يدم طويلاً، إذ بدأت تتراخى قبضة العرب على الأناضول، وشمال العراق، وبدأ يظهر عنصر جديد على مسرح الأحداث التاريخية، هم السلاجقة الأتراك، في نشاطهم التوسعي، بينما كانت الإمبراطورية البيزنطية تحاول أن تستعيد شيئاً مما فقدته في غربي آسيا.وهكذا وقعت أرمينيا مرة أخرى بين شقي الرحى. وقد كتب النصر في النهاية للسلاجقة في موقعة منزكريت (١٠٧١)، ووقع ملك الأرمن ديوجينس في الأسر بين أيديهم. وحين افتداه شعبه بثمن باهظ، عاد إلى أرمينيا، ليجد أفّاقاً يدعى ميشيل دروجاس، يجلس في مكانه، ويأمر بأسره، وقلع عينيه، ويلقيه ليقضى بقية حياته في سجن أقسى.... ولقد كان السلاجقة، على النقيض من العرب الذين كانوا يحكمون البلاد بالتفويض عن طريق عملاء أو اقطاعيين، أو وكلاء عنهم، ولا يهمهم إلا استقرار الأمن، وتوريد الجزية، أو الخراج، كان أولئك يحلمون برئاسة البلاد ، والاحتلال الدائم. ولم يكونوا نظير العرب يحترمون عقيدة غيرهم، ولا يعتدون على مقدساتهم، بل كانوا أفاقين، متكبرين، مدمرين. وكانت النتيجة تدهور أرمينيا تحت حكمهم القاسي. وبعد سقوط «عاني» - المقر الديني والسياسي للبلاد - ساد الكنيسة والدولة الارتباك واضطر الكاثوليكون إلى نقل مقر البطريركية من مكان إلى مكان، هارباً من هذه المدينة إلى تلك. أما عن النبلاء، فقد حاول كل واحد مصانعة المستعمر

الجديد، والإفادة من ذلك الوضع المتدهور. أما الشعب، فقد كان يفر جماعات جماعات هارباً، إلى أديسا، وعبر جبال طوروس وكيليكية. ولكى نرى القارىء، مدى ما وصلت إليه الحال، فإننا نجد أن مغامراً أرمنيا يستولى على أديسا (١٠٨٣)، ويخلفه بعد موته آخر (١٠٩٠) وباروناً لصاً يدعى كوخ فازل يستولى على ثلاث مدن فى أعالى الفرات. ودوقاً أرمنياً يحكم طرسوس ويوسع أملاكه بعد ذلك.

على أن الذى نجح فى تأسيس أسرة مالكة فى أرمينيا الصغرى واحد باسم رأوبين (١٠٨٠)، استطاع أن يستولى على عدد من القلاع فى جبال كيليكية، واستمرت أسرته تحكم البلاد مدة قرنين من الزمان، ثم جاء عصر الصليبيين، وبدأت صفحة جديدة فى تاريخ أرمينيا سياسياً، ودينياً..

ولقد كان عصر الصليبيين هو عصر مملكة أرمينيا الصغرى، التى تكونت فى كيليكية، بعاصمتها سيس. ولقد حكم البلاد أسرتان، متتابعتان. أولاً كبارونات ثم كملوك. أسرة الرأوبينيين، ثم أسرة هيفوميان. وكانت كل من الأسرتين فى أكثر من وفاق مع الصليبيين. فالمصالح السياسية واحدة ومشتركة وعلى رأسها محاربة الأتراك وهذا كان من نتيجة التقارب، بين الأرمن، وبين جيرانهم اللاتين.وإننا لنجد الأمر يصل إلى التزاوج والتصاهر بين أولئك، وهؤلاء.. حتى أنه حينما جاء وقت لم يكن للأسرة الرأوبينية، وريث ذكر للعرش (١٢١٩)، نجد الملك يزوج ابنته إيزابلا،لفيليب الأنطاكى وهو من اللاتين، على شريطة أن يعتنق العقيدة الشرقية.

وحينما رفض هذا الشرط بعد ذلك، ثار عليه الأمراء الأرمن، وعزلوه عن العرش، وقتلوه، ثم زوجوا ابنة الملك لآخر: هيثوم الأول، مؤسس الأسرة المالكة الثانية. ومع ذلك فقد كانت الأسرة الجديدة فى تقارب مع اللاتين، حتى أن إحدى بنات الأسرة المالكة فى قبرص، تزوجت من واحد من الأمراء الأرمن. وفى هذه

الظروف الجديدة، لابد وأن تقع الكنيسة الأرمنية تحت سحر الكنيسة اللاتينية خلال هذه الحقبة من تاريخها. أما بطريرك الأرمن، فقد اضطرته الظروف إلى نقل مقر البطريركية، إلى العاصمة سيس - هذا التقارب لم يكن تقارباً عقائدياً، بل كان تقارباً سياسياً أملته الظروف، حتى أننا نقول إنه على الرغم من أن البطريرك أو الكاثوليكون، قد انتهج هذه السياسة، إلا أن ما أصبح ما يسمى «بالكتلة اللاهوتية الشرقية» أى مجموع الأساقفة واللاهوتيين، قد ظل متمسكاً بعقيدته، مخلصاً لمبادئه. أما تقارب الكنيسة من الغرب، فقد كان أمراً وقتياً، وعملاً سياسياً. وحتى قبل عهد الصليبيين أرسل الأرمن أسقفاً إلى البابا جريجورى السابع (١٠٧٣ - ١٠٨٥)، طالبين معونته، وتأييده، فى الظروف التى تجتازها الكنيسة....

ولقد وصل الأمر فى وقت من الأوقات، فى عهد البطريرك نرسيس الرابع، إلى أن يحاول نوعاً من الوحدة بين اليونان، واللاتين، والسريان،والأرمن. ولهذا الهدف اجتمع مع حاكم كيليكية اليونانى، الذى رفع الأمر إلى الإمبراطور إيمانويل الأول. واستمرت هذه المجهودات حتى نهاية حكم نرسيس. ولكنها لم تسفر عن نتيجة ما، حيث أن الإمبراطور أصر على تمسكه بقانون الإيمان الخلقدونى. ثم جاء عهد جورجيوس الرابع كاثوليكون الأرمن، فدعا الأساقفة إلى مجمع لمحاولة الوحدة مع الكنيسة اليونانية، دون تنازل عن العقيدة. ولكن الظروف الداخلية للإمبراطورية، لم تقدر النجاح لهذه المجهودات وهكذا لم يبق للأرمن إلا اللاتين للاعتماد عليهم، مع احتمال خطر الانشقاق فى الكنيسة وبخاصة بعد تتويج الملك ليو الثانى، الذى قام الأساقفة الأرمن بانتخاب بطريرك مضاد للوقوف فى وجهه..

أما المحاولة السافرة للانضمام إلى روما، فقد جاءت فى عهد الكاثوليكون قسطنطين الأول (١٢٢١ - ١٢٦٧). وقد كان معاصراً للملك ليو الثانى، وهيثوم

الأول، اللذين كانا من أقوى مؤيدى روما.

ومنذ ذلك الحين أصبح البطاركة الأرمن، واحداً بعد الآخر، يقرون بقانون الإيمان اللاتينى. وبدأت تتغلغل محاولات الوحدة فى كيليكية، كما قام الرهبان البندكتان، بافتتاح فرع لرهبانيتهم هناك لصبغ الكنيسة بصبغة روما. أما الذين بقوا أمناء لعقيدتهم الشرقية، فقد انتخبوا بطريركاً مضاداً. وأصبح هناك بطريركان للأرمن أحدهما فى سيس، من المتحدين مع روما، والآخر فى أقطار من التابعين للشرقيين. ولقد ظل هذا الازدواج سارياً حتى سقوط مملكة كيليكية.. إلى أن كان عصر البابا أيوجينيوس الرابع، الذى تقدمت إليه سفارة من بعض علماء اللاهوت الأرمن، طالبة الانضمام إلى روما. وعلى هذا الأساس أصدر وثيقته عام (١٤٣٩) بضم الكنيسة الأرمنية إلى روما. ولو أن هذا الضم لم يخل من معارضة، ومتاعب خلال أجيال طويلة، نعفى القارىء من الخوض فى تفاصيلها...

ومنذ فقدت أرمينيا استقلالها، وبدأ عصر شتاتها أصبح تاريخ الكنيسة قصة مبكية من الانحلال، والتدهور، والشقاقات، والصراع. وتاريخها يتحدث عن صراعات قاسية، أدت إلى مجىء الإرساليات وانتهازها لتلك الظروف، ونجاحها فى نشاطها هناك.

ولعل من أوضح المعالم فى تاريخ الكنيسة الأرمنية فى القرن الثامن عشر، عودة الإرساليات الكاثوليكية تحت حماية فرنسا، والسفير الفرنسى، فى القسطنطينية.

وفى الواقع اتخذ الكاثوليك سياستين متباينتين للوصول إلى أغراضهم، الأولى سياسة الضغط والإرهاب عن طريق السلطات الحاكمة. فحين لم تنجح المداهنة مع البطريرك أفديك، قام السفير الفرنسى بتأليب السلطات عليه، ونفيه خارج البلاد، حيث ألقى القبض عليه وتمت محاكمته أمام محاكم التفتيش، وإعدامه فى فرنسا

عام (١٧١١).

والثانية سياسة المداهنة، والاستمالة، وإغراء الشعب وبخاصة المثقفين منهم. ولقد نجحوا، في تلك الآونة، في استمالة واحد من أنبغ رجال الإكليروس هناك، ويدعى مختار السبسطي، الذي كان يترأس صفاً جديداً للرهبنة، لخدمة العلم، والتربية بين الأرمن. وفي عام (١٧١٧) دعاه البابا إلى فينسيا للإقامة هناك، حيث التف حوله جماعة من المعجبين به، ليكونوا نواة الرتبة المختارية الأرمنية التي استقر بها المقام في جزيرة سان لازارو. ولقد كان نشاطها يدور حول الأدب الأرمني، وإنا لنجد حتى أرمانيان يذكر مخاترة فينسيا بالتقدير على ما قاموا به من خدمات للثقافة الأرمنية.. وبسبب نشاطهم، أمر البابا بتأسيس الكلية الأرمنية.. في نفس الوقت في روما، ليزيد في اجتذاب آخرين إلى أحضان اللاتين... وفي نفس الوقت قرر الكاثوليك أن يقيموا مركز تبشيرهم ونشاطهم في لبنان. ذلك لأن المسيحيين اللبنانيين في معظمهم، كانوا من الموارنة الموالين لروما، والمتحدين معها. وأيضاً لأن الأرمن الذين ينتمون إلى الكيليكين، والذين نزحوا إلى سورية، أو بقوا في تركيا ،كانت لهم الربط الوثيقة مع الرومان الكاثوليك، منذ عهد الصليبيين. وهكذا نجح المدعو ابراهيم العطار في إقامة رهبانية على غرار الأنبا أنطونيوس، وبمعاونة اثنين من الأساقفة، ومجموعة من الكهنة، قام بتأسيس بطريركية كاثوليكية للأرمن، وانتخب لها رئيساً وافق عليه البابا بندكت عام (١٧٤٢).

أما القرن التاسع عشر، فقد شهد ثلاثة أحداث كان لها أثرها في الدوائر الكنسية الأرمنية. ولعل أهمها ازدياد عدد العلمانيين وأثرهم في الكنيسة. وهكذا قام أولئك مع اللاهوتيين ببحث المشاكل التي ترتبت على دخول العنصر الروماني في البلاد، واستمرت المناقشات والاجتماعات، خلال عدة سنوات، مما كان

له أثره فى قيام السلطات العثمانية بإقرار الملة الكاثوليكية عام (١٨٣٠)، وهو الحدث الثانى الهام ضمن هذه الأحداث. أما الحدث الثالث، فقد جاء نتيجة للثانى: فقد قرر البروتستانت أن يلحقوا بالركب.

وكانت أول إرسالية منهم إلى تركيا، فى عام (١٨٣١). حينما قام القس الأمريكى وليم جوديل، بالانتقال من مالطة إلى القسطنطينية بهدف إحياء الحركة المصلحة بين الأرمن، وإنقاذها من التقليدية. وفى العام التالى قام الأنجليكان أيضاً، مؤيدين برسائل من رئيس أساقفة كانتربرى وأسقف لندن، بزيارات «افتقادية» لأثينا والقسطنطينية.

ولقد سار الاثنان فى خطين مغايرين، ولو أنهما اتفقا على الناحية التعليمية، والخدمات الاجتماعية. ففى الوقت الذى اتجه فيه الأمريكان إلى تأسيس الكنيسة الإنجيلية فى أرمينيا، كان هدف، الأنجليكان، على حد تعبيرهم، إيقاظ الكنيسة الوطنية، كما ورد فى تقرير مستر بادجر.

ولقد نجح البروتستانت فى إقرار الملة، بفرمان عثمانى فى عام (١٨٤٧)، وهذا معناه أنهم فى ذلك الوقت قد أصبح لهم من العدد الكثرة، والقوة السياسية، ما يؤهلهم لأن يكون لهم الكيان المستقل. ومع أن الكنيسة الأم قد أصدرت حرمانها على كل بروتستانتى مما أدى إلى انقسام المجتمع الأرمنى، إلا أن البطريرك والمؤرخ أرمانيان ختم تصريحه بالقول: إنهم على الأقل قد أصبحوا حلقة الاتصال مع العالم الغربى، فلا الأرمن، ولا اليونانيين، أنكروا الدور الثقافى، والاجتماعى، الذى قام به البروتستانت. ولكنهم أبدوا قلقهم من انسلاخ أعداد كبيرة من الكنيسة وانضمامهم إليهم. ولقد كان الأنجليكان، وكنيسة اسكتلندا، أكثر حكمة وتعاطفاً مع البطريرك الأرمنى، فى عدم إقامة طوائف مستقلة تابعة لهم. ومما قاله القس باكستون من بيروت فى خطاب أرسله لصديق له فى سميرنا

(١٨٣٧).

«إن خطتنا، لا أن نفصل هؤلاء الأعضاء عن كنائسهم الفاسدة التى ينتمون إليها، ولا أن نعمل بمعاول الهدم، لتقويض أركان تلك الكنائس، بل أن نرقى بهم، ونسمو بحياتهم، روحياً، وجسدياً، واجتماعياً، مع بقائهم فى كنائسهم ليعيدوا لها أمجادها القديمة».

ثم جاء دور الروس على مسرح الأحداث فى المشكلة الأرمنية، فى مواجهتهم للإمبراطورية العثمانية فى القرن الثامن عشر.. ولقد كان القياصرة يرغبون فى أن يكونوا حماة الأمة الأرمنية. وذلك لاشتراكها مع حدودهم، ولمنع الهجرة من تركيا إلى روسيا.

ولقد كان رئيس الأساقفة الأرمن من مؤيدى هذه الحركة آنذاك، ونال مكافأته على ذلك: ترقيته إلى مرتبة الأرستقراط على يدى القيصر بول. وفى ظل تعاون الشعب مع الرؤساء أمكن إلحاق مدينتى اتشميازين وأريفان ضمن الحدود الروسية، وهى الخطوة التى أمكن بها أن يصبح الأرمن، ضمن محور الروس. وفى عام (١٨٣٦) صدرت عدة قوانين تنظم العلاقة بين الدولة، وبين البطاركة، الأمر الذى أصبح يبشر برفع النير عن كاهل الكنيسة وعدم تدخل الدولة فى شئونها، ومع أن هذه القوانين لم تصبح سارية المفعول، فى سنوات لاحقة. إلا أنها أعطت الامتيازات الأكثر لرجال الإكليروس، فى مقابل القوانين العثمانية التى أعطت العلمانيين السلطة الأكبر، للتدخل فى شئون البطريركية فى القسطنطينية. وفى روسيا حل مجلس روحى أعلى محل السنودس الأرمنى...

ولكن صبغ الكنيسة الأرمنية بالصبغة العلمانية الكاملة لم يتم إلا تحت حكم الاتحاد السوفيتى بعد الحرب العالمية الأولى. وهذا كان النظام السائد الذى اتبعه السوفيت وبالطبع لم يستثن الأرمن من هذه القاعدة.

أما ما بقى بعد ذلك، من تاريخ الأرمن، فهو المذابح المروعة التى حدثت لهم فى تركيا، وكيف قامت الإرساليات الأوربية، والأمريكية، - التى كانت أملاكها تتمتع بالحماية الدبلوماسية - بتخفيف آلام المعذبين، وإنقاذ من أمكن إنقاذه منهم.

بل إن البعض منهم قام بأعمال آية فى البطولية، بإخراج أعداد غفيرة من المطاردين، تحت حمايتهم، خارج حدود تركيا. كما قام آخرون بفتح دورهم، ومعاهدهم لإيواء الكثيرين. وعلى الرغم من نظرة الازدراء التى كان ينظر بها الشعب، إلى الكاثوليك، والبروتستانت، قدم أولئك خدمات لا تحصى لذلك الشعب المنكوب بل إن أجل خدمة قدمت للكنيسة الأرمنية فوق هذا وذاك، إيقاظها من سباتها العميق. ويكفى أن نورد هنا، ما يؤكده المؤرخون، أنه خلال قرن من خدمة الإرساليات فى تركيا، أنفق «المجلس» الأمريكى وحده عشرين مليوناً من الدولارات، على الإرساليات قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الأولى... بما فى ذلك خدمات التربية والتعليم والعناية الطبية...

ونعتقد أننا بهذا نكون قد قدمنا نظرة خاطفة، على كنيسة عظيمة، وشعب عريق. أما عن لوترجية الأرمن ونظام الإكليروس عندهم، وما أسهموا به فى مجال الأدب المسيحى، وملامح الفن، والهندسة عندهم، وغير هذه من السمات المميزة لهم فإننا نحيل القارىء على «مسيحية الشرق» للأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية. فلم يبق لنا، فى حيز هذا المجال الضيق من الدراسة، إلا صفحات قليلة نخصصها لنظرة خاطفة على كنائس المسيحية الغاربة. قبل أن نطوى هذه الصفحات....

الجزء السادس

كنائس المسيحية الغاربة

الفصل الثانى والعشرون

كنائس المسيحية الغاربة

قرطاجة، والنوبة، والمدن الخمس

على الرغم من أن معظم كنائس المشرق قد ثبتت فى وجه الأعاصير واستطاعت أن تقاوم الزلازل العنيفة التى اجتاحت الشرق الأوسط وشمال أفريقية، ووقفت راسخة أمام النار والحديد، وحفظت شعلة المسيحية متألقة فى أقسى الأوقات ظلاماً، إلا أن بعضها قد ترنح وسقط، وعفا عليه الزمن، وأصبح ذكرى فى بطون التاريخ وطوته الأحداث... على الرغم مما كان له من إسهام، وصولات، وجولات فى تاريخ المسيحية الأولى، حتى أننا نرى لزاماً علينا أن نشير، فى سطور قليلة، إلى تلك الكنائس التى صنعت تاريخ المسيحية فى وقت من الأوقات.

وفى معرض حديثنا عن كنائس اليعاقبة والنساطرة، أشرنا بين الحين والحين، إلى جماعات مسيحية فى العراق وفى بصره، وفى مجامع النساطرة فى آسيا الصغرى، وفى منغوليا، وفى قلب بلاد الصين. كل هذه قد انتهى دورها، حتى أننا اتجهنا إلى الحفريات، وإلى بطون الكتب لنعرف شيئاً عنها. كذلك كانت هناك كنائس فى أماكن أخرى، تعرضت لنفس المصير.

وإذ نستعرض خريطة المسيحية الشرقية، نستطيع أن نرى أن الكنيسة الأولى، فى ثلاثة مراكز، قد تأصلت واشتد عودها، ونمت بصورة مذهلة. ثم جاء دور الاحتضار، فاختفت بنفس السرعة التى ظهرت بها هذه المراكز أو المجامع، هى مجمع قرطاجة فى شمال أفريقيا من الجانب الواحد، ومجمع المدن الخمس أو (القيروان) من الجانب الآخر. ثم مجمع النوبة جنوبى أسوان، بعد الشلال الأول. وعلى فلسفة التاريخ أن تشرح لنا ظهورها السريع، واحتضارها السريع أيضاً.

فلقد كانت قرطاجة، على سبيل المثال، ذات أثر لا يمحى فى تقدم المعرفة والفكر اللاهوتى المسيحى. ومع ذلك فقد لاقت مصيرها قبل انهيار المسيحية فى المدن الخمس والنوبة، بقرنين من الزمان...

وأن البعض من المؤرخين ليقرن قرطاجة بالمدن الخمس فى وحدة لا تنفصم، حيث أنهما تقعان فى نطاق جغرافى واحد فى شمال أفريقيا. ولكن بالتأمل الدقيق، نرى أنهم يجانبون الصواب. ففى الوقت الذى كانت فيه القيروان تطل على الاسكندرية، كانت قرطاجة تشخص إلى روما! ولكننا لا نريد أن نبالغ فى هذا، أو نتحدث عن ارتباط كنسى أو خضوع من قرطاجة لروما فى فجر المسيحية. بل إنه من الصعب العسير علينا أن نحدد مصادر أو ينابيع المسيحية التى دخلت إلى شمال غربى أفريقيا فنقول إن كانت قد أتت عبر البحر الكبير من الشمال، أو إن كانت قد وفدت عليها من الشرق، أو إن كان الشمال والشرق يشتركان معاً فى قلة أو كثرة. فى تلك العصور السحيقة نقول إن كل كتابات الآباء كانت فى اليونانية. بل إن اليونانية كانت سائدة فى قلب إيطاليا وروما نفسها. وما كان للاتينية كبير أثر. أما كيرانيكا فقد كانت مرتبطة بكرسى الإسكندرية منذ عام ٣٢٥ للميلاد - بشروط المجمع النيقوى السادس.

ومع ذلك فقد كان التوأمان مرتبطين. وكانت بينهما أكثر من صلة مشتركة. وكانا يضمان، علاوة على السكان الأصليين الذين لقبوا بالبربر منذ الغزو الإسلامى فى القرن السابع، أجناساً أخرى مثل الفينيقيين، واليونانيين، والرومان، والمصريين. وقد كان للإغريق أثرهم فى القيروان، بينما كان أثر الفينيقيين أكثر دواماً فى قرطاجة. هذه الخلفية لازمة كل اللزوم لدراسة النهضة الدينية فى شمال أفريقية، تلك النهضة التى كان لها أثرها فى التراث المسيحى خلال العصور. ولنبدأ بقرطاجة..

وفى هذه الصفحات التى بقيت لنا فى سعينا الحثيث لمعرفة تاريخ الكنيسة الشرقية خلال العصور، لن يتوقع القارىء الكريم منا أن نقدم تقريراً مفصلاً، مؤيداً بالهوامش والأسانيد.. ولكن يكفينا أن نتطلع إلى النجوم الساطعة التى لمعت فى سماء هذه الكنيسة فى حقبة من الحقب، وكان لها أكثر من أثر فى مجريات الفكر المسيحى، خلال أكثر من جيل وعصر.

ويكفى فخراً لكنيسة قرطاجة أن يرتبط اسمها بأسماء ثلاث من القمم الشامخة فى تاريخ المسيحية: المؤرخ ترتليانوس، والقديس كبريانوس، والقديس أوغسطينوس من هيو..

أما ترتليانوس فقد كان ابن قائد مئة رومانى وثنى، مهاجر إلى قرطاجة. وقد ولد عام ١٦٠ للميلاد، وتشبع بكل علوم عصره، وربما تلقى أيضاً تعليمه الجامعى فى روما. ولكنه كان ابن قرطاجة. وهناك اعتنق المسيحية... وفى قرطاجة كتب معظم كتبه. ولقد كان هذا إبان عصر الاضطهاد الرومانى، فاستغل ترتليانوس مواهبه، ودراساته كمحامى للدفاع عن المسيحيين الشهداء والدفاع عن الحق المسيحى. وإننا نلاحظ قوة حججه وعظمة منطقه فى قولته الشهيرة التى تناقلتها الأجيال: «إن كان نهر التيبر يفيض فيّصل إلى جدران المنازل، وإن كان نهر النيل تتناقص مياهه فلا تصل إلى الحقول، إن كانت السماء لا تتحرك فتعطى مياهها، وإن كانت الأرض تتحرك فتزلزل زلزالها، إن كانت هناك مجاعات، أو كانت هناك أوبئة، فالصرخة ترتفع فى كل هذه: القوا بالمسيحيين إلى الأسود!».

ثم كان استشهاد بربتوا، وفيلستاس اللتين مزقتهما الأسود، مع آخرين من المسيحيين، فى ملاعب قرطاجة عام (٢٠٣)، وذلك بأمر الإمبراطور سيفيروس. وقد شهد ترتليانوس هذا المشهد ووصفه تفصيلاً فى كتاباته. لقد كان لسكان شمال أفريقيا، شأنهم شأن المسيحيين فى كل مكان شهدائهم. ولقد نالت كنيسة

قرطاجة أيضاً معمودية الدم. وعن ترتليانوس ننقل القول المأثور: «إن دماء المسيحيين هى بذار الكنيسة» وهو القول الذى كان يُعزى به الشهداء مؤكداً أن حقل المسيحية سوف يتسع ويمتد. وأن الاستشهاد ليس وبالاً عليها، بل هو بركة عظمى لها.

ولقد كان ترتليانوس لاهوتياً، وكاتباً غزيراً، حتى أننا نقول عنه إنه أوريجانوس كنيسة شمال أفريقية. ومع أنه كتب الكثير من كتبه وأبحاثه باللغة اليونانية، إلا أنه كان أول من بدأ يكتب باللاتينية. وإليه يرجع الفضل فى استخدام كلمة الثالوث، التى وردت فى دفاعه عن المسيحية ضد التعاليم الأغنسطية. ولعله أول كاتب مسيحى يطبق مبادىء علم النفس على العلوم اللاهوتية المسيحية،وذلك فى بحث بعنوان «النفس» وفى غيرته المطلقة على الإيمان، نراه يعتنق مبادىء المونتانية بشروطها القاسية فى الأصوام، ومنع الهروب أمام الاضطهادات،وضرورة تعميد المرتدين الراجعين مرة ثانية. وإننا لنجده يتهم كنيسة روما بانعدام التنظيم الروحى فيها. وفى غيرته يحارب كل الهرطقات سواء كانت أغنسطية، أو مانشية، أو مركيونية. ومع أنه لم يرسم كاهناً، أو أسقفاً، إلا أننا نستطيع أن نضمه إلى زمرة الآباء الأولين، الذين ظهروا قبل المجمع النيقوى. وقد درجت الأجيال التى تبعته على التمسك بآرائه، والاهتداء بأفكاره، بعد وفاته عام (٢٢٠).

والنجم الثانى الذى سطع فى سماء كنيسة أفريقية هو القديس كبريانوس.

أما شخصيته وظروفه فإنها تختلف عن ترتليانوس. فقد ولد من أبوين وثنيين. وتعلم ليصبح خطيباً. ووقع تحت تأثير كتابات سلفه، فاعتنق المسيحية. وعين أسقفاً على قرطاجة عام (٢٤٨). ومع أنه هرب من الاضطهاد الذى أثاره الإمبراطور دشيوس (٢٥٠) إلا أنه فى النهاية سلم نفسه،بعد ثمانى

سنوات،لأعوان قيصر،ونال إكليل الشهادة عام (٢٥٨). أما كتابات كبريانوس فإنها تعكس روحه واختباراته الرعوية، مثل بحثه فى الخدمة، وفى الأسرار الكنسية وغير ذلك، أما رسائله التى وجهها إلى اسطفانوس أسقف روما، فهى ذات أهمية خاصة..

ويمر قرن كامل من الزمان، قبل أن يسطع فى سماء أفريقيا النجم الثالث ونعنى به القديس أوغسطينوس أسقف هبو (٣٥٤ - ٤٣٠)،الذى تعتبر كتاباته بحق معالم الطريق فى تطور اللاهوت المسيحى...

والقديس أوغسطينوس أفريقى الموطن، من أم مسيحية وأب وثنى. ولقد درس الخطابة، ثم استغرق فى دراسة الفلسفة التى ملأته بالشكوك من جهة صحة المسيحية. ولمدة تسع سنوات، اعتنق المانشية، ولو أنها لم تشبع قلبه تماماً، ولم يجد فيها حلاً لكل مشاكله. ثم كان رحيله إلى روما حيث قضى فترة يتكسب قوته بتدريس الخطابة. وأخيراً هاجر إلى ميلان، حيث وقع تحت سحر القديس أمبروزيوس. ولقد شغف أولاً بالأفلاطونية الحديثة التى مهدت له الطريق للمسيحية. ويقال إن تأثره ازداد بدراسة حياة الأنبا أنطونيوس، حيث قرر أن ينال المعمودية بعد الاختلاء والتأمل مدة عام كامل. وهكذا اعتمد، وقطع على نفسه عهد الرهبنة، ثم عاد إلى مسقط رأسه فى طاغستا بشمال أفريقية حيث أسس، مع جماعة من زملائه القدامى الذين اعتنقوا المسيحية، أخوية رهبانية (٣٨٨). وبعد ذلك حينما زار «هبو» كان تعلق الناس به بهذا القدر، حتى أنهم حملوه بالقوة إلى الأسقف المسن فاليريوس، الذى رفعهُ إلى رتبة الكهنوت، وجعل منه معاونه الخاص. وبعد موت الأسقف، عام (٣٩٦) عُين فى مكانه. وظل محتفظاً برتبة الأسقفية حتى نهاية حياته عام (٤٣٠)، فى الوقت الذى كانت فيه قبائل الوندال المتبربرة تدق أبواب هبو.

ولقد كتب أوغسطينوس ضد كل الهرطقات التى كانت سائدة فى عصره، ومن بينها المانشية التى شغف بها فى البداية. أما أثره على الفكر اللاهوتى المسيحى، فقد فاق كل تأثير سابقيه. وبالقرب من أواخر أيامه، شُغل بمقاومة بدعة بلاجيوس، ويبدو أنه دافع عن عقيدة القدرية، والاختيار المسبق. ولكن لعل أقوى ما قدمه للفكر المسيحى من أعمال كتاب الاعترافات وكتاب مدينة الله.أما الاعترافات فقد لخص فيها انطباعاته عن حياته الأولى، حتى وفاة والدته (٣٨٧) أما «مدينة الله» فقليلة هى الكتب التى شكلت الفكر المسيحى فى العصور الوسطى نظيره. وبعد سقوط روما فى أيدى جحافل البربر عام (٤١٠)، تزعزع رجاء المسيحيين، وصدموا بصورة لم يسبق لها مثيل، وخُيل لهم أن نهاية العالم وشيكة. وأن الحضارة المسيحية لن تقوم لها قائمة بعد. بل إن العالم الوثنى خُيل إليه، أن اللائمة تقع على المسيحيين، وأن هذا من غضبة الآلهة. ولمدة ثلاثة عشر سنة، راح اللاهوتى العظيم يدافع بكل قوته عن حق المسيحية بالحجج والبراهين التى جمعت فى كتابه «مدينة الله» هذا العمل الخالد الذى يمكن أن نطلق عليه فلسفة الدين والتاريخ. وكما يقول البابا ليون الثالث عشر إن الكتاب يظهر كفاءة الحكمة المسيحية، وارتباطها الكامل بخير الدولة ومصلحتها، حتى أنه يبدو وكأنه، لم يقم بالدفاع فقط عن المسيحيين فى عصره، بل سحق كل التهم الموجهة ضدها إلى الأبد. إن مـدينة الله، أورشليم السـمـاوية، ملكوت الله، هوالملكوت الذى لا تستطيع الوثنية أن تعلو، مهما سمت بفلسفاتها إلى أسواره. أما صورة هذا الملكوت فى العالم فهى الكنيسة المقدسة الجامعة الرسولية. وبالطبع أسدى بهذا أعظم خدمة لكنيسة روما.

ويقول أحد الثقات عن أوغسطينوس...

«إن أسقف هبو قد جمع فى كيانه، عبقرية ترتليان، وسعة أفق أووريجانوس، ولاهوتية كبريان،ومنطق أرسطو، وحماس ومثالية وسبحات أفلاطون – لقد جمع

عقلية اللاتين العملية، إلى جوار عبقرية الإغريق الوقادة». وإننا نقول إنه لم يكن مقدراً لكنيسة شمال أفريقيا أن تنجب سوى هؤلاء العمالقة الثلاثة: ترتليان، وكبريان،وأوغسطين، فيكفيها هذا فخراً لتتبوأ مكانها الرفيع فى تاريخ المسيحية. ولكنها أسهمت أيضاً فى دائرة الخدمة المسيحية بآخرين، أمثال أرنوبيوس ولكتانشيوس، وغيرهما.

ومما لاشك فيه أنه تحت ظروف السلام الرومانى، وبعد إيقاف الاضطهاد، انتعشت المسيحية، ووسعت دائرتها إلى مناطق بعيدة فى أفريقيا، ونومديا، وموريتانيا. أما قرطاجة، فعلاوة على من ظهروا فيها من اللاهوتيين، كانت لها المجامع التى تلتئم لحسم الخلافات العقائدية. وهناك على سبيل المثال مجمع قرطاجة (٣٩٠) الذى التأم لمقاومة بدعة الدوناتيين التى انتشرت، والتى استشرى خطرها، حتى أن سبعين من أساقفتها اختاروا لأنفسهم أسقفاً خاصاً لمناوأة أسقف قرطاجة الشرعى. وقد قام بتنصيب كهنة عديدين،وأساقفة فى كل المدن. بل إن مقاومة أسقف هبو لهم، لم تأت بالثمرة المرجوة. ثم جاء غزو قبائل الوندال فى القرن الخامس، ولقد كانت تلك القبائل أريوسية فى معتقداتها. وهكذا قامت بإقصاء الكاثوليك، والدوناتيين،وأحلت محلهم أساقفة وكهنة من أتباع أريوس. بل إن اللوترجية التى كانت تُستخدم فى الكنائس باللغة اللاتينية، حلت محلها لوترجية بلغة الوندال أو الألمانية. ولقد كان ممكناً أن تمحق الكاثوليكية نهائياً من أفريقيا، لولا موت هنريك ملك الوندال عام (٤٨٤). وهكذا دخل عنصر جديد للارتباك بين سكان شمال أفريقيا الأصليين، جعلتهم ينظرون للمسيحية فى صورة ديانة الوندال بما يختلط بها من أساطير وخيالات وتقاليد - كأنها على قدم المساواة مع الوثنية، وتقاليدها.

ثم جاء عصر الحكم البيزنطى تحت إمرة جوستنيان. وكان هذا بداية عهد جديد

للاضطهاد ضد الأريوسيين، والدوناتيين، واليهود، وكذلك الوثنيين على السواء. أما إرغام زعماء البربر على اعتناق المسيحية، فلم يقدم ولم يؤخر فى التأثير على أتباعهم. بل بدا لهم، فى اختلاط المسيحية بالسياسة، أن المسيحية ليست سوى وسيلة للإرهاب والسيطرة، والقمع، والاضطهاد، لا تفترق فى ذلك عن الوثنية حينما كان صولجان الملك فى يمناها.

وهكذا تهيأت كل الظروف علي مسرح التاريخ، لتقع الواقعة... ليس لها من دون الله رافعة....

فإذا أتينا إلى الحديث عن المدن الخمس (أو كيرانايكا) وهى القيروان (الشاهات)، وأبولونيا (مرسى جوا) وبتولمايس (طولميتا) وبرينكى (بنغازى) وبرق (برقه) - فإننا نجدها كائنة بين طرابلس الغرب، ومنطقة مريوط فى الصحراء الغربية. أى أنها كانت أكثر ارتباطاً بمصر من قرطاجة التى تطل تجاه روما. ولقد كان لموقعها، كالمحطات النهائية التى تصل إليها القوافل من قلب الصحراء، ما جذب إليها التجار اليهود واليونانيين. كما أن اتصالها بالإسكندرية، كان له الفضل فى انتشار المسيحية فيها، فى الوقت الذى بزغت فيه شمسها على مصر. بل كما يؤكد بعض المؤرخين، أن رسول المسيحية فى مصر، القديس مرقس الإنجيلى، كان يهودياً مستوطناً فى القيروان. وهذا ما دفعه بعد أن لاقى نجاح كرازته فى مصر، أن يعود إلى موطنه لينشر المسيحية أيضاً هناك. وعلى ذلك فقد كانت المدن الخمس، منذ بداية تاريخ المسيحية مرتبطة مع مصر، حتى أن مجمع نيقية جعلها خاضعة لكرسى الإسكندرية. وحتى وقتنا الحاضر، يضاف إلى مناطق نفوذ بطريرك الإسكندرية كلمة «المدن الخمس وسائر شمال أفريقيا».

وعلى ذلك فلم يكن من الغريب، أن نشاهد الاتصال الدائم بين مصر والمدن الخمس، والتفاعل الروحى، والتبادل الثقافى، وسيادة اللغة اليونانية بينهما، شأن

الصلة الروحية التى كانت سائدة، بين قرطاجة وروما، بل إننا نقول إن معظم الشخصيات الكنسية البارزة فى المدن الخمس، قد تلقت تعليمها فى الإسكندرية. وليس هناك مثال يدلل على صدق هذه الحقيقة، من ظهور أريوس ونشاطه فى الإسكندرية، مما يدل على تغلغل تأثير ليبيا فى عاصمة مصر. ومن الجانب الآخر نرى أثر مصر على المدن الخمس فى صورة سنسيوس القيروانى، أسقف بتولمايس، الذى يضمه التاريخ إلى قائمة آباء الكنيسة الشرقية.

ولا بأس أن نشير فى كلمات إلى أحداث حياة أسقف بتولمايس، فلقد ولد من أبوين ثريين من القيروان. وهاجر إلى الإسكندرية ليتلقى العلم فى مدرسة هايبشيا، آخر صورة من صور الأفلاطونية الحديثة، وتتلمذ علي يديها واقعاً تحت سحرها. ومع أن أستاذته عاشت وثنية، وانتهت حياتها بالرجم على أيدى رهبان وادى النطرون، إلا أن تلميذها اعتنق المسيحية. وإننا لنرى رغبته فى العلم، تدفعه إلى الرحيل إلى أثينا، لدراسة الفلسفة. فيصاب بخيبة أمل كبرى تدفعه إلى الرجوع لبلاده. ثم نراه بعد ذلك فى القسطنطينية يطلب تخفيف الضرائب عن قومه. وقد أدى نجاحه فى هذا إلى انتخاب شعب القيروان له ليكون أسقفاً على البلاد. ولقد كان سنسيوس متزوجاً. وكانت عروسه من الإسكندرية وقام بعقد مراسيم الزواج له البطريرك ثاوفيلس (٣٨٥ - ٤١٢). وفى هذا ما يؤكد مسيحيته منذ ذلك التاريخ، ولو أن كثيرين من المؤرخين يؤكدون ارتباطه حتى نهاية حياته بالفلسفة الأفلاطونية، على الرغم من مركزه كأسقف للشعب. زيادة على ذلك فقد كان له شغف ببناء الكنائس، التى كان نظام بنايتها يشير إلى الظروف التى عاصرها. فقد كانت البلد معرضة لهجمات البربر المتكررة. ومن ثم كانت الكنيسة أشبه بقلعة حصينة تحوى كل مقومات الحياة. ويمكن أن يلجأ إليها الشعب، متى استلزم الأمر ذلك...

أما كتاباته فمعظمها فى صورة رسائل، أو على الأقل هذا ما وصل إلينا. وقد تقدم بها إلى مختلف الشخصيات: من هايبشيا معلمته الوثنية، إلى ثاوفيلس بطريرك الإسكندرية وهى مصدر غنى لمعرفة الظروف الاجتماعية التى عاصرها، والروح الشعبية التى كانت سائدة، وحصيلة مزيج الفكر الفلسفى مع اللاهوت المسيحى.

أما المؤرخون فإنهم يرفعون سنسيوس إلى مقام واحد من ثلاثة أعمدة كبار تأسست عليها الكنيسة المرقسية، الشخصيتان الأخريتان أزيدور كاهن بلسيوم، وشنوت الأتريبى من رهبان الدير الأبيض.

وخلاصة هذا كله أن المدن الخمس كانت تابعة للإسكندرية فى كل مراحل تطورها المسيحى. بل إنها اجتازت فى نفس نيران الاضطهاد نظيرها.وأن السنكسار القبطى ليضم واحداً من أساقفتها (ثيودور) الذى استشهد فى عصر دقلديانوس. حتى فى الهرطقات، نجد الدور مشتركاً بين الإسكندرية والمدن الخمس. ففى بدعة أريوس، نجد اثنين من الأساقفة الليبيين يساندانه. وكذلك فى بدعة سبليوس نجد مقاوميه من قلب مدن القيروان.

على أنه كانت هناك ثغرة فى مسيحية المدن الخمس، ربما لعلها من الأسباب الرئيسية التى أدت إلى انهيار بناء المسيحية هناك. تتمثل فى أن تركيزها اتجه إلى المستوطنين من اليونانيين، ترعى مصالحهم، وتصد عنهم غارات البربر، وتقيم لهم الكنائس، دون أدنى اهتمام بسكان البلاد الأصليين. فبقى هؤلاء كقبائل صحراوية فى ضلالهم ووثنيتهم، ومحيطهم الخاص. وهكذا حينما أتى الإسلام بجحافله، كان رحيل الدخيل اليونانى. وكان لقاء أبناء الصحراء بأبناء الصحراء، فى تفاهم ومودة وإخاء. وكان للمسيحية هناك مصير الاختفاء... أى اختفاء... أما فى النوبة فإننا نقول إنه، قبل مجىء المسيح بألفى عام، كان هناك تفاعل

وتبادل، بين شعب مصر وشعب النوبة. وإننا نجد ثقافة مصر، وحضارتها، وديانتها تتغلغل إلى قلب النوبة. حتى أنه قد أقيم هناك الكثير من الهياكل، وعلى الأخص فى عهد رمسيس الثانى. وليس هناك دليل على هذا أصدق من معبد أبى سمبل. وكذلك دلت الحفريات الحديثة فى أعالى النيل، فى منطقة شندى على تغلغل الحضارة المصرية هناك. لذلك لم يجد المرسلون الأقباط كبير صعوبة فى شق طريقهم إلى بلاد النوبة. بل إننا نجد أن ملوك النوبة أنفسهم كانوا يرسلون إلى الكنيسة المصرية سفارات طالبين مبشرين وكهنة للتبشير بالكلمة فى قصورهم.

وعلى ذلك لن تكون مغالين إذا قلنا إنه ما أن أتت نهاية القرن السادس حتى كانت المسيحية قد تغلغلت فى ممالك النوبة الثلاثة منتشرة جنوباً حتى أواسط السودان. أما المملكة الأولى فقد عرفت باسم نوباديا إلى الشمال. وتأتى بعدها مملكة الماكوريين ثم يليها عند ملتقى النيل الأبيض بالنيل الأزرق مملكة علوى. وكل الشعوب سكان الممالك الثلاث، قبلوا عن طيب خاطر أن يسيروا فى ركاب مصر، ويعتنقوا مسيحيتها. وعلى النقيض من مسيحية قرطاجة التى اختصت بالأثرياء والتجار، والطبقة العليا من اليونانيين، اتجه الأقباط إلى تبشير أهل النوبة أنفسهم، واهتموا بأن تنبع المسيحية من أعماقهم ولا تكون دخيلة عليهم. وهذا يرينا لماذا صمدت مسيحية النوبة إلى حد ما - حتى بعد الغزو الإسلامى- أكثر مما استمرت مسيحية شمال أفريقيا...

وإن الحفريات لتثبت لنا انتشار المسيحية فى تلك الأقطار. ووجود بقايا وآثار مسيحية فى حفريات مروا. زد على ذلك أنه اكتشفت بقايا ما لا يقل عن خمسين دير وكنيسة، بين أسوان، وسنار، على النيل الأزرق وقد حقق ذلك العالم الأثرى سومر كالارك. وحتى القرن الثالث عشر، يؤكد المؤرخ الأرمنى أبو صالح أنه كانت هناك سبع أسقفيات والعديد من الأديرة فى مملكة النوبة الشمالية. وأن مملكة علوى

(مملكة النوبة الجنوبية) كانت تضم أربعمائة كنيسة. وحتى لو قلنا إن هذا الرقم فيه أكثر من مبالغة، فإن الحقيقة تبقى أن المسيحية كانت مزدهرة هناك بعد ظهور الإسلام بمئات السنين.

وهناك أمر نود أن نشير إليه: أن مسيحية النوبة كانت مستقلة عن مسيحية أثيوبيا. وأن الاثنتين استقتا من ينبوع مصر. أما أثيوبيا فقد وصل إليها المبشرون عن طريق البحر الأحمر، ومواتنه. أما النوبة فقد وفد عليها المبشرون مع مجرى نهر النيل، أو عبر القوافل الصحراوية. وهكذا نرى أن كنيسة النوبة كانت أقرب إلى الكنيسة الأم، الكنيسة المصرية. ولم يحدث أن تخلت كنيسة مصر عن كنيسة النوبة إلا بعد أن أصبحت مبتلعة فى محيطها ومتاعبها بدخول الإسلام، فتركت شقيقتها للمصير المحتوم...

ثم جاء القرن السابع، وكان الغزو الإسلامى، لكافة مناطق الإمبراطورية البيزنطية.. ولقد كان غزو المدن الخمس، وشمال أفريقيا. النتيجة الحتمية، لاكتساح مصر (٦٤٠ - ٦٤٢)،والمنطق الطبيعى، لجيوش متحمسة متعطشة للغزو يذكيها لهيب الإيمان برسالة تريد نشرها، ودين تريد فرضه على الشعوب، ويدفعها الوعد، فى الاستشهاد بغفران كامل، وجنة عرضها السموات والأرض. ولقد كان فاتح الطريق عمرو بن العاص. ولكن الشخصية الرئيسية التى حملت عبء القتال، كانت عقبة بن نافع، محارب جبار اكتسح بسهولة مناطق برقة وأفريقيا. ثم جاء بعده أبو المهاجر دينار، وقد كان أكثر دبلوماسية، فاستطاع استمالة قبائل البربر إلى صفه، واعداً إياهم بالمساواة مع قوات جيشه، لمحاربة العدو المشترك: البيزانطيين، وقد استغرق الأمر بعض الوقت، حتى يقبل البربر عرض المسلمين السخى. وفى النهاية قبلوا اعتناق الإسلام، والإنخراط فى الجيوش المحاربة. وكان فى هذا الختم النهائى على مصير أقوى القلاع الباقية

للإمبراطورية البيزنطية فسقطت قرطاجة عام (٦٩٨)، وتوالت الانتصارات العربية على بقية المدن. أما المستوطنون المسيحيون فى تلك المدن، فقد قاموا بالهجرة إلى صقلية، وأسبانيا، وإيطاليا، جماعات جماعات وبهجرتهم بدأ عصر أفول شمس المسيحية هناك....

والآن دعنا نستعرض الأسباب التى أدت إلى اندثار المسيحية فى تلك الأقطار التى قدمت للمجتمع المسيحى، يوماً من الأيام، شخصيات عظمى أمثال ترتليانوس، وكبريانوس، وأوغسطينوس، وسنسيوس - وأول كل شيء نرى أن مسيحية شمال أفريقيا تمركزت فى المدن، فى الطبقة الأرستقراطية هناك ولم تهتم بأن توسع نطاقها، وترسل مبشريها إلى البربر بل إنها رأت فى سكان البلاد الأصليين أعداء ينبغى صدهم، والقضاء عليهم - فى القيروان وقف المسيحيون فى وجوههم. وفى قرطاجة كان نصيبهم الازدراء وبعد مجمع خلقدونية (٤١١). وبداية الاضطهاد من الدولة على المنوفزتين ازدادت الحالة سوءاً، ولم يبق للكنيسة القبطية متسع من الوقت أو الجهد، لتحديد المعونة لشمال أفريقيا. وهكذا ابتلع البربر فى محيطهم، ودياناتهم، وخزعبلاتهم بعيداً عن دائرة الحضارة المسيحية.

والسبب الثانى يكمن فى طبيعة البربر أنفسهم. فقد كانوا من قبائل الرحالة. أما أتباع المسيحية فقد كانوا من أهل المدن والتحضر. لذلك فحينما وفدت قبائل العرب وجدت فيها ما يتفق مع ميولها وطباعها.

والأمر الثالث أن العرب كانوا أسخياء كرماء مع البربر وهكذا قدموا لهم الامتيازات على قدم المساواة معهم. وإننا نجد حشودهم تشترك مع العرب فى حروب أسبانيا. وتبقى متمتعة بكافة الحقوق حتى بعد انتصار العرب الساحق هناك، عام (٧١١).

والسبب الرابع موجات الهجرة التى غيرت ميزان القوى فى تلك المناطق. ففى

الوقت الذى كانت هجرة المسيحيين على أشدها، أمام أمواج الزحف الإسلامى، كان هناك استيطان جديد من القبائل العربية. فلقد أصبحت برقة وأفريقيا ذات سحر خاص لدى العرب.وهكذا وفدت قبائل بأكملها لتحتل أماكن الرومان، واليونانيين. وأن أصدق مثل على ذلك، ما يذخر به الأدب الشعبى من قصص مغامرات بنى هلال،وبنى سالم. ثم ما لبث أولئك أن تمازجوا وتصاهروا مع البربر ليكونوا شعباً واحداً، فى فترة لم تطل كثيراً...

والسبب الخامس أن كيان القيروان، والمدن الخمس، كان قائماً على الرق، وتجارة الرقيق. ولم يفعل المسيحيون شيئاً أمام هذه الوصمة الاجتماعية. حتى جاء الإسلام، وأعطى الحرية والمساواة لكل من ينضوى تحت لوائه، وينخرط فى سلك الجيش العربى...

والسبب السادس، نير الضرائب الثقيل الذى فرضته بيزنطة على مستعمراتها، والمعاملة القاسية ضد البربر على وجه الخصوص. ومع أن الإسلام لم يخفف نير الضرائب. إلا أنه قدم لهم ما يعوض عن ذلك، فى روح الإخاء والمساواة. لذلك لا غرابة أن تدخل قبائل البربر فى دين الإسلام أفواجاً، ليجدوا الترحيب والصدر المتسع. ولا غرابة أن يمدوا يد المعونة للعرب، متعاونين فى سحق المسيحية من تلك الديار، التى كانت بالنسبة لهم رمز كبرياء، وإذلال، وعنصرية. وكان الطريق ممهداً كما أشرنا. فلقد كانت الكنيسة المسيحية على شفا الانهيار.

أما فى حالة كنيسة النوبة فقد كان الأمر يختلف كل الاختلاف.ولكن ما لم ينجح فيه العرب بالدبلوماسية، استطاعوا أن يصلوا إليه عن طريق السيف.... خلال أكثر من عصر وجيل وعن طريق تصعيد الجزية، وعن طريق تقوية العنصر الإسلامى. بتهجير قبائل عربية وتوطينهم فى النوبة، مثل عرب الجهاينة وغيرهم. ولا يظن القارىء أن الكنيسة المسيحية سلمت نفسها بسرعة بين أيدى الأعداء.

فقد اقتضى الأمر صراعاً وحروباً دامت حتى القرن الرابع عشر.....

ونطوى هذه الصفحات الحزينة. وكما يقول أبناء الغرب «ما جدوى البكاء على اللبن المسكوب؟»

AUTHORITIES المراجع

أولاً : كرسى الإسكندرية:

1) "Eastern Christianity"
Dr. Aziz. S. Attiyah.

2) «موسوعة تاريخ الأقباط»
الجزء الأول - زكى شنودة

3) «ضحى المسيحية» رابطة الكتاب المسيحيين بالشرق الأدنى.

ثانياً : كرسى أنطاكية:

علاوة على ما تقدم

4) "Outline of Syriac Lit."
Q William Wright.

ثالثاً : النساطرة:

علاوة على ما تقدم

5) "The Oldest Christian Church."
Henry Holme.

رابعاً : كنيسة جنوب الهند:

6) Dr. Aziz. S. Attiyah.
"Eastern Christianity".

7) خامساً : الكنيسة المارونية:

علاوة على ما تقدم

«لبنان فى التاريخ»

فيليب حتى

سادساً : الكنيسة الأرمنية:

«علاوة على ما تقدم»

8) "The Forty days of Musa Dagh"
Franz Wrefel.

سابعاً : كنائس المسيحية الغاربة:

اعتمدنا فيه على ما قدمه:

9) Dr. Aziz. S.: Attiyah.

ثامناً : مراجع عامة:

10) The Oxford Dictionary of the Christian Church.

11) تاريخ الكنيسة «ليوسابيوس القيصرى»
ترجمة القمص مرقس داود

12) The Separated Eastern Church Pere Ienin.

13) العيشة الهنية فى الحياة النسكية.

هذا الكتاب

يتناول كنائس المشرق (كرسى الإسكندرية ــ كرسى أنطاكية ــ الكنيسة المارونية والكنيسة الأرمنية) .

والكاتب إذ يستعرض دور كل من هذه الكنائس على حدة ، إنما يركز بصفة خاصة على الفترات الحاسمة التى شهدتها هذه الكنائس .

واستكمالاً للصورة أُفرد باب خاص للحديث عن طائفة النساطرة نشأة وعقيدة ــ اختتم الكتاب بفصل اختص به الكنائس المسيحية فى قرطاجة والنوبة والمدن الخمس ، منذ نشأتها حتى أصبحت فى ذمة التاريخ ، والعوامل التى ساعدت على ذلك .

والواقع أن كتاب « كنائس المشرق » يعد سجلاً لا غنى عنه لكل من يريد الإلمام بتاريخ المسيحية والكنيسة .

دار الثقافة



١٠١٠٣٥١٧